الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبوالخير
أستاذ علم اللغة بجامعة المنصورة
خبير جامعة جالا الإسلامية
تايلانـــد

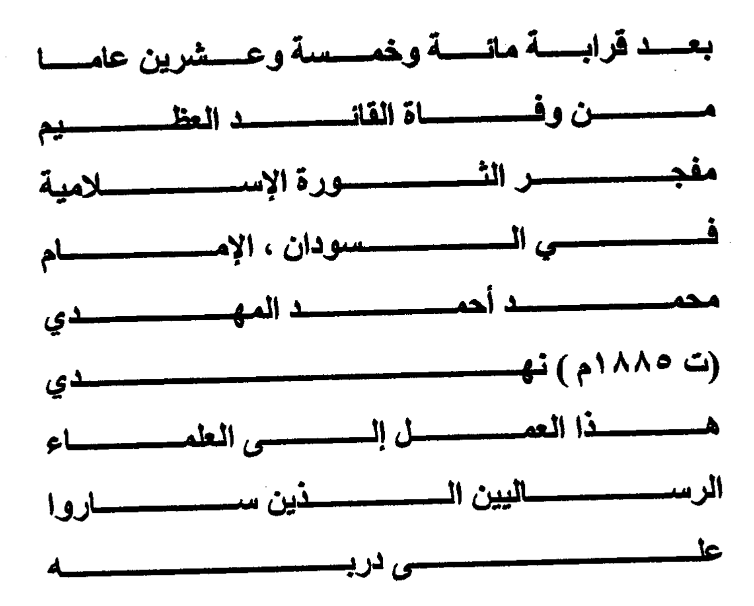
دراســـات فـي
الثورة والثوار والتحرر والتحرير

[٢]

الثائر الكبير محمد المهدي ت ١٨٨٥م
من شيوخ الصوفية في القارة الإفريقية

الناشر
دار الأصدقاء بالمنصورة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

الإهداء



بعد قرابة مائة وخمسة وعشرين عاما
من وفاة القائد العظيم
مفجر الثورة الإسلامية
في السودان ، الإمام
محمد أحمد المهدي
(ت ١٨٨٥م) نهدي
هذا العمل إلى العلماء
الرساليين الذين ساروا
على دربه

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هيأ الله لي بفضله ومنه أن أدرس الخلافة الإسلامية في غرب إفريقية فوجدت قصة مثل قصة محمد بن عبد الله (ﷺ) مع قومه ، ابتلاء ، هجرة ، بيعة ، جهاد ، فتح ، خطوات هي بخطوات النبي الأمين أشبه ، وسيرة كسيرة سيد الخلق مع صحابته وأنصاره ، فهل كانت تلك مجرد مصادفات ؟ لقد ظننت ذلك في بداية الأمر ، ولكن أحد الأصدقاء ذكر لي كتابا عن المهدي ، فمن يكون هذا الرجل ، وماذا نعرف عنه غير معلومات مبتورة مشوهة في الكتب المدرسية ؟

إلا أن الحظ قد وأتاني فقرأت عن صلة هذا الرجل وخليفته عبد الله التعايشي بالحركة الفودوية ، وبأحد أحفاد الشيخ عثمان بن فودي ، وهو الشيخ حياة بن سعيد ـ رحمهم الله ـ ومن ثم ألهمني ربي بدراسة الحركة المهدية في السودان لتجلية وجهها الحقيقي ، ووضعها في مكانها من تاريخ المسلمين الجهادي ، فوجدت أنها قصة لا تختلف كثيرا عن قصة ابن فودي ، إذن ما حدث في غرب إفريقية ليس مصادفة، وإنما هو منهج سيدنا محمد (ﷺ) وقد سار عليه الرجلان ، فنصرهما الله ، كما نصر سيد الخلق ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

وبدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر ، وإذ بي أستعيد أحاديث المصطفى (ﷺ) : (العلماء ورثة الأنبياء ـ العلماء أمناء الرسل ـ في كل قرن من أمتي سابقون ... الخ) هذان الرجلان ابن فودي والمهدي ـ رحمهما الله ـ من العلماء ، فهما من ورثة الأنبياء ومن أمناء الرسل على عباد الله تعالى ، فلا عجب إذا كانت سيرتهما كسيرة

الرسول ، بل العكس هو الصحيح.

وبدأت أفهم - على أرض الواقع - ماذا تعني ولاية الفقيه ، فإن وضع القضية لا ينبغي أن يكون مجرد تحريض المسلمين على إتباع العلماء والفقهاء ، بل الوضع الصحي أن الجماهير المسلمة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ظالما ، ولا تستطيع أن تكون شيئا ، بدون قيادة ، ولا قيادة لها إلا ورثة الأنبياء ، وأمناء الرسل على عبد الله تعالى.

جماهير المسلمين لا يمكن أن تحقق شيئا بدون علماء الدين الرساليين ، تلك حقيقة تاريخية يجب أن ترسخ في ذهن كل مسلم ، وما حدث في السودان على يد المهدي ، وفي غرب إفريقية على يد ابن فودي ، وما حدث في غيرهما من أقطار الإسلام لهو دليل مؤكد لهذه الحقيقة ، بل ما تم في إيران وأفغانستان ولبنان من انتصارات الإسلام ما كان ليتم لولا قيادة علماء الدين ، وليقولوا في وسائل الإعلام ما يحلو لهم ، فهم لا يخدعون إلا أنفسهم .

كما تبين لي أن تاريخ المسلمين مكتوب بطريقة مقلوبة ، فالمجاهدون الرساليون ليس لهم مكان في هذا التاريخ ، أو تشوه صورتهم عمدا أو جهلا ، أما الأقزام والزعماء المصنوعون ، وتجار السياسة والدجالون ، فهم من المجد على ذروته ، وهم أصحاب الثورات والقادة الملهمون ... الخ مما يستوجب النظر في تاريخ المسلمين ، وبخاصة في الحقبة الاستعمارية ، لوضع الأمور في نصابها ، ومعرفة القائد الرسالي من الزعيم المزيف.

إن الثورات التي قادها علماء الدين ضد المستعمرين والمنافقين في حاجة ماسة إلى دراسة تحليلية تجليها ، وتكشف عن وجهها المشرق الوضاء ، إن العالم

الإسلامي لم يخضع للاستعمار ـ ولو مؤقتا ـ إلا بعد معارك طاحنة دامية ، قدم فيها المسلمون مئات الألوف من الشهداء الأبرار ، وكل هذه المعارك لم يتول قيادها غير علماء الدين ، وحين طرد المستعمر أخيرا من بلاد المسلمين كان نضال هؤلاء العلماء في الذروة من النضال ـ إن كان ثم مناضلون غيرهم ـ مثل السنوسي وعمر المختار وابن باديس ... الخ.

وهذه الدراسة التي نقدمها الآن عن المهدي تعطينا مثلا واحدا لنضال واحد من علماء الدين الذين يزدهي بهم تاريخنا الجهادي ، ودراسة ثورة المهدي ، وما نتج عنها من إقامة خلافة إسلامية ، على منهج النبوة توضح المنهج الإلهي الذي وضعه الله لهذا الكون ، الذي يأتي تفصيله في مفتتح هذه الدراسة ، فقد خلق الله الكون ، وجعل الصراع بين الجاهلية والإسلام ، بين الحق والباطل ، أزليا وضروريا مؤكدا ، إذ يقول : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ [1]).

هذا الصراع يمر بمراحل أربعة هي :

١ ـ هيمنة الجاهلية. ٢ ـ القيادة الرسالية.

٣ ـ تحرك الجاهلية. ٤ ـ التمكين والفتح.

فإذا هيمنت الجاهلية فإن الله يمن علينا بالقيادة الرسالية ـ التي كانت للأنبياء ، فأصبحت للعلماء بعد انقطاع الوحي ـ وهنا تتحرك الجاهلية بكل قوتها للقضاء على القيادة الرسالية ، فإن انتصرت جاءت مرحلة التمكين والفتح ، فإذا استطاعت الجاهلية أن تقضي على القيادة الرسالية ـ بوسيلة أو بأخرى ـ عادت الجاهلية مرة

(1) ٢٥١ ، البقرة.

أخرى تهيمن وتستبد ، حتى تأتي قيادة أخرى تصارع الجاهلية حتى تصرعها ، فإذا فعلت كانت مرحلة التمكين والفتح ، التي تطول أو تقصر حسب قدرة المسلمين على الصمود أمام الجاهلية.

ذلك منهج الله وسنته لهذا الكون ، فلابد للناس أن يذوقوا مرارة الجاهلية حتى يعرفوا قيمة الإسلام وحكم الإسلام ، وهو ما لا ينال إلا بالتضحيات الجسام والدماء الغزيرة المدرار ، ولو كان سهل المنال ما حرص الناس عليه ، فما ينال بسهولة يضيع بسهولة ، والعكس صحيح.

وسيرة رسول الله (ﷺ) هي صورة لمنهج الصراع الذي ذكرناه ، كما سيأتي والأسلحة التي استخدمتها الجاهلية ضده هي نفس الأسلحة التي تشهرها الجاهلية في وجه القادة الرساليين ، في كل عصر وأوان ، ولذا فإن الرد على هذه الأسلحة لا يكون إلا بإتباع منهاج رسول الله (ﷺ) والسير على سنته وسكته ، كما يعبر المهدي ولذا تجد ابن فودي وغيره من القادة الرساليين يرفعون نفس الأسلحة التي رفعها رسول الله (ﷺ) من الدعوة والهجرة والبيعة والجهاد ، وتنمية روح الجهاد والاستشهاد والتضحية في سبيل الله ... الخ خطوات هذا المنهج الذي طبقه محمد بن عبد الله أحسن التطبيق وأكمله.

ويجب أن يتضح في ذهن القارئ الفارق بين منهج الله الذي سنه لهذا الكون أي سنة الله ، وقوانينه ، وبين منهاج النبوة الذي طبقه الرسول (ﷺ) كما أمره ربه فمن الأول مثلا إهلاك مكذبي الرسل (ﷺ) قبل نزول التوراة ، كانت هذه سنة من سنن الله في كونه ، أما منهاج النبوة فهو ما نزل على الأنبياء ، وأوحى إليهم ، من أوامر ونواهٍ ... الخ ، وبخاصة نبينا محمد بن عبد الله (ﷺ) وكما أمرنا النبي بتطبيق

هذا المنهاج الأخير فأتباع النبي (ﷺ) مطالبون أيضا بنفس الشيء.

منهج الله في الكون وسنته لا اختيار لنا فيه ، ولسنا مطالبين بشيء منه ، فإن الله (ﷻ) تكفل بهذا المنهج الذي يخضع له كل ما في كونه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ... الخ أما منهاج النبوة فنحن مطالبون بتطبيقه متبعين سنة نبينا (ﷺ) وطريقه ، إذا نحن محاسبون على كل جزئية من جزئيات هذا المنهاج ، حتى قصف الأظافر ، والتيامن [١] وغيرهما ، مما قد يعتبره بعض الناس أمورا شديدة البساطة ، قليلة الأهمية ، ولكننا لا ننتصر على أعدائنا إلا بتطبيق المنهاج كاملا ، فحين استبطأ المسلمون فتح مصر نظروا عما نسوه من سنة نبيهم (ﷺ) فكان السواك ، وحين استاكوا [٢] جاءهم نصر الله ، سبحانه وتعالى.

على أية حال فإننا يسعدنا أن نقدم هذا العمل المتواضع ، الذي يأتي بعد قرابة قرن وربع القرن من وفاة مفجر الثورة المهدية ، الذي أسلم الروح في هذا العام ١٨٨٥م ، من أسف أن ذكرى مثل هذا الرجل تمر بهدوء على عالمنا الإسلامي دون أن يحسّ بها أحد ، اللهم إلا بعض المقالات في الصحف التي يمكن أن تعطتي إشارات مبتورة مشوهة ، تكاد لا تلفت الناظر إليها [٣] ، أما في بريطانيا فإن عام ١٩٨٥ كان عام غوردون ، الذي قتل في الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥م ، وقد

---

(1) البدء باليمين.
(2) استعملوا السواك.
(3) نشرت صحيفة الجمهورية القاهرية بتاريخ ١٩٨٥/٦/٢٧م تقريرا عن بحثين قدما إلى ندوة العلوم السياسية في الوطن العربي ، التي انعقدت في قبرص ، فبراير ١٩٨٥م ، وكان عنوان التقرير : السودان من المهدي إلى سوار الذهب ، تحدثت سطور قليلة عن الثورة المهدية ، منها : (نجحت الثورة المهدية عام ١٨٨١م في توحيد الشعب السوداني ، وتحرير السودان ، وقامت الدولة المهدية وفقا للشريعة الإسلامية ، إلا أن هذه الدولة ذات الحاكمية الإسلامية المطلقة ، الشبيهة بثورة الخميني قادت إلى معارضة قوية لها من مختلف القبائل ...) أما معارضة القبائل التي أشارت إليها الصحفية فسيعرف القارئ زيفها عند مطالعة هذا الكتاب.

نشرت إحدى الصحف القاهرية أن مصر شاركت في احتفالات عام ١٩٨٥م مرور مائة عام على وفاة المهدي ، وسوف يفهم القارئ الكريم معنى هذا المشاركة بعد قراءة قصة الصراع بين الثورة المهدية وبين أعدائها.

المؤلـــف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال (ﷺ) :

- [العلماء ورثة الأنبياء].
- [في كل قرن من أمتي سابقون].
- [العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ، ما لم يخالطوا السلاطين ، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل ، فاحذروهم واعتزلوهم].
- [الفقهاء أمناء الرسل ...].

صدق رسول الله (ﷺ).

بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج البحث

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ .

آمين ، آمين ، اللهم استجب يا رب العالمين ، نعم نحمدك يا رب ، فأنت الرحمن الرحيم ، لقد اقتضت حكمتك يا ربي أن يكون الإنسان خليفة لك في الأرض ، وكان من رحمتك وفضلك يا رب الأرباب أن جعلت الإنسان الأول الذي هبط أرضك نبيا ، فقد اقتضت إرادتك أن تبدأ الحياة بالنبوة ، بالهداية والإرشاد ، بمصابيح الدنيا تنيرها وتنشر الهدى والطهر والصلاح.

وأبت رحمتك يا كريم يا منان ألا تترك الإنسان يضيع بين ظلمات الجاهلية وخرافاتها ، فكلما شرد الناس عن منهج النبوة أرسلت مصباحا جديدا ، لتستمر مسيرة الحق إلى يوم الدين ، حتى إذا ما أوشكت الدنيا أن تأفل نجومها وشموسها وأن تنتهي إلى غير رجعة نزل ابن مريم يحكم بشريعة الهادي محمد (ﷺ) خاتم الرسل والنبيين ، الشافع المشفع ، فلك الحمد يا رب ، بدأت الخلق بالنبوة وختمته بالنبوة أيضا.

مات الأنبياء جميعا ، وحاول اليهود قتل المسيح ، ولكن الله رفعه إليه ، لحكمة أرادها ، أن ينزل آخر الزمان ليحكم بشريعة محمد (ﷺ).

وحين مات خاتم الأنبياء ، الذي لا نبي بعده ، لم تتركنا يا رب حيارى في دياجير الجاهلية ، بل جعلت لأنبيائك ورثة ، ولرسلك أمناء على عبادك ، إنهم العلماء الربانيون ، الراسخون في العلم ، المجاهدون الرساليون ، بهم تنكشف الظلم وتنزاح الكرب ، يمسكون بيد قرآن ربهم ، وبيد سيف مصلت ، يقيمون الدين ، يخرجون الناس من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام العظيم.

ولقد شاءت رحمتك يا رب ألا يهلك الناس جميعا ، المعاند والمحارب والعاصي والمحايد والناصر ، كنت تبعث المرسلين إلى الناس فإن خذلوا رسولهم أهلكتهم جميعا ، كما أهلكت عادا وثمود وقوم لوط ، ولكن بعد أن نزلت التوراة على نبي الله موسى (ﷺ) تغير الحال فأمر موسى بالجهاد والقتال ، ورحمت الناس يا إلهي بعدم إهلاكهم جميعا ، أصبح على النبي ومن معه أن يحاربوا من يحاربهم فقط ولا يحملون السيف إلا على من يصد عن دين ربهم.

سار موسى (ﷺ) في درب الجهاد ، ثم أتبعته بعيسى ابن مريم البتول - عليهما الصلاة والسلام - ثم عادت الجاهلية مرة أخرى فأرسلت خاتم النبيين والرسل محمد الأمين (ﷺ) وأمرته أن يحارب عن الدين ، ويحمل السيف على المعاندين المناوئين ، رحمة بغيرهم ممن لا يصدون عن سبيل الله ، ولعل في قلوبهم الحنين إلى انتصار الدين ، ولقد سجل التاريخ لك يا قرة العين يا رسول الله - عليك أفضل الصلاة والسلام - موقفك العظيم حين عرض عليك أن يطبق على قريش الجبلان فأبيت ؟ عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ولقد صدقت النبوة.

لقد كان إهلاك الأقوام قبل نزول التوراة يتم بدعوة من الرسول ، وبيد الله المباشرة ، ودون أن يبذل المؤمنون جهدا ، ولكن ذياك الحال تغير ، وفي القرآن

والحديث الدال على ما نقول ، ولعل أوضحها وأشدها صراحة قوله تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) [1].

ولقد شاءت إرادة الله بالمسلمين رحمة وفضلا ، فإن قتال الأعداء مجلبة لرضا الرب ، وباب من أبواب الجنة ، شديد الاتساع والرحابة ، وإن في قتال الأعداء وجهادهم تمحيصا للمؤمنين ، واختبارا لمعادنهم ، وطريقا إلى سعة الرزق ، والعزة والكرامة ، والفوز بسعادة الدارين وإقامة شرع الله على الأرض.

إذن لا نبي بعد الأمين (ﷺ) ولكن هناك العلماء ، ورثة الأنبياء ، أمناء الرسل حصون الإسلام ، فكيف نعرف صادقهم من المدعي ووعاظ السلاطين من العلماء الربانيين ، علينا أن نستخدم معيار النبوة ، ولنا في سيرة نبينا الأكرم - عليه أفضل الصلاة والسلام - الأسوة الحسنة ، والقدوة العطرة ، فكل من كان من النبي الخاتم أقرب وبه أشبه وبسيرته وبجهاده مستمسك فهو الوارث الأمين الذي نعطيه الإمامة والقيادة والزعامة ، تكون فتواه أمرا مطاعا كأمر ربنا (ﷻ) ، فهم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم مع طاعة الله ورسوله ، قال تعالى : (أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) [2].

ولدينا في التاريخ أنصع الأمثلة للعلماء المجاهدين ، ويزخر بهم التاريخ القديم والحديث ، منهم عثمان بن فودي ، المتوفي ١٨١٧م ، ومحمد أحمد المهدي المتوفي ١٨٨٥م ، والإمام [3] الخميني - رحمه الله - هؤلاء الذين ساروا على منهج نبيهم ، محمد بن عبد الله (ﷺ) فمكن لهم الله في الأرض ، ونصرهم على أعدائهم ،

(1) ١٤ ، التوبة.
(2) ٥٩ ، النساء.
(3) هي مجرد أمثلة فقط.

وكان سر نجاحهم جميعا أنهم طبقوا المنهج الإلهي بحذافيره إن صح التعبير ، أو حاولوا قدر الطاقة والوسع.

المنهج الإلهي :

إنه المنهج الرباني الذي اختطه عالم السر والعلن ، فإن نبينا الأكرم (ﷺ) (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) [1] هذا المنهج الإلهي طبقه كأكمل ما يكون محمد الأمين (ﷺ) ، فكان له النصر والتمكين.

هذا المنهج يمكن أن يلخص فيما يلي :

تهيمن الجاهلية وتستبد بالناس ، وهنا تظهر القيادة الرسالية ، التي كانت للأنبياء فأصبحت للعلماء بعد انقطاع الوحي ، فتتحرك الجاهلية للدفاع عن نفسها معرضة القيادة وأنصارها لمختلف أنواع الضغط والإرهاب ، تلجأ إلى العنف الرهيب تارة وإلى المساومة والمناورة والمداورة أخرى ، يدور الصراع عنيفا ماكرا ، تتعرض القلة المؤمنة لمختلف أنواع الابتلاءات والاختبارات ، فإن نجحت القلة وقيادتها مكنها الله ونصرها ، وأقامت دولة العدل الإلهي ، ولا تنتهي الحكاية وتأتي النهاية مع الجاهلية ، بل تبقى الدولة المسلمة في رباط وجهاد إلى أن تسقط ، وتظل الجاهلية متربصة بها لا تترك فرصة لحربها ، ولا تهمل نوعا من أنواع الحروب ، الحرب الإعلامية ، والاقتصادية ، حرب الدم والسلاح ، حرب المؤامرات ... الخ.

وتستطيع من خلال سيرة نبينا الأكرم (ﷺ) أن نفصل ها المنهج مع إشارة إلى سيرة هؤلاء العلماء المجاهدين السائرين على درب نبيهم.

---

(1) ٣ - ٥ ، النجم.

١ـ هيمنة الجاهلية : مما لا يحتاج إلى دليل أن الجاهلية قد هيمنت قبل البعثة وعربدت واستبدت بالعباد ، فالظلم والجور والفساد ، في كل مكان ، في القوتين الكبريين ، فارس والروم ، في الجزيرة العربية وغيرها ، ويستطيع القارئ الكريم أن يرجع إلى ما يشاء من [1] الكتب والكتاب ليقف على تمكن الجاهلية واستحكامها بالخلق ، وسيطرتها على الأمور كلها ، وفساد اليهود والنصارى وتحريفهم لما جاء به موسى وعيسى ، عليهما الصلاة والسلام.

٢ـ القيادة الرسالية : هنا لم يترك ربنا عباده هملا ، تفترسهم الجاهلية ، بل منَّ عليهم بالنبي الخاتم سيد الخلق أجمعين ، ولكن ماذا حدث لهذا النبي ، وكيف استقبله قومه ، وماذا فعلوا ؟ إنها الخطوات التالية :

٣ـ تحرك الجاهلية : يقول ابن هشام : (لما بادى رسول الله (ﷺ) قومه بالإسلام وصدع به ـ وقد كان المسلمون مستخفين ـ كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون).

وهكذا تحركت الجاهلية حين عرفت أن الإسلام لن يتركها بل سينازلها ليصرعها ، ويزيلها عن كاهل الخلق.

ولكنها قبل أن تنزل حلبة الصراع مع الدين الجديد وصاحبه لجأت إلى عمه أبي طالب ، مستغلة قرابة الرجل ومكانته عند ابن أخيه ، يقول ابن هشام :

(1) انظر مثلا ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي.

مضى الرسول على أمر الله مظهرا لدينه ، لا يرده عه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم في شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش فقالوا : (يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وأما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفكيه) فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردا جميلا ، فانصرفوا عنه.

ومضى الرسول (ﷺ) على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم تفاقم الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال ، وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر الرسول (ﷺ) بينهما ، فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : (يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين).

ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم وخذلانه ، فبعث إلى الرسول (ﷺ) وقال له : (يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق) فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا له أن عمه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام به ، فقال : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته) ثم استعبر الرسول (ﷺ) فبكى ، ثم قام ، فلما قام ناداه أبو طالب فقال : (أقبل يا ابن أخي) فأقبل عليه الرسول (ﷺ) فقال : (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا

أسلمك أبدا).

ثم إن قريشا عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان الرسول (ﷺ) وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، قالوا له : (يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل) فقال : (والله لبئس ما تساومونني ، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني فتقتلونه ، هذا والله ما لا يكون [1] أبدا) فقال المطعم بن عدي : (والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا) فقال أبو طالب : (والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك) فاشتد الأمر وحميت الحرب ، وتنابذ لها القوم .... انتهى كلام ابن هشام.

وتستمر مسيرة الصراع والنزال ، وتفقد الجاهلية صوابها ، وتجابه الدين الجديد وأصحابه بالنار والحديد ، وتبدأ مرحلة الابتلاء والاختبار والتمحيص للنبي الأكرم (ﷺ) ومن معه ، ومرة أخرى نعود إلى ابن هشام الذي يقول : ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله (ﷺ) الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب ، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ، والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهب.

---

(1) موقف رجولة من أبي طالب الذي بقي على دينه ، ومع هذا لم يتخل عن ابن أخيه.

فجعلت قريش حين منعه الله منها ، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يهمزونه ويتهزءون به ويخاصمونه ، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم ومنهم من سمى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار ، فكان ممن سمى لنا من قريش ، ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب.

وكان أشد ما لقي رسول الله (ﷺ) من قريش أنه خرج يوما ، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله (ﷺ) فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله قوله : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...) [1] ، انتهى كلام ابن هشام.

أما تعذيب الصحابة كبلال وآل عمار وغيرهم فقد فاضت به كتب السيرة المطهرة ، وليرجع إليها القارئ ، إن شاء ، كل هذا ابتلاء وتمحيص ، لتأتي النصرة والتمكين إن شاء الله.

ولكن بعدها العذاب والإرهاب هل ضعف المؤمنون ، هل تراجع النبي الأكرم (ﷺ) ؟ كلا ، وهنا بدأت الجاهلية تجرب سلاحا آخر ، إنه المقاطعة الشاملة والضغط الاقتصادي ، هذا الذي كتبوه في صحيفة ، علقت في جوف الكعبة يقول ابن هشام :

لما رأت قريش أن أصحاب الرسول (ﷺ) قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا وأن النجاشي قد منع من نجا منهم إليه ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله وأصحابه ، وجعل الإسلام ينتشر في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا ، يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على ألا

---

(1) ١ ، المدثر.

ينكحوا إليهم ، وينكحوهم ، ولا يبيعونهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم شيئا ، فما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيدا على أنفسهم.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا في شعبه ، واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم عبد العزى بن عبد المطلب - أبو لهب - إلى قريش فظاهرهم ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سرا مستخفيا من أراد صلتهم من قريش ... انتهى.

وبعد أن تفشل هذه المقاطعة الشاملة والحصار الاقتصادي بسبب صمود النبي الأكرم (ﷺ)وأصحابه تفكر الجاهلية في سلاح آخر ، إنه سلاح المساومة ، إنها المناورة والمداورة ، إنه الحرب ، أو قل الصراع ، الذي لا يترك سلاحا إلا جربخ أو طريقا إلا سلكه.

بدأت الجاهلية تساوم محمدا (ﷺ) لتعرض عليه المنصب والجاه والمال والسيادة ، لقد عرض على النبي الأكرم (ﷺ) أكبر رشوة في التاريخ ، إن صح التعبير ، فلنستمع مرة أخرى إلى ابن هشام ، يقول :

إن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا وعلى رأسهم عتبة وشيبة وأبو سفيان وأبو جهل بعد غروب الشمس عن ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه : (إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فائتهم) فجاءهم رسول الله سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : (يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا

من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك).

- (فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا).
- (وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا).
- (وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا).
- (وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه ، قد غلب عليك ، ربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو تعذر فيه).

فقال لهم رسول الله (ﷺ) : (ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم).

وينصرف الرسول (ﷺ) حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .... انتهى.

وهذا العرض تكرر قبل ذلك حين أسلم الحمزة ، يقول ابن هشام :

حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله (ﷺ) جالس في المسجد وحده : (يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا) وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله (ﷺ) يزيدون ويكثرون ، فقالوا : (بلى

يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه) فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال : (إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها.

قال رسول الله (ﷺ) : (قل يا أبا الوليد أسمع) قال : (يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به مُلكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه ، ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى) حتى إذا فرغ عتبه ورسول الله (ﷺ) يستمع منه قال : (أقد فرغت يا أبا الوليد) قال : (نعم) : قال : (فاسمع مني) قال (أفعل) فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا [1] إِلَيْهِ ...).

ثم مضى رسول الله (ﷺ) فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، ثم انتهى رسول الله (ﷺ) إلى السجدة فيها فسجد ، ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك).

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال : بعضهم لبعض : (نحلف بالله ، لقد جاءكم

(1) سورة فصلت.

أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به) فلما جلس إليهم قالوا : (ما وراءك يا أبا الوليد؟) قال : (ورائي أني قد سمعت قولا - والله - ما سمعت مثله قط - والله - ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به) قالوا : (سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه) قال : (هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم) ... انتهى.

إذن هو اقتراح أبي الوليد ، العرض التاريخي الذي لم يتكرر ، ولم يجد به الزمان على أحد ، وما أعقلك يا أبا الوليد حين نصحت قومك بأن يخلوا بين النبي وبين دعوته ، إلا أن القوم أصروا واستكبروا استكبارا.

ولم تنس الجاهلية الحصار الإعلامي ، سلاح التشهير ، وما يمكن أن يسمى بالحرب الباردة ، فماذا أعدت قريش هنا ، وفي أي شيء فكرت ؟ يقول ابن هشام :

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم - وقد حضر الموسم ، فقال لهم : (يا معشر قريش ، إنه حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا) قالوا : (فأنت يا أبا عبد شمس فقل فأقم لنا رأيا نقول به) قال : (بل أنتم ، فقولوا أسمع) قالوا : (نقول كاهن ؟) قال : (لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سجعه). قالوا : (فنقول مجنون ؟) قال : (ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقة ولا تخالجه ، ولا وسوسته) فنقول : (شاعرا ؟) قال : (ما هو بشاعر ، لقد

عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر) قالوا : (فنقول : ساحر ؟) قال : (ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم) قالوا : (فما نقول يا أبا عبد شمس ؟) قال : (إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وعشيرته).

فتفرقوا عن الوليد بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، فأنزل الله : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ...) [1] الآيات ، وجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله (ﷺ) ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ... انتهى.

هنا استخدمت الجاهلية سلاح التشهير ، ولكن النتيجة كانت على عكس ما أرادت ، فقد عرف من لم يعرف من العرب دعوة محمد بن عبد الله ، وهكذا ينصر الله دينه بيد أعدائه ، كما رأينا.

ولكن هل استفرغت الجاهلية أسلحتها ؟؟ كلا كلا ، لا زال في الجعبة الكثير ، هات أيتها الجاهلية ما عندك ، السلاح الآن هو علماء السوء ، وعاظ السلاطين في عالمنا الإسلامي ، خونة الأمة ، شياطين الطواغيت الذين يبيعون دينهم وآخرتهم بدنيا غيرهم ، هؤلاء الأغبياء من الخائبين الخاسرين ، الذين يزينون الفتاوى حسب الطلب ولمن يدفع ، وتسأل يا ابن أخي : هل كان في جزيرة العرب من علماء سوء

(1) ١١ ، المدثر.

أو غيرهم ؟ نعم إنهم اليهود الين لعبوا دورا كبيرا في حرب النبي الخاتم (ﷺ) وكان سلاحهم علم الكتاب ، أي التوراة ، ونعطي مثالا واحدا هنا.

جاء في تفسير ابن كثير :

عن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة ، فقالوا لهم : (أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ؟) فقالوا : (ما أنتم ، وما محمد ؟) فقالوا : (نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء [1]، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور [2] قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟) فقالوا : (أنتم خير وأهدى سبيلا) فأنزل الله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۞ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً) [3].

وبعد فشل هذه الأسلحة جميعا ، وتعرض النبي (ﷺ) وصحبه الكرام إلى جميع صنوف العذاب والابتلاءات والاختبارات من العنف والشدة والمقاطعة والتشهير وافتراءات يهود والمساومة والمناورة اجتمع القوم للتشاور ، فاستقر رأيهم على قتل محمد ، وقد قدم هذا الاقتراح أبو جهل بن هشام ، قال : (أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب

(1) الناقة الضخمة السمينة.
(2) أبتر لا عقب له من أخ أو ولد ، فإذا مات انقطع ذكره.
(3) ٥١ ، ٥٢ النساء.

قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل [1] ، فعقلناه لهم) ويصور القرآن موقف القوم الجديد فيقول : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [2] .

وينجو النبي الأكرم (ﷺ) من مؤامرة التصفية الجسدية والاغتيال ، ويتمكن من الهجرة إلى يثرب ، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع الجاهلية ، تلك المرحلة التي يتمكن فيها المسلمون من إقامة القاعدة الأساسية للدولة الجديدة ، تنطلق منها إلى الجزيرة العربية ثم إلى العالم كافة.

٤ـ التمكين والفتح : لا تصل القلة المؤمنة لهذه المرحلة إلا إذا مرت بالمراحل السابقة التي ذكرناها ، تصارع فيها الجاهلية ومختلف ألاعيبها ودسائسها وأسلحتها وجبروتها وطغيانها.

وقبل التمكين والفتح يأتي شيئان مهمان ، هما البيعة والهجرة ، فقد بايع أهل يثرب النبي مرتين ، يقول ابن هشام :

وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب.

عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض الحرب ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان

---

(1) الدية.
(2) ٣٠ ، الأنفال.

نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف.

فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله (ﷻ) إن شاء عذب وإن شاء غفر ... انتهى.

هذا عن بيعة العقبة الأولى ، أما عن الثانية فيروى ابن هشام أيضا :

قال كعب بن مالك : اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ، إحدى نساء بني سلمة.

قال كعب : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (ﷺ) حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر بن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم ، فقال : يا معشر الأوس والخزرج : (إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده) فقلنا له : (قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت).

فتكلم رسول الله (ﷺ) فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : (نعم ، والذي بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر) ..

وروى عن عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله (ﷺ) قال سعد بن عبادة : (يا معشر الأوس والخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟) قالوا (نعم) قال : (إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله ـ إن فعلتم ـ خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو ـ والله خير الدنيا والأخرة) قالوا : (فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ؟) قال : (الجنة) قالوا : (ابسط يدك) فبسط يده ، فبايعوه.

ثم قال رسول الله (ﷺ) : (ارجعوا إلى رحالكم) فقال له سعد بن عبادة : (والذي بعثك بالحق إن شئت لنملين على أهل مني غدا بأسيافنا ؟) فقال رسول الله (ﷺ) : (لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم) ... انتهى.

وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية التي كانت مقدمة لهجرة النبي وصحابته إلى يثرب التي أصبحت مدينة الرسول (ﷺ) والمرتكز الأول لدولة العدل الإلهي.

وفي المدينة أمر المسلمون بالحرب والقتال ، قال تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ...) [1] ، قال ابن عباس : (نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة) وقال العلماء : (هذه أول آية نزلت في الجهاد).

وتستمر مسيرة الصراع مع الجاهلية ، ولا تتوقف ، ولكن هذه المرحلة تتميز بدفاع المسلمين عن دينهم بالسنان والسلاح حتى يفتح الله عليهم مكة المكرمة ،

(1) ٣٩ ، الحج.

وغيرها ، ويموت النبي الخاتم ، ويتسلم الراية خلفاؤه الكرام الذين يواصلون فتوحاتهم إلى ما شاء الله.

ولكن الجاهلية لا تهمل الأسلحة الأخرى التي استعملتها قبل ذلك ، بل تشحذها ، وتخطط المؤامرة تلو المؤامرة ، وبخاصة في حياة النبي الأكرم (ﷺ) وتعتمد هذه المؤامرات على المنافقين واليهود.

أما عن المنافقين ، ذلك الطابور الخامس الذي يبغي تحطيم الأمة من داخلها أما عن هؤلاء فحسبنا في هذا المقام دور عبد الله بن أبي بن سلول في حديث الأفك الذي نزل في شأنه جزء كبير من سورة النور ، وننصح القارئ الكريم بالرجوع إلى المقدمة الضافية التي كتبها العلامة المودودي لتفسيره لهذه السورة.

أما عن مؤامرات اليهود ونقضهم للعهود فحدث ولا حرج ، ويمكن أن يراجع في هذا الأمر كتب السيرة المختلفة ، وحسبنا مما فعل يهود أن نذكر هنا موقفهم من غزوة الأحزاب ، حيث نقضوا العهد وأصبح المسلمون في شدة عظيمة ، قال الله تعالى : (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ...) [1].

ولقد اقتصرنا من سيرة النبي الخاتم على أمثلة فقط ، ولو أردنا الزيادة لما اتسع المقام هنا ، ولكتبنا السيرة مرة أخرى بهذه النظرة الجديدة ، وهو ما نأمل أن نقوم به في المستقبل إن شاء الله.

ويعتمد تنفيذ ها المنهج على القرآن والسيف ، أي العلم والجهاد ، أو العالم المجاهد ، الذي أطلقنا عليه العالم الرسالي ، أما مهمة تنفيذ هذا المنهج وتطبيقه فقد

(1) ١٠ ، الأحزاب.

أصبح اليوم على عاتق العلماء ، حتى ينزل عيسى (ﷺ) ليحكم بشريعة محمد (ﷺ).

مواجهة الجاهلية للثورة والثوار :

ويجب أن تكون القيادة على يقين من الصراع الحتمي مع الجاهلية ، ذلك الصراع الذي خاضه النبي الأكرم (ﷺ) وتمكن من النصر والتمكين والفتح ، على المنهج السابق الذي ذكرناه ، ومن ثم فلا نصر للمسلمين على أعدائهم إلا بالسير على درب نبيهم ، وترسم خطاه ، وهذا ما حدث مع الرساليين الثلاثة الذين نشير إليهم كنماذج طبقت منهج النبي الخاتم ، وهم ابن فودي والمهدي والخميني.

ونرى هنا أن هؤلاء الثلاثة مروا بنفس المراحل التي مرت بها رسالة محمد ودعوته إلى أن مكنهم الله وفتح عليهم ، كما أن الجاهلية استخدمت معهم نفس الأساليب التي استخدمت مع الرسول الكريم (ﷺ) وهو ما يتضح فيما يلي :

أولا : إن الثلاثة من العلماء المجاهدين ، وهو ما يتضح لكل ذي بصيرة عند مطالعة سيرهم.

ثانيا : إن الجاهلية قد هيمنت وسيطرت في بلادهم وعلى أيامهم ، ولقد صارعوها حتى صرعوها مستخدمين منهج النبي الأكرم (ﷺ) كما أن الجاهلية كانت تستخدم معهم نفس الأساليب كما نرى.

ثالثا : إن الله مكن لهم وفتح عليهم في بلادهم.

أما الأسلحة التي استخدمت لحرب هؤلاء الرجال الثلاثة وغيرهم ، والتي استخدمت من قبل مع الرسول - كما أشرنا - فهي : العنف - الحصار الاقتصادي - التشهير والحصار الإعلامي - علماء السوء - محاولة الاغتيال ، ولنشر بإيجاز إلى

كل واحد على حده تاركين للقارئ الكريم مطالعة سيرهم بالتفصيل فيما يتوافر له من المراجع :

١- العنف :

لقد استخدم العنف والإرهاب ضد ابن فودي وأنصاره ، من السجن والقتل ونهب الأموال والتعذيب النفسي والجسدي ، كطبيعة الطغاة دائما في كل [1] عصر ، أما عن الخميني وما تعرض له هو ورجاله على يد الشاه والسافاك فحدث ولا حرج ، فالسجون والتعذيب الوحشي كانا مألوفين في إيران إلف الليل والنهار ، ولقد سجن الخميني نفسه اثنى عشر عاما حتى أصيب بالسل ، أما سجون السافاك فيكفي أن نعرف أن بعض المجاهدات المؤمنات كن يجلدن على مواطن العفة ، أما الرجال يا ابن العم فقد رأوا صنوفا من العذاب وحشية ، منها وضعهم على ألواح الصاج التي احمرت من اللهيب والنيران ... الخ.

ولكن المهدي لم يظفروا به ، ولو ظفروا به لنال من صنوف الأذى وأنصاره ما تقشعر منه الأبدان ، ولكن الرجل حين عرف عزم الحكومة على القبض عليه أعد لهم من رجاله قوة استطاعت إبادة من جاءوا لأخذه إلى الخرطوم.

٢- المساومة :

ولقد ساوموا المهدي بأن يجعلوه أميرا على كردفان ، ثم يرجع عن دعوته وثورته ، كما حاولوا رشوة ابن فودي بسبائك الذهب ليقف إلى جانب السلطان ، كما فعلوا مع غيره من وعاظ السلاطين ، ولكن هيهات هيهات ، لقد سار الرجلان في طريقهما حتى الفتح المبين.

---

(1) راجع كتابنا عن ابن فودي.

أما الخميني فقد حاولوا مساومته وهو في السجن ، كما حاولوا معه في مهجره في باريس ، وحتى بعد عودته إلى الوطن حاولوا واستماتوا في المحاولة ليلين الإمام ، دون جدوى.

٣- التشهير والحصار الإعلامي :

مما لا شك فيه أن وسائل الإعلام على اختلاف اتجاهاتها وولاءاتها وانتماءاتها مجمعة على مبادئ أساسية في عملها ، من أهم هذه المبادئ الحصار الإعلامي ضد إيران الخميني ، وضد إيران الثورة ، فلا ينقل من أخبار هذا البلد إلا أخبار القتل والإعدامات والتعذيب والانهيار الاقتصادي والمظاهرات المعادية للنظام الإسلامي ، وبالجملة كل ما يسر العدو ويغم الصديق.

إن هذا الأمر ليس جديدا على القادة من الأنبياء والعلماء ، ألم تقل قريش عن محمد إنه ساحر ، ألم تحذر حجيج العرب من دعوة النبي الأكرم ، كما أشرنا من قبل.

أما عن حملات التشهير ضد المهدي فحدث ولا حرج ، فقد قال عنه أحد المؤلفين الأوروبيين مثلا : (إن شخصية المهدي كانت تنطوي حبا جامحا نحو المتعة الحسية ، فما أن فتحت الخرطوم حتى أسلم نفسه إليها تماما ، وقد ازداد بدانة بدرجة هائلة في أواخر العقد الرابع من عمره ، وكان في خلوته - في حريمه - يحاط بالجواري لخدمته ، فكأنه ملكة نحل ضخمة منعمة وسط خلية تنبض بالنشاط ، وكان جسده يدلك كل يوم بزيت الصندل ، وتستبدل بالجبة المرقعة سراويل سابغة ، وأقمصه من منسوجات رقيقة ، كانت تعطر قبل أن يلبسها ، وكانت عيناه تكحلان ليزداد تألقهما ... انتهى.

هذا قل من كُثر ونـذر من بحر مما قـال الأوربيـون والمنـافقون فـي شـأن المجاهد العظيم محمد أحمد المهدي.

٤- علماء السوء :

هؤلاء الـذين يخلفـون اليهـود فـي تـدبيج الفتـاوى ضـد العلمـاء المجاهـدين ، عانى منهم الرجال الثلاثة كثيرا ، كما يلي :

استفتى سلطان جوبر من حضر من علمائه في أمر الشيخ عثمـان بن فـودي وجماعته ، فقالوا له : (أنت على الحق والشيخ وجماعته على ضلال) فكانوا كما قال علماء يهود حين سألهم المشركون : (من أهدى سبيلا ، نحن أم محمد) فقالوا (لأنـتم خير منه وأهدى سبيلا ..).

أما المهدي ـ رحمه الله ـ فإنه أرسل إلى الحاكم العام في الخرطوم : (من عبد ربه محمد المهدي إلى الحكمدار بالخرطوم ، وبعد فالأمر المطلوب أن دعائي إلى السنة والهجرة بالدين أمر من سيد ولد آدم (ﷺ) فمن تبع صار من المقربين ، ومن خالف خلده الله في الدارين ، فمن لم يصدق طهره السيف ، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله ، إما بالخسف أو بالغرق ، وفيما ذكرته كفاية) فجمع الحاكم العام العلماء وأطلعهم على كتاب محمد أحمد المهدي ، فالتمس بعضهم له عذرا بأنه قد حصل له جذب ، ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل أن يتسع الخرق.

ومن ثم أرسل الحاكم العام إلى المهدي للمثول بين يديه ، ولكنه رفض ، وبدأت المعارك التي راح ضحيتها عشرات الألوف من البشر ، وكانت البداية فتوى علماء السوء بالقبض على قائد الثورة المهدية.

أما الخميني فله القدح المعلي من فتاوى وعاظ السلاطين ، علماء السوء ، ففي كل يوم تطالعك هذه الفتاوى من كل حدب وصوب ، وفي كل مناسبة ، وبدون مناسبة ، وإن المسلم الحر ليبكي ألما وحزنا على هؤلاء المضللين الضالين الذين عقدوا مؤتمرا في بغداد في أبريل ١٩٨٥م معلنين وقوفهم إلى جانب أعداء الله ضد إيران الإسلام ، إن هذا المؤتمر نقطة سوداء لن تمحى في حياة من حضره من علماء السوء إلى يوم القيامة ، يوم تسود وجوههم إن شاء الله.

ولا يكتفي هؤلاء المخرفون الضالون بالمؤتمرات والتصريحات والفتاوى والمقالات في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المجمعة على حرب المسلمين ، بل في كل يوم يطالعك كتاب أسود ، يحشى بالمفتريات عن الشيعة وعن الثورة الإسلامية في إيران.

وإني لأحذر المسلمين من هذه الكتابات التي تفرق الصف ، وتزرع البغضاء والشحناء ، وأهيب بكل مسلم مقاطعة علماء السوء وما يسطرون ، وأرجو أن أكون خصيما في الدنيا والآخرة لكل من يروج أقوال هؤلاء الشياطين ، كما أقول للموحدين وغيرهم : إن الاختلاف في الرأي بين الشيعة السنة قضية إسلامية مائة في المائة ، مذكرا المسلمين خاصة بقول نبيهم الأكرم : (اختلاف أئمة أمتي رحمة) فإذا اختلفت مع ابني أو أخي فهل يليق أن يتدخل عدو لي فيما بيننا ، هل يليق هذا يا مسلمون ، هل يليق ؟ ...

اللهم إني أشهدك يا رب الأرباب أنا نبرأ من كل داع للفرقة ، فهو عدو للمسلمين جميعا ، من شيعة وسنة ، كما نعاهدك أن نقف ضد هؤلاء الضالين المضلين من علماء السوء قدر الطاعة والوسع.

٥- محاولة الاغتيال :

لم يستطع الأعداء أن يهزموا المهدي في معارك النضال والسنان ، فدسوا له السم عن طريق إحدى جواريه ، كما حاول السلطان اغتيال الشيخ ابن فودي ولكن المؤامرة فشلت وأنجاه الله.

فأما مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني فلا أشك لحظة أن الأعداء كانوا يمنون أنفسهم ليل نهار بموت هذا الرجل العجوز ، متخيلين أنه بموته تنحل عقدهم ، ولا شك أنهم حاولوا اغتياله ، وعلى أية حال فإنهم لو وجدوا فرصة فلن يضيعوها.

وإذا كان الأعداء لم يظفروا بالقائد العظيم حتى جاء أجله ـ عام ١٩٨٩م ـ فإن إيران الإسلام قدمت على طريق الشهادة مئات القادة والعلماء ، مطهري وبهشتي ورجائي وباهونار ، في حادثة واحدة قدمت إيران ثلاثة وسبعين شهيدا ، حين نسف المنافقون مبنى الحزب الجمهوري الإسلامي ، ثلاثة وسبعون نعشا خرجت في يوم واحد ، في موكب واحد ، ثم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ومن معهم ، بل إن قوافل الشهداء ما تزال تترى لتسقي شجرة السلام العظيمة ، التي لا ترويها إلا دماء الشهداء الأبرار.

٦- الحصار الاقتصادي :

حاول الشاه السابق أن يحرم علماء الدين من استقلالهم الاقتصادي عن نظام حكمه ، فقد كان على كل مسلم أن يعطي زكاة ماله والصدقات للعلماء ، ووقف الشاة بكل قوته ضد هذا الأمر ، ولكن الناس كانوا يحتالون على إعطاء المال للعالم بكل وسيلة حتى أنهم كانوا يلقون المال في أفنية بيوت العلماء ، مما مكن الثورة من

الاستمرار حتى أسقطت النظام الشاهنشاهي ، وألقت به في مزابل التاريخ.

وعند قيام الجمهورية الإسلامية واتضاح هويتها الإسلامية الرسالية أجمع العالم ، وبخاصة الدول الكبرى المستكبرة على حصارها اقتصاديا ، يمنون أنفسهم بركوع القادة الجدد ، واستجداء العون الاقتصادي من الشرق أو الغرب.

ولكن الطاقات الإسلامية تفجرت ، وانطلقت تعمل بعد إزالة الطاغوت ونظامه البوليسي الوحشي ، ما مكن إيران من بناء اقتصاد قوي ثابت الأركان ، كما أنها استطاعت أن تبيع نفطها ، وبخاصة للدول الصغيرة النامية ، وأن تعامل الدول الكبرى المستكبرة معاملة المثل بالمثل ، فإذا رغبت هذه الدولة أو تلك في عدم شراء النفط الإيراني أو تقليل الكمية ، فإن الرد يكون بالمثل ، مما جعل الكل يفكر مليا قبل أن يقدم على أية خطوة في غير صالح إيران.

وإن أكبر دليل على قوة اقتصاد هذا البلد أنه منذ الحرب المريرة سنة ١٩٨٠م حتى الآن ، وبرغم محاولات الحصار الاقتصادي فإنه لا ديون عليه البتة مع أية دولة في العالم ، في الوقت الذي تغرق فيه نظم الشرق والغرب وحكوماته في حمأة الديون التي تقوض اقتصادها ، وتنخر في استقلالها.

إذن فالحصار الاقتصادي أو الضغط الاقتصادي يمكن أن تستخدمه الجاهلية ضد المسلمين ، بل قل لا تنسى أن تشهره بوجه الموحدين سواء أكانوا قادة أم أشخاصا عاديين ، أما إذا قامت للإسلام دولة فإن الجاهلية تشحذ هذا السلاح لتجعل منه سيفا مصلتا على رقاب هذه الدولة إلا أن تخضع وتركع وتخنع.

وصفوة القول أن الجاهلية ترفع ضد المسلمين ، أفرادا وقادة ودولا تلك

الأسلحة الخمسة السابقة ، تماما كما فعلت الجاهلية الأولى مع النبي الخاتم (ﷺ) ، وكذا سوف يفعل الغرب وأذنابه مع الثورات العربية ، بدءا من تونس ومصر ، وحتى تأتي البقية.

أما القادة الرساليون فإنهم يرفعون نفس الأسلحة التي حارب بها النبي الأكرم الجاهلية ، ومنها البيعة والهجرة ، كما فعل القادة الثلاثة كما سنرى ، وإن كان من الواجب أن ننوه إلى شيء مهم ، وهو الاستقلال الاقتصادي ـ ما أمكن ـ عن النظام الجاهلي ، كما فعل الرسول إذا كان يأكل من عمل يده ، سواء في الرعي أو التجارة.

أما الشيخ ابن فودي فكان يفتل الحبال بالتعاون مع زوجاته وأولاده ، بل ظل يمارس هذه الحرفة حتى صار أميرا للمؤمنين في الغرب الأفريقي ، كما كان المهدي أيضا لا يأكل إلا من عمل يده بقطع الأخشاب من الغابة وبيعها أو الخروج إلى النيل لصيد الأسماك ، ولنتحدث الآن عن البيعة والهجرة :

أولا : البيعة :

بايع ابن فودي أنصاره على الكتاب والسنة ، وبايع الأنصار على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وبويع المهدي أيضا ، كما سيأتي تفصيله ، فقد أقبل عليه الناس قائلين : (نبايعك على المهدية ، وإن لم تكن مهديا نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها).

ثانيا : الهجرة :

هاجر ابن فودي من قريته دغل في مملكة [1] غوبر إلى قرية غد على حدود

---

(1) في غرب إفريقية.

الصحراء ، في مملكة كبى المجاورة ، كما هاجر [1] المهدي من جزيرة آبا إلى جبل قدير ، كما أخرج الإمام الخميني من إيران إلى العراق ثم الكويت ، وأخيرا فرنسا حيث بقي إلى أن مكنه الله من الشاه ، وعاد إلى وطنه مرفوع الرأس والهامة.

والهجرة ليست انتقالا من مكان إلى آخر طلبا للراحة أو الأمان أو الرفاه ، وإنما هي سنة النبي الكريم (ﷺ) الذي خرج من مكة إلى يثرب مهاجرا في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته ، يقول المهدي :

لا يخفى ما ورد في فضل الهجرة ، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة ، فإن نصر دين الله في القلة مع أسبقية الصحبة فضله عظيم ، ولا سيما وقد قال الله تعالى : (لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ [2] هُمُ الصَّادِقُونَ) ومفهوم أنه من لم يكن كذلك فليس من أهل الصدق ، وقد قال الله تعالى في فضل الهجرة : (وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ [3] لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) وقال (ﷺ) : (من فر بدينه من أرض إلى أرض ، ولو شبرا من الأرض استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم خليل الله ونبيه محمد) إلى غير ذلك... انتهى.

ومن الجدير ذكره أن الدولة الإسلامية إذا قامت فإن الصراع مع الجاهلية لا ينتهي ، بل يستعر ، ويصبح على هذه الدولة الناشئة أن تواجه مؤامرات لا تنتهي ، مؤامرات المنافقين في الداخل ، والكفار ـ ومن يواليهم ـ في الخارج ، إضافة إلى

(1) هاجر السنوسي أيضا من الجزيرة البيضاء إلى الجغبوب.
(2) ٨ ، الحشر.
(3) ٤١ ، النحل.

إعلان الحرب ، بكل أشكالها وصنوفها ، الإعلامية والاقتصادية والعسكرية ، ومن ثم يصبح الجهاد هو السلاح الماضي ضد هذه الحروب جميعا.

إنه ليس الاتفاق المحض أن نجد دولة ابن فودي قد قامت بواسطة الحرب العسكرية ، واستمرت في تلك الحرب حتى سقطت على يد الإنجليز سنة ١٩٠٦م ، ودولة المهدي هي الأخرى بقيت تحارب حتى سقطت على يد الإنجليز أيضا سنة ١٨٩٩م ، فما إن تقوم للإسلام دولة حتى تسرع دول الكفر ومن يواليها إلى إعلان الحرب عليها وإسقاطها مهما كلفهم من تضحيات وأرواح ودماء فإن هذه الدول لا تطيق أن ترى دولة إسلامية حرة على وجه الأرض ، وهي لا تتوانى عن سفك دماء العالمين في سبيل إسقاط دولة الإسلام.

وإنه ليشار إلى الإنجليز الذين كان لهم القدح المعلى - وما يزال - في حرب دول الإسلام والكيد لها ، فهم الذين أسقطوا دول ابن فودي والمهدي والملا في الصومال ... الخ فإن سقط للإسلام دولة أو قامت ضده مؤامرة فما على المسلمين إلا أن يفتشوا عن الإنجليز الذين قضوا مئات [1] السنين في حرب الموحدين المؤمنين.

والشيء بالشيء يذكر ، فإن هذه الحرب التي استعرت سنوات في الخليج - أقصد حرب الخليج الأولى بين إيران وبين العراق - هي صورة من تلك الحروب الطاحنة التي خاضها ابن فودي والمهدي ، ومن العجيب يا سادة أن مصر كانت قاعدة الانطلاق لحرب المهدي ، وهي البلد الإسلامي الجار تماما ، كما تفعل العراق الآن ، التي أراد لها السادة في عواصم الكفر أن تكون رأس الحربة ضد إيران الإسلام ، تماما كما خاض ابن فودي جزءا كبيرا من حروبه ضد المملكة الإسلامية

(1) الملا محمد حسن عبد الله ت ١٩٢٠م.

المجاورة ، مملكة برنو ، بل قاد هذه الحروب ضد خلافة ابن فودي عالم أزهري هو محمد الأمين الكانمي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

على أية حال فإن الحروب التي خاضها ابن فودي والمهدي ليست بدعا في ذلك ، فقد حارب النبي الأكرم حياته حتى مات ، وتسلم الراية من بعده خلفاؤه ، فإن الجاهلية لا يمكن أن تترك للإسلام دولة تتمكن أركانها ، فإنها لا تطيق ذلك ، ومن ثم فإن على الدولة الإسلامية في أي أوان ومكان أن تدرك أنها دولة محاربة مجاهدة على طول الخط ، وأن الأعداء لن يعطوها فرصة البتة لإلقاء السلاح بحال من الأحوال.

ومن ثم ينبغي ألا يجزع المسلم لتلك الحروب التي يشنها الاستكبار العالمي على إيران أو غيرها ، صحيح أنه يعز على المسلم أن يرى دماء المسلمين تنزف وبيوتهم تهدم وأموالهم تحرقها الحرب ، ولكنها سنة الله ، ودرب الرسول (ﷺ) وآية صدق على أن إيران دولة إسلامية حقا ، ولو لم تكن كذلك لرضيت عنها عواصم الكفر والمنافقين وهللوا لها ، ألم يقل ربنا : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [1] نعم ، الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

والآن نستطيع أن نضع بين يدي القارئ الكريم هذه النقاط :

أولا : إننا بحاجة إلى إعادة قراءة سيرة النبي الأكرم (ﷺ) طبقا للمنهج الذي ذكرناه ، ولا ينبغي النظر إلى هذه السيرة على أنها تاريخ نفاخر به ونعتز به فقط ، بل دروس نستلهم منها وننور بها بصائرنا.

(1) ٢٦١ ، البقرة.

ثانيا : إن الجاهلية هي الجاهلية في القديم والحديث ، ولا سبيل إلى الانتصار عليها إلا بنفس الأسلحة التي انتصر بها الأنبياء ومن تبعهم بإحسان على دربهم.

ثالثا : إننا مع الرأي القائل بأن أولى الأمر الذين أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى : (أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ)[1] هم العلماء ، وإذا كان البعض يرى أنهم الحكام العدول من المسلمين ، فإن حكام المسلمين ليسوا إلا العلماء كما كان النبي الأكرم (ﷺ) وكما كان خلفاؤه والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، كما كان ابن فودي مؤسس الخلافة الإسلامية في غرب إفريقية من العلماء العاملين وكان المهدي أيضا ، وكما هو شأن مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني.

وإذا كان هناك في الدولة الإسلامية من هو أعلم من الحاكم فإن هذا الأخير يخضع للعالم تماما ، ليطبق مبدأ (العلماء حكام على الحكام) فعلماء الدين في هذه الحالة أيضا هم مراجع الأمة وقادتها أيضا.

وقد يتساءل بعض القراء كيف نعرف عالم الدين الرسالي الذي تجب طاعته وبخاصة أن العالم مليء بوعاظ السلاطين ، علماء السوء ؟ والفرق ـ فيما أرى ـ واضح إذ العالم الرسالي ، عالم عامل مجاهد ، لا يخالط السلاطين الظالمين ، ونستطيع أن نقيس على سيرة النبي الكريم (ﷺ) فكل من كان أشبه بالرسول في سيرته وجهاده كان أقرب إلى العلماء الربانيين الرساليين ، كما ذكرنا.

ومن ناحية أخرى فقد أعطينا أمثلة لهؤلاء العلماء في كتاب سابق عن ابن فودي ، وفي هذا الكتاب أيضا ، وهناك العديد العديد من هؤلاء العلماء مثل السنوسي

(1) ٥٩ ، النساء.

مؤسس الحركة الإسلامية التي انطلقت من الجغبوب في ليبيا ، والملا في الصومال الذي خاض ضد الإنجليز وأعوانهم ٢٧٠ معركة ، وعبد القادر الجزائري والإمام الخميني ، وغيرهم كثير كثير كالمصابيح في تاريخنا الطويل.

هؤلاء العلماء الذين ذكرنا وغيرهم ينبغي أن ينظر إلى تاريخهم وسيرهم على أنها تجارب نافعة للمسلمين في الحاضر والمستقبل على السواء ، كما أن هؤلاء العلماء هم ورثة الأنبياء ، أقرب النماذج لسيرة الرسل الكرام.

رابعا : إن المسلمين بحاجة إلى دراسة جميع الحركات الإسلامية وبخاصة في إفريقية فهي تجارب مفيدة تضيء طريق الحاضر والمستقبل ، بل لا نعدو الحقيقة إذا طالبنا بدراسة جميع الحركات الأخرى في العالم كالصهيونية والنازية والبلشفية والفاشية ... الخ ، صحيح أن هؤلاء القوم أعداء لنا ، ولكن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ، وهذا الأمل الكبير ، أي دراسة الحركات الإسلامية وغير الإسلامية منوط بمفكري المسلمين وفلاسفتهم وعلمائهم ، إذ فيه خدمة كبيرة وفائدة عظيمة ، ويمكن أن ينشأ في هذا السبيل مركز إسلامي للدراسات الحركية ، يأخذ على عاتقه دراسة جميع الحركات الإسلامية والكافرة على السواء ، دراستها وأخذ العبر من كل منها.

خامسا : لقد كان للانجليز القدح المعلى في حرب الإسلام وإسقاط دولة مثل إمبراطورية ابن فودي ودولة المهدي ودولة الملا في الصومال ، وغيرها ، صحيح أن بريطانيا الآن لم تعد دولة عظمى ، ولكنها لا تزال أخطر الدول على الإطلاق بسبب خبرتها الطويلة من مئات السنوات في حرب الإسلام وأهله ، ولذا أطلقنا عليها في هذا الكتاب الأفعى.

والآن بعد استعراض منهج البحث يستطيع القارئ أن يطالع سيرة المهدي في هذا الكتاب أو غيره بالمنهج الذي ذكرنا ، باعتباره من ورثة الأنبياء وأمناء الرسل ، مقارنا بين سيرته وسيرة النبي الأكرم (ﷺ) والله نسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، وأن يجعله نافعا للمسلمين.

المؤلف

هيمنة الجاهلية

قبل أن نتحدث عن هيمنة الجاهلية في السودان يحسن أن نشير - في أسطر قليلة - إلى هذا البلد الذي شهد في القرن التاسع عشر ثورة إسلامية من أعظم الثورات ، فنقول :

لقد كان السودان يطلق على المنطقة الواقعة بين الصحراء الكبرى شمالا ، والغابات الاستوائية جنوبا ، وتمتد من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، تلك المنطقة التي أصبحت الآن نيفا وعشرين دولة ودويلة.

أما القسم الغربي من هذه المنطقة والذي يعرف الآن بغرب إفريقية فقد كان يطلق عليه السودان الغربي أو الغروب ، يقابله السودان الشرقي أو الشروق أو السودان المصري ، وهو موضع حديثنا الآن ، هذا القسم الشرقي هو ما يعرف الآن بالسودان ، تلك الكلمة التي لا يعرف لها مدلول في الوقت الحاضر الراهن غير جمهورية السودان ، صاحبة مسيرة التكامل مع مصر سابقا.

وهذا السودان نفسه يقسمه النهر العظيم إلى قسمين ، شرقي وغربي ، ولذا لن نستخدم في هذا الكتاب ، السودان الشرقي أو الغربي حتى لا يختلط هذا بالمفهوم السابق ، أي شرق إفريقية وغربها ، بل نستخدم - إن شاء الله - شرق النيل ، وغرب النيل منعا للبس والاختلاط.

أما ربط السودان بمصر ، أو جنوب الوادي بشماله فلم يكن إلا في عهد محمد علي حيث بدأ هذا الرجل يؤسس إمبراطورية ضخمة على حساب الخلافة العثمانية.

لقد كان السودان قبل محمد علي يسير على النظام القبلي ، وقد تستطيع قبيلة قوية أن تؤسس ملكا لها على حساب غيرها من القبائل مثل :

١- مملكة ألفونج (١٥٠٥ - ١٨٢٠م) وعاصمتها سنار.
٢- مملكة دارفور (١٦٣٧ - ١٨٧٥م) وعاصمتها الفاشر.
٣- مملكة تقلى التي قامت في منطقة جبال النوبة (١٥٧٠م) تقريبا إلى آخر القرن التاسع عشر).

وكما استطاع محمد علي أن يثب على الحكم في مصر ١٨٠٥م فإنه استطاع أيضا أن يثب على السودان ففي ١٨ يوليه ١٨٢٠م غادرت الحملة المصرية القاهرة وعلى رأسها إسماعيل بن محمد علي وأركان حربه ، ومعهم ثلاثة من العلماء ، هم الشيخ محمد الدسوقي ، والشيخ أحمد السلاوي والشيخ أحمد البقلي ، هذا الوفد الإعلامي الذي استطاع أن يقدم خدمات جليلة للحملة المصرية الأولى ، وأن يوفر عليها كثير من المعارك مع الأشقاء السودانيين.

لقد أذاع الوفد الإعلامي أن الغرض من قدوم الحملة هو توحيد كلمة سكان الوادي ودخولهم تحت راية الخلافة الإسلامية ، وتأمين الطرق ، وحماية الضعيف من سطوة القوي ، ويقال إن الجيوش المصرية سارت دون مقاومة تذكر حتى دخلت سنار في ١٢ يونيه ١٨٢١م.

وأصدر السلطان في عاصمة الخلافة أمرا بتعيين إبراهيم بن محمد علي واليا على جدة بالحجاز وما كان يتبعها من بلاد السودان - وكانت سواكن ومصوع من أملاك خليفة المسلمين - وبذلك أتيح للنظام المصري الجديد إحكام السيطرة على السودان والبحر الأحمر ، ثم أسست مدينة الخرطوم - لأنها تشبه خرطوم الفيل - عام ١٨٢٢ وصارت قاعدة للحكم عام ١٨٢٥.

إذن دخلت الجيوش المصرية السودان تحت راية الخلافة الإسلامية ، بل استخدمت ثلاثة من علماء الأزهر الشريف لإعطاء المبررات والأسباب المقبولة - أو التي تبدو مقبولة - لهذا الغزو الجديد ، الذي لم يكن للخلافة ناقة فيه ولا جمل ، بل ظلت هذه الراية تستخدم ليس لخداع الإخوة فقط ، بل كستار لكل ظالم أفاق أو منافق مخادع ، بل لكل كافر صريح الكفر ، وهاك بعض الأمثلة :

١- في الثالث من ديسمبر سنة ١٨٦٢م ، وصل ما يسمى بالرحالتين البريطانيين سبيك وجرانت إلى إحدى المراكز المصرية في أقصى الجنوب السوداني فاستقبلهما الجنود المصريون والنوبيون في زي عسكري تركي وأخذت الموسيقى تعزف والأعلام الحمراء ترفرف.

٢- حينما ضم صمويل بيكر مديرية خط الاستواء إلى مصر - في عهد إسماعيل - كان يرفع العلم العثماني ، حتى أنت يا صمويل ترفع علم الخلافة !! حتى هذا البريطاني يرفع علم الخلافة !!.

وقد أدت هذه السياسة أكلها وثمرها المرة ، فقد رأى المسلمون في السودان أنهم يسامون الخسف والهوان تحت راية الخلافة وباسمها ، ومن ثم كانت كراهيتهم للترك واعتبارهم كفارا.

وليت الأمر وقف عند استخدام راية الخلافة بل كان كل أفاق يدعي أنه تركي يرى في ادعائه رفعا لخسيسته أو ستارا لنفاقه وكفره ، كما سنرى في حالة المنافق الألماني شينتنرز الذي سمى نفسه محمد أمين ، وتزيى بزي الترك ، وترسم رسمهم.

على أية حال فقد كان السودان قبيل الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م يمتد جنوبا إلى خط الاستواء ، ويشمل بحيرة ألبرت ، وبحيرة فيكتوريا والبلاد التي

بينهما ، وبلغت حدود السودان شرقا سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندي ، وضمت إليها في هذه النواحي سواكن ومصوع وزيلع وبربرة وهرر وسواحل الصومال الشمالية ، انظر الخريطة.

هذا القطر السوداني الذي تعرفنا عليه في عجالة سريعة كان يئن تحت وطأة الجاهلية التي هيمنت عليه ، وتمكنت منه ، واستبدت به ، منذ أن ابتلى مع مصر بحكم محمد علي وأبنائه ، هذا الحكم أو هذا النظام من الحكم - إن صح أن تطلق عليه كلمة نظام - كان ببساطة شديدة حكما جاهليا عفنا ومنتنا ، وهو أمر لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه.

ومظاهر الفساد والخراب في السودان لم تكن إلا أعراضا لمرض ، هذا المرض هو الجاهلية ، أي غياب الإسلام ، فما هي هذه الأعراض ؟ إنها :

أولا : حكم عفن :

كان المصريون يحكمون السودان من الخرطوم بطريقة طابعها الفوضى والتخبط ، كان كل موظف من الحاكم العام في العاصمة إلى أدنى موظف غارقا في الفساد حتى أذنيه ، وكانت الحامية التي تتكون من جنود مصريين ونوبيين تعيش كما يعيش جيش الاحتلال ، بل تفوق جيش الاحتلال استهتارا وفوضى ، إذ كانت مهمتها الأساسية جباية الضرائب التي كانت عينية ، إما باستخدام السياط أو بالإغارة المسلحة على الماشية ومخازن الغلال في القرى ، أما الخرطوم العاصمة بعد أربعين عاما من إنشائها فقد وصفها بعض الرحالة بقوله : (لا يكاد المرء يتصور مكانا أتعس ولا أزرى ولا أكثر إساءة للصحة منها) وكان يقيم بالمدينة ثلاثون ألفا متزاحمين في أكواخ من الطوب ، يعدو عليها الفيضان أحيانا ، وكانت

الحيوانات النافقة ملقاة في الشوارع الخالية من المجاري ، ولا مورد للشرب إلا الماء الملوث بالطين ، يرفع من النهر بالسواقي الفارسية التي تعلق فيها الجرار ، وتديرها الثيران ، وعلى كل ساقية ضريبة باهظة.

ولا سبيل إلى إنجاز شيء في المدينة إلا بالرشوة ، كما كان التعذيب والجلد من الأمور العادية في السجون ، أما الحاكم العام فقد كان يجمع بين أبشع النقائض وبين ضراوة الوحش.

وكان السكان ـ عدا الأفارقة ـ يتألفون في الأغلب من شوام ويونانيين وأرمن وعرب ومصريين ، وكل منافق أو كافر صريح ، إضافة إلى حوالي ثلاثين أوروبيا ، ولا بأس من أن يدعي كل هؤلاء وأولاء أنهم ترك أو من أصل تركي.

وبرغم البؤس والشقاء اللذين أحاطا بالأهالي في الخرطوم فقد كان الأجانب وبخاصة الأوربيون يعيشون في بيوت واسعة ، جوها لطيف ، وتحمل لهم الإبل بريدا شهريا يربطهم بالعالم الخارجي ، كما كان كثير من المرفهات تجتلب لهم عبر الصحراء مثل الصابون والعطور والبسكويت ، ولا تنسى هذه الجالية الأجنبية المرفهة البيرة والخمور وإقامة الولائم والحفلات الصاخبة التي تقدم فيها الخمور وتنتهي برقص تقدمه فتيات إفريقيات بائسات.

وإذا كان السودان الشقيق قد ابتلي بهذا الحكم العفن فمن المنطقي أن ننظر إلى الحاشية التي كانت تلتف حول الخديوي في القاهرة ، يقول آلان مورهيد : (إن الشباب المغامر من أرجاء العالم كان يسعى في ذلك العهد ـ يقصد عهد إسماعيل ـ إلى مصر ، أملا في العمل لدى الخديوي ، أو الالتحاق بإحدى البعثات التي كانت توفد إلى داخل القارة ، فكان هناك أمريكيون مثل شابية لون والعقيد براوت والرائد

كامبل ، والمقدم ميسون ، وإنجليز مثل الملازم تشيبندل وويلي أنيسون ابن أخت جوردن ، وكان هناك فرنسيون مثل أوغيست وإرنيست لينان ، وإيطاليون مثل روموليوفيس ، وهؤلاء ألفوا مصر والشرق ، وهناك غيرهم من علماء الطبيعة والنبات وأصول الأجناس وطبقات الأرض ، استهوتهم إفريقية أملا في إنجاز اكتشافات جديدة ، وفضلا عن هؤلاء كان ثمة ترك ومصريون وسودانيون).

حاشية كما نرى من الأوربيين أو الأمريكيين البيض إضافة إلى بعض المنافقين من المصريين والسودانيين ، أو ممن ينتسب إلى الترك ، سواء حقيقة أو ادعاء ، ومثل هذا الجو الخانق النكد لا يمكن أن يكون فيه للشرفاء مكان ، فهل يطيق مخلص أمين أو ناصح شفيق أن يعيش في هذا الوسط الموبوء الفاسد ؟ بل ترى هل تسمح هذه الحاشية العفنة من الجواسيس والأفاكين لغيرها أن يتربع على حجر الخديوي ، الذي كان ألعوبة في أيديهم ؟؟.

وإذا أردنا معرفة مشاعر هؤلاء الناس فإننا نستشهد فقط بواحد من بني جلدتهم ، يقول لوثروب ستودرد : (إن العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه هو مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص ، وإن الروح الصليبية لم تزل كامنة في الصدور ، كمون النار في الرماد ، وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء مشتملة ممزوجة بجهد هذه الشعوب جهدا خفيا ومستترا مستمرا لسحق الإسلام سحقا).

هذا لسان حالهم فينا ، فماذا نحن قائلون يا مسلمون ؟ بل ماذا نحن فاعلون ؟ ولا يكتفي هؤلاء الأوربيون بالعداء المرير والتعصب المقيت ضد الإسلام وأهله ، لكن يضيفون على ما سبق عنصرية واستعلاء على الأفارقة الذين ذاقوا على أيديهم

المر أنواعا وصنوفا وأشكالا ، وإن الأفريقيين وغيرهم من شعوب العالم التي وقعت فريسة للاستعمار لتذكر هؤلاء الصليبيين المتعصبين البيض جيدا ، فقد أدخلوهم في أسوأ دوامات الظلم والذل والهوان.

ولنذكر هنا رأي أحد هؤلاء البيض في أهل إفريقية ، يقول صمويل بيكر : (إن نتائج التحرير أثبتت أن الزنجي لا يقدر نعمة الحرية ، ولا يبدي أتفه التقدير لليد التي تحطم أغلاله) لقد كان بيكر يرى أن الأفارقة لم يكونوا - ولا يملكون أن يكونوا - مساويين للبيض !! وأقصى ما سلم به أن الزنجي قد يكون في طفولته متفوقا في سرعة النمو الذهني على الطفل الأبيض ، ولكن العقل الزنجي لا يمضي في نموه ، فهو يبشر بالازدهار ، ولكنه لا ينضج ، ولا يتورع هذا البيكر أن يهاجم الأفارقة ، لماذا ؟؟ لعادتهم القبلية ووحشيتهم وهمجيتهم !! متناسيا المآسي التي يندى لها الجبين مما ارتكبه البيض المستعمرون ضد أبناء إفريقية.

ولا ينسى هذا العنصري المتعصب أن يهاجم تعدد الزوجات ، وهو كغيره من الكفار والمنافقين لديهم حساسية مفرطة لهذا الأمر ، لماذا ؟ لأن الإسلام أباحه ، يقول بيكر : (وتعدد الزوجات هو التقليد العام في إفريقية ، فتعدد زوجات الرجل يتوقف على ثروته ، تماما كما يتوقف عدد الخيول على ثروة المقتني في إنجلترا ، فليس في هذه البلاد شيء يسمى الحب !! وتقدر النساء كما تقدر الحيوانات الثمينة !!).

ترى هل يأتي الخير من هؤلاء البيض - المتعصبين العنصريين - للمسلمين أو للأفارقة ؟؟ من المؤكد أن واقع ما حدث لا يقبل مجرد التساؤل فضلا عن الإجابة.

وتعالوا أعزائي القراء نتعرف على بعض هؤلاء المحظوظين الذين نالوا ثقة القاهرة وحكامها ، لقد كان الخديوي إسماعيل يبحث فيمن يخلف صموئيل بيكر

محافظ خط الاستواء في جنوب السودان عندما التقى نوبار - رئيس وزراء مصر - في السفارة البريطانية باسطنبول بالعقيد تشارلز جورج غوردون فسأله نوبار عمن يرشحه خلفا لبيكر ؟ فوجد العقيد فرصته ، لكن بعد الحصول على إذن من حكومته ، وقد سويت المسألة نهائيا وسافر غوردون إلى القاهرة ثم إلى الخرطوم التي وصلها لأول مرة سنة ١٨٧٤م.

وفي الخرطوم استقبله إسماعيل أيوب الحاكم العام ورئيسه المباشر استقبالا رسميا ، انتهى بمأدبة ضخمة ، أعقبها حفل راقص اختلط فيه الجنود بشابات عاريات تماما !! كذا ، كن يرقصن في حلقة ويحفظن الإيقاع بأقدامهن ، ويحدثن قرقعة غريبة مع حركاتهن ، وأخيرا استبدت النشوة بالقنصل النمسوي ، فألقى بنفسه بين الراقصين في حمية هائجة ، ولاح أن الحاكم العام يوشك أن يتبعه ، وهو يصيح طربا ، ويبدو أن غوردون فوجئ بها العالم العجيب فغادر الحفل فجأة لينفض الجميع في ارتباك...

أرأيت عزيزي القارئ ؟! غوردون يخلف بيكر ، ثم يستقبل الأول بحفل راقص ينتهي بما سبق ، وحتى إن الرجل لم يحتمل رؤية القنصل والنشوة الهائجة تستبد به ، بل إن الحاكم العام هو الآخر كاد يتبعه ، هؤلاء كانوا حكام السودان ، وهذي منتدياتهم ، وهذه هي حياتهم ، فهل يرجى من هؤلاء خير ؟ اللهم لا.

ولكن غوردون لا يصمد في مديرية خط الاستواء ، ويفشل فيما أوكل إليه فيصاب بالملل والإرهاق فيقرر سنة ١٨٧٦م العودة إلى القاهرة التي كانت تفتح ذراعيها دائما لكل أفاك أثيم ، ومن القاهرة سافر إلى لندن حيث أرسل استقالة قاطعة لسيده الخديوي إسماعيل.

ولكن إسماعيل استطاع إقناعه بالعودة مرة أخرى إلى السودان فاشترط غوردون أن يعين حاكما عاما فأجابه الخديوي واستدعى إسماعيل أيوب وسافر غوردون إلى الخرطوم فوصلها في ٤ مايو ١٨٧٧م وبدأ باتخاذ سلسلة من الإجراءات يحكم بها قبضته على البلاد والعباد ، تلك الإجراءات التي يذكرها بعض الأوربيين على أنها إصلاحات ضرورية لخير السودان وأهله.

على أية حال فإنني أتوقف قليلا أمام أحد هذه الإجراءات ، وهو : (إيقاف امتيازات علماء المسلمين ؟؟) وكأن الفساد الذي استشرى في السودان لم يكن من سبيل للقضاء عليه إلا بالوقوف أمام امتيازات العلماء المسلمين ، إذن هي الحرب على الإسلام ، أو قل ما بقي منه في شكل هذه الامتيازات المشار إليها ، وهو شأن كل المتسلطين على رقاب المسلمين في كل عصر وأوان ، من الكفار وعتاة المنافقين إذ يكون تحطيم علماء الدين أهم معلم من معالم الإصلاح وطريقا للمدنية والرخاء والاستقرار !!.

وكان من الطبيعي أن يقوم غوردون بطرد طائفة كبيرة من الموظفين المصريين والسودانيين ، فاستبدل بهم أوربيين مثل غيسي وجكلر وفريدرك وسلاطين وكوستي والمنافق شنيتنرر وغيرهم واتخذ منهم المديرين والمحافظين والوكلاء والأطباء والمفتشين ... الخ ، وكلهم كما نرى أوربي صليبي ، ولكننا لم نعدم أن نجد منهم من يدعي الإسلام كما فعل الألماني شنيتنرر الي أرسل إلى أخته يقول : (لا تخشى شيئا ، كل ما هنالك أنني اتخذت اسم أمين ، ولكنني لم أصبح تركيا) ولقد قال عنه غيسي الإيطالي : (إنه كان قادرا على أن يغش أدهى رجل في العالم !!).

وزاد غوردون الضرائب زيادة فاحشة حتى أفلس التجار ، وكان من الطبيعي

أن تتفشى الرشوة وفساد الذمة بين الحاكمين وسوء الإدارة بفضل هذه الجوقة الأوروبية التي جلبها الحاكم الجديد.

وفي يوليو ١٨٧٩م قرر غوردون الاستقالة مرة أخرى بعد أن دفع الأمور في السودان نحو الثورة ، ليخلفه محمد رءوف الذي كان أسوأ خلف لأسوأ سلف ، فقد دب الفساد واستشرى على عهده في كل موظف ابتلي به السودان.

أما الحاميات المصرية التي وصل تعدادها قرابة الثلاثين ألفا ، فيكفي أن نعرف أنه في إحدى الحاميات تقاضى الجنود مرتباتهم خمورا وجواري !! فماذا لتنظر من هؤلاء الجنود إلا السكر والعربدة !!!.

ثانيا : استرقاق الأحرار:

أقر الإسلام نظام الرق ، وإن حدد مصدره ، أو قل حصره في مصدر وحيد هو أسرى الحرب والسبايا من النساء والأطفال ، كما حث على عتق الرقاب عن طريق الكفارات والمكاتبة وغيرها من الوسائل الشرعية لتحرير العبيد ، إضافة إلى المعاملة الإنسانية التي لا يحلم بها الأحرار في هذا الزمان ، وكل هذا مفصل في كتب الفقه والسيرة فليرجع إليها القارئ إذا شاء ، وإذا كانت أمريكا أو غيرها من الحكومات قد ألغت الرق لسبب أو لآخر فإن أحدا لا يمكن أن يجرؤ على القول بأن الإسلام يعارض هذا الأمر ، حتى الآن ، في القرن العشرين أو ما يتلوه من قرون ، فإن الشرع يأتي من ربنا وحده ، لا من الشرق ولا من الغرب.

أما استرقاق الأحرار من غير طريق أسرى الحرب فهو كبيرة من الكبائر التي حرمها الإسلام فعن نبي الرحمة (ﷺ) : (قال الله : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة

رجل أعطى [1] بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا استوفى منه ولم يعط أجره) وحسب المرء من العذاب أن يكون رب العزة خصمه ، وهذا فيمن باع رجلا ، فما بالك بمن باعوا الألوف والألوف وأكلوا أثمانهم ؟؟.

هذا هو حكم الإسلام الواضح في مسألة الرق ، وأما بريطانيا التي كانت تزعم أنها تحارب نظام الرق فإن الأمر بالنسبة لها لم يكن عطفا إنسانيا على الرقيق أو مبدءا ساميا تدافع عنه ، بل لعبة سياسية تشبه إلى حد كبير لعبة حقوق الإنسان التي يرفع لواءها عند اللزوم العالم الحر بزعامة عدوة الشعوب ، الشيطان الكبير أمريكا ، إ تتذكر فجأة ويستيقظ ضميرها في منطقة ما من العالم ، في حين يموت تماما في منطقة أخرى ، والسبب معروف ، إنه سلاح يشهر في وجه الحكومات المعادية فقط ، أما الحكومات الصديقة فحقوق الإنسان ترتفع إلى سدرة المنتهى ، إذن هو سلاح سياسي دعائي بالدرجة الأولى والأخيرة.

أما الأسباب التي جعلت الضمير الإنجليزي يستيقظ معارضا لتجارة الرقيق فهي :

١- كانت انجلترا تعتبر إفريقية مجالا خصبا لنشر النصرانية ، وكان تجار الرقيق يفسدون هذه البلاد بغاراتهم المتكررة ، ونشر الرعب والفزع بين السكان ، إذ هي تريد الأمن والاستقرار للبعثات المنصرة حتى تتمكن من أداء عملها ، يقول الرحالة البريطاني صمويل بيكر : (إنه ما لم تتدخل إنجلترا فإن تجار الرقيق سوف يفسدون هذه البطاح نهائيا ، فتضيع على المسيحية إلى الأبد).

٢- الهجوم على أمر أحله الله ، وهو نظام الرق كذريعة لمهاجمة الإسلام وتشويه

(1) أي أعطى العهد واليمين باسمي - انظر الحديث رقم ٢٠٠٩ ، صحيح البخاري.

سمعة المسلمين ، باعتباره سلاحا إعلاميا جيدا ضد الموحدين.

٣- الرقابة على السفن التابعة للدول الأخرى بحجة منع تهريب العبيد.

٤- إرباك اقتصاد الدول المعادية لها وبخاصة الإسلامية منها ، حيث كان العبيد قوة إنتاجية لا يستهان بها.

أما الصورة في إفريقية فقد كانت شديدة البشاعة ، لقد كان بوسع أي مغامر معدم أن يصبح نخاسا إذا كان على استعداد لأن يقترض المال اللازم بفائدة ربوية تصل إلى ثمانين في المائة !! فكان مثل هذا النخاس يبرح الخرطوم في حملة عادية إلى الجنوب في شهر سبتمبر مصطحبا مائتين أو ثلاثمائة رجل مسلح فيحط في مكان مناسب ، ويعقد تحالفا مع زعيم محلي ، فلا يلبث أبناء قبيلة الزعيم أن ينقضوا مع البعثة الوافدة من الخرطوم على إحدى القرى المجاورة تحت جنح الظلام ، فيشعلون النار في الأكواخ قبيل الفجر ، ويطلقون الرصاص خلال النيران ، وكانت النساء الهدف الأول للنخاسين.

ولا يقتصر الأمر على نهب الآدميين بل يمتد إلى الماشية والغلال والعاج حتى الحلي كانت تنزع من رؤوس الموتى البؤساء ، ثم يساق الموكب المنهوب إلى النهر انتظارا لشحنه إلى الخرطوم.

وكان النخاسون يبتاعون العاج مع الماشية المنهوبة ، وقد يقبلون العاج أحيانا فدية لعتق أحد العبيد ، كذلك كان النخاس ينقلب أحيانا على حليفه وينهبه كما فعل بغيره ، وإن كان الأغلب أن هذه الأحلاف كانت تصان عاما بعد عام ، فيجمع

زعيم القبيلة ذخيرة جديدة من الآدميين والعاج بينما يكون النخاس منهمكا في تصريف الشحنة في الخرطوم.

وكان لكل نخاس منطقة خاصة به ، فقد اقتسم هؤلاء المجرمون الأوغاد - باتفاق مشترك - السودان من الخرطوم حتى فوند وكنرو عاصمة مديرية خط الاستواء في أقصى الجنوب.

وكان للنخاس الصغير أن يطمئن إلى الحصول على كمية كبيرة من العاج تساوي في الخرطوم أربعة آلاف جنيه ، بجانب أربعمائة أو خمسمائة عبد قيمة الواحد منهم خمسة جنيهات أو ستة فيخرج بمبلغ إجمالي قد يصل إلى ٦٥٠٠ جنيه حيث يتمكن من تسديد ديونه ذات الربا الفاحش ، ويعد حملة جديدة يوسع تجارته النجسة النكدة ، وحين حرمت تجارة الرقيق رسميا احتال النخاسون على هذا الأمر بعدم بيع الآدميين علنا في الخرطوم ، بل كانت الحصيلة البائسة تصرف في نقاط محددة في الصحراء خارج المدينة ، ثم تساق على طريق القوافل إلى البحر الأحمر لتشحن إلى جزيرة العرب أو فارس أو لترسل على النيل مباشرة إلى القاهرة ، ولعل التاريخ لم يشهد أبشع ولا أقسى من هذه التجارة المهربة الحقيرة.

ويصف أحد الباحثين البريطانيين اصطياد الآدميين من جنوب السودان سنة ١٨٧٠م بقوله : (بات المستجلب من العبيد - من أعلى النيل - حوالي خمسين ألفا سنويا ، وارتفع عدد العاملين في النخاسة إلى خمسة عشر ألف على الأقل ، صار بعضهم مستغلا قوى النفوذ - ككبار الإقطاعيين اللصوص في العصور الوسطى ، فكان منهم مثلا شخص يدعى العقاد استطاع الحصول على عقد من الحكومة يتيح له صيد الآدميين والاتجار فيهم في منطقة مساحتها تسعين ألف ميل مربع !! وكان له

جيش صغير يستعين به في الإمساك بضحاياه وحراستهم !!.

وقد أتت هذه السياسة أكلها المر الثقيل ، فأقفرت مناطق كبيرة في إفريقية ، وهجرها سكانها وانتشر الخراب بفضل الذعر والهلع الذي زرعه النخاسون في كل مكان حلوا فيه ، ناهيك عما يصيب الأحرار حين يسترقون ، أو الزوج حين تنزع منه زوجته أو الأب تنزع بناته ، أو العكس ، يقول الرحالة الانجليزي لفينجتون : (يبدو أن أغرب ما رأيته في إفريقية هو انكسار القلب الي يصيب الأحرار الذين يؤسرون ويسترقون).

ولكنها الجاهلية ، الشجرة الخبيثة التي لا تثمر إلا الخبيث ، وإن استرقاق الأحرار أو صيد الآدميين ليس إلا وجها قبيحا ومظهرا كريها للجاهلية التي خيمت على السودان الشقيق وغيره من بطاح إفريقية الصابرة ، إن الإسلام لو مُكّن هناك لما جرؤ أحد على ارتكاب جريمة واحدة من تلك الجرائم لأن أقل عقوبة لن تكون إلا الإعدام بتهمة الإفساد في الأرض ، وأي فساد أكثر من اصطياد الآدميين ونهبهم ، حتى الموتى كانوا ينهبون حليهم !!!.

ولكننا إذا عرفنا نوعية الحكام والموظفين في القاهرة والخرطوم فإننا لا نتوقع غير ما حدث ، لقد كانوا أراذل الناس من الكفار الصرحاء إلى المنافقين الأوغاد ، ثلة خبيثة من الناس كانت تتحكم في رقاب المصريين والسودانيين على السواء ، ولو كان منهم رجل رشيد شريف ما كان لتلك المآسي والمصائب محل في شمال الوادي أو جنوبه.

ثالثا : الضرائب :

لا يعرف الإسلام شيئا اسمه الضرائب ، إننا نعرف الزكاة ، الكفارات ، الركاز ، الصدقات ، الأنفال ، الفيء .. الخ هذه هي الموارد الشرعية للدولة الإسلامية ، أما النظم الجاهلية العفنة فإنها لا تطيق تلك الكلمات ، تتهافت بكل طاقتها على جباية ما تسميه بالضرائب أو الجمارك أو غيرها من المسميات التي تفرض على الفقراء فقط والمستضعفين ، أما الأغنياء والوجهاء فإن لديهم من الوسائل ، الظاهرة والخفية ما يمكنهم من التهرب والتخفف من الجمارك والضرائب.

تلك الصورة القاتمة الكئيبة في السودان الشقيق ، لقد كانت الضرائب شديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء والوجهاء الذين كانوا بوسعهم رشوة الحكام ، وجباة الضرائب ، وكانت الضرائب تنتزع بمنتهى القسوة والغلظة حتى كان الرجل يبيع متاعه لدفع الضريبة الباهظة ، فإن عجز طرح أرضا على وجهه ثم تربط كل رجل ويد إلى وتد مثبت في الأرض ، ويجلد بالسياط حتى يدمى جسده ، أو يلقى مكتوفا في قيظ الهاجرة ولظى الشمس الحارقة تلهب جسده ، أو يوضع في سرواله هر بعد أن تُغَلّ كلتا يديه ، ويترك الهر داخل السروال.

بل كانت المرأة تحبس إذا تأخر زوجها أو وليها عن دفع الأموال المفروضة وتبقى رهينة السجن إلى أن يدفع الرجل ما عليه ، ولا يكتفى الظالمون بالضرائب الرسمية ، بل فرضوا على الأهالي إتاوات غير رسمية يحصلها الجباة والموظفون لخاصة أنفسهم.

وصفوة القول أن نظام الضرائب ـ في السودان وغيره ـ نظام غير إسلامي ووجه قبيح للجاهلية التي أطبقت على الوادي ، جنوبه وشماله ، فإذا أضفنا الطريقة

التي كانت تحصل بها أدركنا مدى غوغانية نظام الحكم في جنوب الوادي وعَقنه.

وإذا كانت بعض الدول الآن تفرض على الناس وتأخذ منهم ما تستطيع من الأموال ، تحت أسماء ومسميات شتى ، ثم لا تقدم للناس شيئا أي شيء ، فهذه هي الجاهلية بعينها.

رابعا : الرشوة :

وإذا كان السودان كما وصفنا ، من حكم غوغاني وبلطجة النخاسين ونظام ضرائبي ظالم فإن الرشوة سوف تصبح بالتأكيد المدخل لقضاء المصالح وإنجاز الأعمال ، وهذا ما حدث بالفعل ، حيث تفشت الرشوة وأصبحت هي القاعدة التي يقل شذوذها ، والتي تذكر المواطن دائما أنه يعيش في ظل شجرة الجاهلية النكدة.

ولكن كيف حال جماهير الناس في هذا الجو الخانق الموبوء ؟ الإسلام في حنايا صدورها ، لقد حملته ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، فهل تتخلى عنه ؟ إنها لا تطيق ذلك ، ولكنها بانتظار القيادة الرسالية التي توحد صفوها ، وتلم شعثها ، القيادة التي تستطيع أن تنظم من الحبات المتناثرة والطاقات المبعثرة عقودا ضافية تزين بها صدر الأمم والشعوب.

وقبل أن نتحدث عن القائد الرسالي العظيم في السودان نورد هنا ما كره ألان مورهيد عن جماهير المسلمين في جنوب الوادي ، يقول : (ولابد للمسافر أن يدهش اليوم لسلطان الإسلام في شمال السودان ووسطه ، وقد لا يبدو في هذه الصحراء القاحلة الفظيعة ما يدعو لشكر الله !! ومع هذا فإن أفقر السكان البائسين يشاهَد أثناء النهار ساجدا على الرمال في حرارة واستغراق ، لا يكاد يكون معروفا في دلتا

مصر الخضراء ، ولا يوجد قرية واحدة تخلو من مئذنة يعتليها المؤذن ليدعو إلى الصلاة ، فإذا كل حركة وكل صوت يتوقفان على الأرض.

وهنا يبدو أن كل سُنّة عن الرسول ، وكل أمر خاص بالصوم والأعياد والمآدب ينفذ بحذافيره ، ولعل شظف الحياة بالذات في هذه الفيافي المقفرة هو الذي يدفع الناس إلى العبادة ، فلم تكن مكة تبعد كثيرا عن البحر الأحمر ، وكان الرسول محمد (ﷺ) بالذات يعيش في مثل هذه البيئة ، وفيها تلقى الوحي.

ويسيطر على الصحراء المحيطة صمت هائل ، والحرارة قاسية إلى درجة تكبت الشهية ، وتحمل المرء على الوحدة أو الانفصال عما حوله ، في شبه غيبوبة تذوب فيها الرتابة في انعدام طبيعي للزمن ، وتتخذ فيه الرؤى الوهمية شكل الحقائق الواقعة ، وهذه ظروف مثالية للتعصب ، ويستطيع أي زعيم ديني أن يثير أتباعه بقوة جانحة ، فإذا كل الحواجز تكتسح في الحال ، وتصبح الثورة واجبا دينيا وهياجا مزلزلا جانحا ، لأنه خروج مفاجئ شديد على الخمول الذي كان مسيطرا من قبل ، ويتبدد الصمت الطويل ، وتتحول الرؤيا بغتة إلى عمل ، وتستبدل الوحدة بتركيز هائج عنيف.

لهذا كان لابد للثورة في السودان - بحكم طبيعة الأمور - أن تكون عنيفة وجذرية ، بدرجة تفوق ما كانت عليه الثورة المصرية ، فقد كانت حركة دينية أكثر منها حركة سياسية ، وكان انفجارا منبثقا من داخل السودان ذاته ، وإن كانت أحداث مصر قد أثرت فيه ولاشك ... انتهى.

القيادة الرسالية

حين تهيمن الجاهلية وتستبد بالناس فإن الله (ﷻ) يمن على الخلق بالقيادة الرسالية التي تصارع الجاهلية حتى تصرعها ، ليبنى النظام الإسلامي على أنقضاها.

كانت هذه القيادة للأنبياء فأصبحت الآن للعلماء الراسخين في العلم ، علماء الدين الربانيين الذين ورثوا الأنبياء بعد انقطاع النبوة ، هؤلاء الرجال المجاهدون القادرون على إدارة الصراع الحتمي مع الجاهلية ، هذا الصراع الشامل الذي يطلق عليه الإسلام الجهاد.

إذن : القيادة الرسالية = العلم + الجهاد

والقائد الرسالي هنا هو محمد أحمد الملقب بالمهدي الذي كان أحد ورثة الأنبياء الذين صرعوا الجاهلية ، وأقاموا على أنقاضها نظاما إسلاميا ، على منهج النبي الأكرم كما سنرى.

نسب المهدي ومولده :

أبو عبد الرحمن محمد أحمد بن عبد الله ، ينتهي نسبه إلى الإمام عليّ - كرم الله وجهه - وأمه زينب بنت نصر ، وينتهي نسبها هي الأخرى إلى العباس ، عم النبي الأكرم (ﷺ) وقد هاجرت الأسرة الكريمة من الجزيرة العربية - فيمن هاجر من العلويين - فرارا من ظلم الحجاج بن يوسف.

أقامت الأسرة بالفسطاط مدة ، ثم اتجهت إلى الجنوب ، حيث استقرت في دنقلة ، وهناك سطح نجم أحد رجال الأسرة ، وهو الحاج شريف ، الذي طال عمره ،

وحسن عمله ، وترك ستة من الذكور ، أكبرهم محمد جد المهدي ، وقد ولد له ولد سماه عبد الله ، هو والد المهدي ، الذي احترف - هو وبعض أسرته - النجارة وصناعة السفن.

وفي يوم طيب مبارك أهلّ على السودان والعالم الإسلامي ولد الطفل الميمون المبارك محمد أحمد ، الذي لقب فيما بعد بالمهدي ، يوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد ، وفي ذكرى إسراء أكرم الخلق (ﷺ) ومعراجه ، سنة ١٢٦٠هـ ، الموافق الثاني عشر من أغسطس سنة ١٨٤٤م ، وفي مكان طيب مبارك ، هو جزيرة لبب ، إحدى جزر الأشراف ، التي تقع على نحو عشرة أميال إلى الجنوب من دنقلة.

نشأته :

ولكن الأمر لا يستقر لعبد الله في جزيرة لبب ، فينتقل مع أسرته إلى كرري ، التي تقع على ستة أميال من أم درمان ، وينتقل معهم بالطبع الطفل محمد أحمد الذي يموت والده وهو في الخامسة من عمره ، وبعد عام تموت أمه أيضا لينشأ يتيما ، كما نشأ سيد الخلق محمد (ﷺ) فيكفله إخوته الذين ورثوا عن أبيهم صناعة السفن.

وأراد الإخوة أن يشاركهم حرفتهم ، ولكن العناية الإلهية كانت تعده لأمر جليل الخطر ، وهو إرث الأنبياء ، فمال إلى العلم والعمل والورع والتقوى حتى استطاع أن يفجر أعظم ثورة في تاريخ السودان.

ويبدأ محمد أحمد حياته العلمية بالذهاب إلى خلوة (كُتّاب) الشيخ الهاشمي بالقرب من كرري ، حيث بقي سبع سنوات ، حفظ القرآن فيها وجوده ، ثم انتقل إلى خلوة الشيخ الشنقيطي ، ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلحي بالجزيرة ، فبقي فيها

قليلا ثم مضى إلى خلوة الشيخ محمد الخير ، في العيش ، تجاه بربر فطاب له المقام والعكوف على الدرس والتحصيل.

ولكن الشيخ يتقاضى مرتبا من الحكومة مثل غيره من المشايخ ، وهذا المرتب ـ في نظر التلميذ الورع التقي ـ حرام ؛ لأنه جاء من مال جمع بطريقة لا يرضاها الله ، وبوسائل لا تتفق مع العدل ، فهو مال حرام ، وآكله موغل في الحرام ، إذن يجب على محمد أحمد المهدي ألا يمد يده إلى طعام جاء من حرام.

ويترقب التلميذ ما يرسله له إخوته ليدفع عن نفسه الحاجة والجوع ، فإذا ما جاءه المال ألفاه كثيرا عن حاجته ، فيتصدق بما جاءه كله ، ويعتمد على نفسه بالخروج إلى الغابة لقطع الأخشاب وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق ، ويأكل ببعض ثمنه ، ويتصدق بالباقي.

وإذا تعذر عليه لسبب أو لآخر عمد إلى النيل لصيد الأسماك ، وإنه ليتورع أن يضع في سنارته طعما ، حتى لا يخدع السمك الذي يحوم حولها في الماء ، إن السمك مخلوق من مخلوقات الله ، فلا ينبغي لأحد ـ إن كان مسلما حقا ـ أن يخدع هذه المخلوقات ، وإذا كان الله قد قدر له رزقه فليكن بطريق آخر غير التحايل والخداع.

ويعلم الشيخ محمد الخير بعزوفه عن طعامه ، وقطعه الأخشاب في الغابة ، وتورعه عن خداع الأسماك ، فيقبله بين عينيه إجلالا ، ويضمه إليه حبا وإكبارا قائلا له : (يا بني ، لقد ورثت عن آبائي هذه الساقية وتلك الأرض والجارية والعبد ، وإني لأقتات وأهلي منها ، وإنك لتوليني فضلا ـ أي فضل ـ لو أنك شاركتني القليل مما لدي).

فأطرق محمد أحمد متأنيا ، وبعد إلحاح قبل التلميذ ، عرض عليّ شيخه أن يؤدي عوض ذلك عملا يساعد به الجارية والعبد في زراعة الأرض ، هكذا كان أمره ولما يبلغ العشرين.

واتجه محمد أحمد إلى التصوف ، ولكن أي الطرق الصوفية يختار ؟ وإلى أي الشيوخ يذهب ؟ وانتهى الرأي إلى الطريقة السمانية التي كانت دخلت السودان عام ١٨٠٠م على يد الشيخ أحمد الطيب ، تلميذ محمد بن عبد الكريم السماني.

واختار الفتى شيخه ، إنه الشيخ محمد شريف نور الدايم نقيب الأشراف ، وشيخ المشايخ ، فأخذ منه العهد ، وتقبله أحسن قبول ، وبقي عنده منقطعا للعبادة والصلاة ملازما شيخه ، سعيدا بأي عمل يكلفه به ، مبالغا في احترامه وتوقيره ، حتى إنه يجلس أمامه منكسا رأسه فلا يرفعها إلا إذا حدثه ، لذا أحبه شيخه ورقاه في مدارج الطريقة ، بل أجاز له إعطاء العهود.

ولكن الأمر ينتهي بالخلاف والقطيعة بين المريد المخلص وشيخه ، وتذكر عدة روايات لتفسير ما حدث أقربها إلى الصدق أن الشيخ الشريف دعا مشايخ الطريقة ومريديها إلى وليمة ختان أولاده ، ثم أذن لهم بالغناء والرقص لأن الله يغفر في مثل هذه الظروف الخاصة ما يحدث من الخطايا والذنوب ، وهنا يستنكر المريد الورع التقي قائلا : (إن الشريعة تحرم الرقص والغناء والشراب والمجون ، وليس في وسع أحد إجازتها ، ولو كان إماما وشيخ طريقة) وبلغ القول محمد الشريف فاتهم مريده بالخروج على شيخه بعد أن أقسم يمين الولاء ، ثم رفع اسمه من الطريقة السمانية ، ولا يكتفي الشيخ بهذا ، بل يذهب إلى الحاكم العام في الخرطوم يستعديه على المريد الذي فاق شيخه ورعا وتقوى ، ويقال بأن الذي دفع الشيخ إلى

هذا العمل الشائن هو الحسد والغيرة بعد أن رأى نجم محمد أحمد يبزغ والناس تتقاطر [1] عليه.

على أية حال فإن الشيخ الشريف قد بذل محاولات لاسترضاء مريده ، الذي اعتذر شاكرا ، ومضى نحو الشيخ القرشي أحد مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ الشريف الذي أكرم وفادته ، وأعلن أن محمد أحمد هجر شيخه لأنه خالف الشريعة والسنة ، وتعلق المريد بشيخه الجديد ، وتعلق الشيخ بمريده.

وكان الشيخ القرشي قد بلغ التسعين من عمره ، فلم يلبث أن مات - رحمه الله - فبايع أتباعه محمد أحمد ودخلوا جميعا في طاعته ، وكانت هذه البيعة وما أعقبها مقدمة لإعلان الثورة.

وهكذا خرج الرجل من دراسته على شيوخه ومطالعاته بزاد طيب أهله للقيام بالمهمة التي أعد لها ، حفظ القرآن وجوده ، فوضع الأساس المتين المكين لفهمه للعلوم العربية والشريعة ، ثم درس الصرف والنحو والفقه والتفسير ، وأولع بالأدب ، ودرس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق ، وأقبل على التفسير فقرأ فيه الكثير ، ويقال بأنه قرأ على شيوخه تفسير الجلالين أكثر من سبع وأربعين مرة.

لقد عرف الغزالي وابن رشد وابن سينا وغيرهم من فلاسفة المسلمين ، وكان يعاود النظر في كتاب علوم الدين ، والتأمل فيه ، متبحرا في العلوم العقلية ، وكان على إلمام كبير بالسنة والفقه ، أصوليا متكلما محدثا مفسرا أديبا كاتبا.

---

(1) ويقال بأن محمد أحمد المهدي حين زحف على الخرطوم جاء الشيخ الشريف مبايعا فاستقبله مريده السابق أحسن استقبال ، وأمر بذبح النياق احتفاء بمقدمه ، وبقي في صحبته معززا مكرما ، وهكذا يكون الوفاء للشيوخ ، وإقالة عثراتهم.

أخلاقه :

إذا سألت عن نشأته فهي نشأة العلماء كما رأينا ، أما أخلاقه فهي أخلاق الأنبياء ، أليس العلماء ورثة الأنبياء ، وهل تكون إلا وراثة العلم والخلق العظيم والمنهج الإلهي الأصيل ؟؟

١- غزارة العلم :

ذكرنا أن الرجل نشأ في طلب العلم فحصل منه الكثير ، ونضيف هنا أنه كان دائم النظر في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) متبحرا في فهمهما ، يجيد الاستشهاد بها فيما يأخذ وما يدع ، حتى كأنه يتكلم بالقرآن ، وما يعرض له أمر إلا أتى بشاهد من القرآن أو الحديث.

كما كان (ﷺ) قارئا نهما ، استطاع بذكائه وحيويته أن يرصد كل ما يدور حوله في أفق الإسلام شرقا وغربا ، كان أشبه بالرادار ، الذي يرصد كل ما يحوم في الأفق ، ولم يكن يفرق في رصده وتسجيله بين الطيور المبشرة بالسعد ، وبين جوارح الطير التي تحمل الموت بين مخالبها ، وكان كالكمبيوتر يختزن كل ما يصل إليه من علم ، وحين أذن مؤذن الجهاد فتح الإمام القائد خزائنه ، فأخرج منها الجواهر والحلي والغالي والثمين.

٢- الزهد والورع :

لقد عرف أحمد منذ نشأته بالزهد والصلاح والتقوى ، ويكفي أن نستعيد هنا مواقفه مع شيوخه ، إنه ليصدق عليه قول حبيبه المصطفى (ﷺ) : (شاب نشأ في طاعة الله) فهو - إن شاء الله - من السبعة الذين سوف يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، فلقد كان منذ صغره ميالا إلى العلم والدين ، ثم انقطع للعبادة والصلاح

وأظهر التقشف والعبادة ، وكان كلما وقف للصلاة يبكى حتى تبتل الأرض بدموعه ، رحمة الله عليه ، وعلى المسلمين جميعا.

٣- لين الجانب :

كان ـ رحمه الله ـ سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ القلب ، يترك المراء وما لا يعنيه ، لا يذم أحدا ، ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ، ولا يواجه أحدا بما يكره ، يتفقد أصحابه ، ويسأل عنهم ، فمن كان غائبا دعا له ، ومن كان حاضرا زاره ، ومن كان مريضا عاده ، وأفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ، يعطي كل واحدٍ من جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب أن أحدا أكرم عليه منه ، وقد وسع الناس خلقه ، فصاروا عنده في الحق سواء.

لا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، متخلقا بالقرآن المجيد ، وما وضع أحدهم فمه في أذنه إلا استمر مصغيا إليه ، يركب الحمار ، يجلس على الأرض ويأكل مع الخادم ، ويحمل حوائجه بنفسه في السوق.

لا يتميز على رجاله وجنده حتى بعد أن منّ الله عليه بالتمكين ، يلبس جبة مرقعة فوق سروال من الدمور ، يتمنطق بمنطق من ماذا ؟ من حرير ، كلا ، إنه منطيق من خوص !!! وعلى رأسه طاقية مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء ، كعمامة أهل الحجاز ، ويسدل عليها عذبة على كتفه اليسرى.

٤- قوة التأثير:

لاشك أن من كانت له الصفات السابقة والأخلاق أن يكون قوي التأثير ، شديد الجاذبية ، وهناك سبب آخر نضيفه هنا بعد أن ننقل بعض ما وصفه به أعداؤه

من منافقين وكفار ، وأخيرا بعض المسلمين.

يقول ألان مورهيد :

إنه اكتسب ـ من سن مبكرة ـ شهرة بين قومه بالتقوى العظيمة ، وأنه أوتي موهبة فذة في الخطابة ، ويبدو أن تأثيره كان ناشئا عن جاذبية خارقة ، عبر عنها ستراشي بقوله : (كان فيه مهابة عجيبة ، وفي حديثه حرارة دافقة مذهلة).

وذكر المنصر النمساوي جوزيف أورفالدر الذي ظل أسيرا لديه سبع سنوات : (كان مظهره الخارجي عجيب الفتنة ، كان قوي البنية ، شديد السمرة ، تعلو وجهه ابتسامة عذبة ، وكان له أسنان فذة البياض ، وتتوسط ثنيتيه فلجة ـ بشكل رقم ٧ ـ كانت تعتبر في السودان بشيرا بالسعد لصاحبها ، كذلك كان أسلوبه في الحديث قد أصبح عذبا حلوا بدرجة غير عادية).

ويكمل سلاطين ، الذي تظاهر بالإسلام حين أسر : (إن المهدي كان متين البنيان ، عريض المنكبين ، كبير الرأس ، ذا عينين عميقتين متألقتين ، ولحية سوداء ، وثلاث ندب على خده ، تشير إلى قبيلته ، وكان لا يكف عن الابتسام ، كان يبتسم وخنجره مشهر !!).

ويضيف ألان مورهيد : وفي تقدم هذا الرجل الموهوب الملهم عنصر من الخيال ، فمن الصعب تقدير شخصيته حتى الآن ، بعد انقضاء عشرات الأعوام !! فهو يقينا لم يكن مغامرا !!! ولا مفر من الإقرار بأن أتباع كانوا يقدسونه ! إذ لم يرتابوا في سلطته ، بل كانوا على استعداد لأن يموتوا في سبيله ! يستوي في هذا الشعور أقوى الأمراء سلطانا وأقلهم ، لقد كان قادرا على أن يخضع أتباعه لشعور الواجب والنظام ... أ . هـ.

وبرغم أننا لا نوافق على بعض التعبيرات التي نقلناها عن أصحابها فإن ما ذكروه يؤكد أن الرجل كان عظيما حتى في نظر أعدائه وأسْراه ، أما المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي فيقول عنه : (كان ذا شخصية قوية جذابة ، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الأنصار والأعوان ، وأن يبعث فيهم روح الطاعة لأوامره ، والاستخفاف بالموت في سبيل دعوته ، فقد كان لمزاياه الشخصية ، وما عرف عنه من الزهد والصلاح والتقوى ، وذكائه وحزمه ، وإيمانه بما يدعو إليه أكبر الأثر في نجاحه وانتصاره).

وأخيرا نقتبس قول أحد المؤرخين الأفارقة ، يقول : (كان المهدي نبيها مدبرا ، حسن الخلق والسياسة ، ماهرا في التأثير في عواطف الناس ، إذا تكلم ظهر للسامعين أن جوارحه كلها تتكلم ...).

أما السبب المهم الذي جعله قوي التأثير في جماهير المسلمين السودانيين فهو أنه كان يقول كلاما عجبا ، ما سمعوا بمثله من قبل ، إنه يتكلم عن الآلام التي يعانيها الناس ، عن المنكرات التي يقترفونها ، وعن الظلم والظالمين ، لقد أعلن أنه يتقدم لحمل مسئوليته في الدعوة إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ليعيد للشريعة سالف عهدها ، ويقوض دعائم الإثم والفجور والكفر ، ويزيل الخرافات والأوهام.

وهكذا اختلف الرجل عن غيره من العلماء في شيء مهم ، وهو أنه يلمس واقع الناس ومشكلاتهم ، وهو أمر لم يألفوه في غيره ، ولذا كان تأثيره في الجماهير عظيما ، إن التعرض للظالمين والمنافقين ومقارعة الظلم والنفاق هو باب الجهاد الذي يدخل منه الرساليون لإشعال الثورات ضد النظم الفاسدة العفنة المنتنة ، التي تتفنن في صنع المآسي والمصائب لشعوبها المستضعفة.

ولقد يتنازل بعض الحكام المتمسحين بالإسلام قد يتنازل ويترك لشعبة المسكين أن يتحدث عن دين الله ، أو يمارس بعض شعائره التعبدية كالصلاة والصوم ، ولكنه لا يسمح البتة بأن يتطرق الدعاة إلى واقع الجماهير أو على ظلمه وجوره وفسقه ودعارته ، إنها موضوعات محظورة محرمة ، وإلا فالزبانية جاهزون مستعدون متنمرون ، ومن طريف ما قرأت أن إحدى النظم المنافقة تلزم المجرمين المسجونين بقراءة القرآن جبرا وقسرا ، أما الدعاة المخلصين الذين تعتقلهم والذين يتشوقون إلى تنسم كلام ربهم فإنها تمنعهم من قراءة القرآن ومن حمل المصاحف !! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٥- الأناة والدعاء :

رأينا أن الرجل كان قوي التأثير ذا شخصية جذابة ، وهو ما شهد به أعداؤه كما سبق ، وإن كنا يجب أن نضيف هنا أن الرجال الذين أسلموا قيادهم للثائر العظيم كانوا يفعلون ذلك نزولا على حكم الإسلام الذي يخضع فيه الناس لمن يقودهم إلى تطبيق شرع الله ، وإعلاء كلمة الحق ورايته ، فهو إذن لم يكن خضوعا لشخص أو قائد بقدر ما كان خضوعا وانصياعا لحكم رب العالمين ، الذي يقول في كتابه عن رسوله الأمين (ﷺ) : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) [1].

على أية حال فإن الجماهير حين أعطت قيادها للثائر العظيم فإنه لم يوردها موارد الهلاك والدمار ، كما فعل غيره ممن ابتليت بهم الشعوب ، لم يدفعها إلى تحقيق مجد شخص له ولأسرته ، لكنه قادها إلى نصرة الإسلام والتمكين له ، إنه لم يكن يعمل للدنيا العاجلة الفانية ، وإنما كان ينتظر الجزاء من رب الأرباب (ﷻ).

(1) ١٠ ، الفتح.

ولقد كان من أهم الصفات التي مكنته من قيادة الجماهير إلى بر الأمان ما كان يتمتع به من أناة وحلم ودهاء ، لقد كان دائما حاضر البديهة ، متقد الذهن والفكرة ، قوي الشاهد والحجة واسع الشفافة ، كثير الخبرة ، وقد انتهى القائد البريطاني وينجيت الذي قدر له أن يحكم السودان - فيما بعد - فقام بدراسة واسعة للموضوع إلى هذه النتيجة :

لا شك أن هذا الرجل - محمد أحمد - أوتي أقوى رأس
وأصفى بصيرة ذهنية في المليوني كيلو المربع الذي فرض سيادته عليها

ولقد كانت هذه البصيرة الذهنية من أهم أسباب انتصاره على انجلترا صاحبة التاريخ المجيد التليد في حرب المسلمين والكيد لهم ، فإن رأيت مصيبة للمسلمين فما عليك إلا أن تفتش عن هذه الأفعى !!.

على أية حال فقد اكتملت للسودان الآن معادلة الثورة ، لقد علت الجاهلية وهيمنت واستبدت ، فكانت رحمة السماء ، لقد منّ الله على هذا البلد الطيب بعالم رسالي ، فلا مفر من الثورة ، وهذي معادلتها :

هيمنة جاهلية + عالم رسالي = ثورة إسلامية

نعم لقد فجر محمد أحمد ثورة إسلامية في تاريخ السودان ، كيف ؟؟ هذا ما سنعرفه في المبحث التالي :

إرهاصات الثورة :

ومرة أخرى لا تستقر الأسرة ، بل ترحل إلى جزيرة آبا بالنيل الأبيض التي تقع على بعد مائة وخمسين ميلا جنوب الخرطوم ، وذلك لكثرة الأشجار الصالحة - في تلك المنطقة - لصنع السفن ، وفي الجزيرة يبني محمد أحمد ، يبني ماذا ؟ أيبني

قصرا عظيما أو بيتا جميلا ؟؟ كلا ، إنه يبني مسجدا للصلاة وخلوة للتدريس ، ثم يبحث عن شيء آخر ، ترى ما هو ؟ إنه غار [1] يتعبد فيه ، ويخلو فيه إلى نفسه اقتداء بالنبي الأكرم (ﷺ) الذي كان يتعبد في غار حراء .

وفي هذا الغار الذي اختاره محمد أحمد أمضى سنوات من العبادة الخالصة لوجه رب العالمين ، إضافة إلى المطالعة والقراءة والتحصيل ، والتفكير في أمر المسلمين في السودان وغيره والظلم الذي ينزل على رءوسهم من المنافقين والكفار ، حتى أصبح كثير الانشغال بهذا الأمر ، شديد القلق بسبب الهجمة الاستعمارية الصليبية التي توشك أن تطبق على العالم الإسلامي ، وهكذا اجتمع للرجل العلم والعبادة والتفكر.

على أية حال فقد أقبل سكان الجزيرة يأخذون عليه العهود ، ويتتلمذون عليه ، فلم يمضي على مقامه إلا قليلا حتى ذاع صيته في النواحي المجاورة ، وبدأ نجمه في الظهور والارتفاع ، وأخذ الناس يتناقلون أخباره ، وينشرونها في كل مكان ، وأن وليا جديدا من أولياء الله يسكن جزيرة آبا ، والسفن المسافرة في النيل لا يمكن أن تمضى دون التوقف قبالة جزيرة آبا لنيل البركة بالنظر إلى هذا الرجل الصالح.

ولا يكتفي ولي الله بتقاطر الناس إليه في آبا ، بل يرحل بنفسه ومعه رجاله الأتقياء الزهاد يرحل إلى غرب السودان يبث دعوته المباركة ، فيتلقاهم الناس بالترحاب أينما حلوا ، يتلمسوا البركات والدعوات الصالحات ، الطبول تدق والأعلام

(1) ما زال هذا الغار موجودا حتى الآن في جزيرة آبا ، وكان محمد أحمد حين رحل إخوته إلى جزيرة آبا سنة ١٨٧١م قد بلغ السادسة والعشرين.

ترفرف ، وقد كتب عليها الآيات القرآنية ، والناس يهتفون : (الله أكبر !!! الله أكبر!!!).

لقد مر محمد أحمد بجبال النوبا واجتاز فيافي كردفان ، ثم عاد إلى آبا وقد ضم إلى تلاميذه في الطريقة السمانية عشرات الألوف من المريدين الذين عاهدوه على السمع والطاعة وإقامة شرع الله ، والتضحية في سبيل الله ، فما دار برأس الولي الصالح ؟ رأى إدارة حكومة عفنة ، يتولى أمرها حكام من الأوروبيين الصليبيين أو المنافقين الأوغاد ، رأى ضرائب فاشية تأخذ برقاب الفقراء ، رأى بلاده يعشش فيها الخراب والدمار والفقر ، صور قبيحة لجاهلية عفنة منتنة فأذاع في الناس كراهية هذا كله ، وعرفت الجماهير أن الولي الجديد عدو للحكم الظالم الجائر العفن وداعية ضده.

هنا كان لابد من الثورة ، كانت الثورة مطلب الجماهير المكدودة المتعبة المستذلة التي تهيأت الآن ، والتفت حول القيادة الجديدة المؤهلة لإدارة الصراع مع الجاهلية ، كانت الثورة فرضا، لا كالشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج فقط ، بل كانت جهادا ، أو قل كانت الجهاد ، أي أن موقعها من هذا الدين كان ذروة السنام إذن هي فرض ، وهي واجب ، هي ضرورة ، هي ألزم هذه الأشياء جميعا.

كانت الثورة أمرا طبيعيا في هذا العصر الذي نهض فيه العالم الإسلامي مدافعا عن نفسه أمام الغزو الاستعماري الصليبي ، وكان من أهم الرجال الذين قادوا الحركات الجهادية الإمام محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ، والإمام السنوسي في ليبيا ، لقد كان العصر إذن عصر جهاد وثورة ، فثار محمد أحمد وجاهد ، كان عصر دعوة وإصلاح فدعا إلى الإصلاح ، وأصلح قدر ما استطاع ، وكانت دعوته وحركته نبضة من نبضات الإسلام في أيام المحن والكفاح.

ومنذ وطئ الاستعمار أرض الإسلام كان من أهدافه سحق هذه العقيدة ، أو عزلها عن الحياة والحركة أو تشويهها على أيدي المنصرين والمرتزقة ، لأنه يعلم يقينا أن في هذا الدين إباء يرفض الذل وقوة تحتقر الضعف ، وثورة على الاستبداد والظلم ، نعم في الإسلام إباء وقوة وثورة ، فقد حطم التتار ، والصليبيين الأولين على صخرته ، ووقف شامخا برغم الدسائس والمؤامرات والمحن والكوارث ، من الداخل والخارج.

وحين تكأكأت أوروبا الصليبية في العصر الحديث على عالمنا الإسلامي كان الإسلام ، الإسلام وحده يقف أمام الخطر الجديد ، يواجهه كما واجه أخطار الأمس العاتية ، وقفت جماهير المسلمين في كل مكان تنافح عن دينها ، يقودها علماء الدين العلماء الرساليون الربانيون الذين سطروا أروع الملاحم في سبيل الدفاع عن دين الله ، ومن أسف أن الأجيال الحاضرة من المسلمين تنسى أو تتناسى هذا الميراث الجهادي العظيم ، أو قل لعل هذه الأجيال - واحسرتاه - لا تعرف أسماء هؤلاء العلماء المجاهدين أمثال محمد أحمد المهدي ، محمد المهدي السنوسي ، محمد الطاهر ، الملا محمد بن عبد الله ، الحاج عمر الفوتي ... الخ.

إن العالم الإسلامي لم يخضع للاستعمار إلا بعد معارك طاحنة دامية ، سال فيها الدم الزكي غزيرا على أرض الإسلام ، وبخاصة في إفريقيا ، لقد روت أرض أفريقيا عشرات الألوف بل مئات الألوف ، وفيهم عشرات من القادة العظام ، أمثال عبد الله التعايشي ، محمد الطاهر ، الملا .... الخ ، إن هذه الدماء الساخنة لتصرخ مطالبة بالثأر والقصاص ، فما بال المسلمين ينسون ، أو يتناسون !!!.

إذن أصبحت الثورة جاهزة ، جاهلية مستبدة ، جماهير ملتفة حول قيادة مخلصة واعية ، من ورثة الأنبياء ، فكان لابد من :

إعلان الثورة :

اشتدت الضائقة التي ليس لها من دون الله كاشفة ، واستبدت الجاهلية فرأى محمد أحمد أنه أهل لإزالة هذا المنكر ، إن الله اختاره لذلك ، قال : (رأيت الكرسي - كرسي القيادة - شاغرا فتقدمت لأشغله).

وفي غرة شعبان ١٢٩٨هـ - ٢٩ يونية ١٨٨١م أعلن إلى الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق الصوفية ورؤساء العشائر والقبائل أنه سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما ، إنه يقوم لينصر الإسلام ويقضي على الظلم ، وطالب بطرد المصريين من السودان ، إذ هم السبب في كل انحراف عن الدين ، وطردهم هو الوسيلة الوحيدة لدفع الظلم ، وتجنب إراقة الدماء ، وأعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة غير العشور والزكاة وغيرهما مما فرضه الإسلام فقط.

وهرع إليه الناس قائلين : (نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها) وكانت البيعة على وجهين ، الأول باليد ، وهو أن يضع المبايع يده في يد المهدي ، جاعلا إبهامه على إبهامه ، ثم يقرأ المهدي صيغة البيعة فيعيدها المبايع بعده ، وإن كانوا أكثر مع الواحد والعشرين وضع واحد يده في يد المهدي ، وألقى الباقون أيديهم فوق أيديهما ، والوجه الثاني هو البيعة باللسان إذا كانوا أكثر من عشرين فيرقى المنبر أو جمل ، ويقف الناس أمامه ويبايعونه ، أما صيغة البيعة فهي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بايعنا الله ورسوله ،

وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك بالله شيئا ،

ولا نسرق ولا نزني ، ولا نأتي البهتان ، ولا نعصيك في المعروف

بايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضا بما عند الله والدار الآخرة ،

وعلى ألا نفر من الجهاد

وكانت بيعة كبيعة الأنصار لمحمد (ﷺ) قبل ثلاثة عشر قرنا ، وكبيعة عثمان ابن فودي سنة ١٨٠٤م ، أي قبل أقل من ثمانين عاما.

لقد أعلن المهدي الثورة حيث كانت النفوس مهيأة تماما لها ، ذلك أن غوردون وحاشيته قد شوهوا التعاليم الإسلامية في السودان ، فتطلع الناس إلى المهدي تلتمس منه الهداية والإرشاد ، تنتظر على يده الخلاص والنجاة ، وعلت كلمة الكفار والتصقت بغوردون وحاشيته الذين أذاقوا المسلمين ألوان العاب وأصنافه.

يقف المهدي في آبا أمام حشد هائل من الجماهير خطيبا ، يدعو إلى الزهد في الدنيا وطاعة الله ، مبينا جور الحكام وظلمهم فترتفع الأصوات مجهشة بالبكاء ، وترتفع هتافات (الله أكبر) مدوية تشق عنان السماء ، وتجدد الجماهير عهدها وبيعتها على الزهد في الدنيا والجهاد في سبيل الله.

يقول المهدي في إحدى رسائله إلى أنصاره :

من العبد المفتقر إلى الله ، محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة أحبابه وأتباعه على طرق رسول الله (ﷺ).

يا أحبابي ، لقد بايعتموني على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأتوا ببهتان ، ولا تعصوني في معروف ، وأن تزهدوا في الدنيا ، وتبذلوا أنفسكم وأموالكم في سبيل الله.

فإن كنتم موفين لبيعتكم وعهدكم ، فإن بيعتكم هذه هي بيعة الله ورسوله ، إذ إن من بايعني فقد بايع الله ورسوله ، فوحدوا الله في كل شيء ، كما بايعتم على ألا تشركوا بالله شيئا ، فلا تروا العيش والاقتيات والعز والنفع وضدهم عند أحد ، ولا

في الأموال والوظائف ، بل إن الوظائف والأموال إذا حصلت لأحد فربما أسقطته عند الله ، إذا كان ضعيفا في نور الإيمان ، فإن رؤيتهما وزوالهما يقذفان في قلبه أن بهما العظمة والعيش فيشرك بالله ، كما رأى بنو إسرائيل خوار العجل وحراكه فظنوا أنه إله ، وقف في قلوبهم حبه.

وكل من ينظر إلى شيء دون الله ، وأثر في قلبه ـ دون أن ينفع أو يضر ـ فقد أشرك في الحقيقة ، إذ كل شيء ما خلا الله باطل.

ومن كان يوحد الله ، ويرجو لقاء الله ، لا يميل إلى شيء دون الله ، فيطمئن به ، فيصرفه عن الله ، يكون ممن خسر دنياه وآخرته ، لأن منفعة الغير التي يراها من غير حقيقة تصد قلبه عن التمسك بالله ، بذلك الغير ، فيكون مقطوعا عن الله ، وعن منبع القوى والقدرة ، ويكون كالشجرة المقطوع عروقها ، فخيال خضرتها عن قريب يهب ، وتضمحل وتنعدم ، فمن اعتمد على شيء دون الله وفرح فقد جهل ، وكذلك من رجا شيئا من دون الله ، ويعلم ذلك أن من افتخر بشيء دون الله فقد افتخر بالعدم ، وتمسكه بالغير يكون حجابا له عن الله ، وكفرا بنعمته تعالى ، لأن الله هو المحيي والرزاق والمغيث والمعز ، لا غيره ، فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعا أو نفعا أو ضرا فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من أنعم بها.

فإن كنتم مصدقين بوحدانية الله في الاقتيات والحياة ، وكل شيء إلى الممات فاخرجوا عما عن الله يصدكم ، وعن طلب الآخرة يصرفكم ، فإنه لا رب إلا الله ، ولا حياة إلا في الآخرة.

وقد ابتلى الله عباده ، واختبر توحيدهم فثبتوا ولم يتزلزلوا ، فانظروا إلى ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) في توحيده الله تعالى ، وقف في النار فعارضه جبريل في

الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : (أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى) فلما وقع في النار صارت عليه بردا ، وكذلك من يبتليه الله فيصبر على توحيد الله مكتفيا عن الاستعانة بغيره ، يسلم كما سلم إبراهيم (عليه السلام) وقد أمرنا أن نتبع سكة إبراهيم فقال تعالى : (مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ [1] الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ) يعني اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ، وحق على من كان إبراهيميا أن يكون من تدبير نفسه بريا ، ومن منازعة الله خليا.

(1) ٧٨ ، الحج.

تحرك الجاهلية

يرتاع كثير من الناس لدى سماعه كلمة الجاهلية ، ولذا يحسن أن نشير في عجالة إلى مواضعها في كتاب الله ، وبعض أحاديث محمد (ﷺ) لنكون على بينة من معناها.

لقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم أربع مرات ، هي :

١- في آل عمران : (يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ) الآية ١٥٤.

٢- في المائدة : (أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) الآية ٥٠.

٣- في الأحزاب : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى) الأحزاب٣٣.

٤- في الفتح : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ) الفتح٢٦.

أما في أحاديث سيد الخلق (ﷺ) وقعت هذه الكلمة في مواضع منها :

١- حين قال أبو ذر لبلال ، رضي الله عنهما : (يا ابن السوداء) فقال النبي (ﷺ) لأبي ذر : (إنك امرؤ فيك جاهلية).

٢- قول الرسول (ﷺ) : (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية).

٣- قول الرسول (ﷺ) : (من قتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية).

٤- وأخيرا يقول خاتم النبيين : (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

ولقد سئل الإمام جعفر الصادق (ﷺ) عن الجاهلية في الحديث الأخير : (أهي جاهلية كفر أم ضلال) قال : (جاهلية ضلال).

وفي قول المصطفى (ﷺ) : (من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه مات ميتة جاهلية) قيل إن المعنى : كما يموت عليه أهل الجاهلية من الضلالة والفرقة وفقد الإمام المطاع.

ونستطيع القول بعد استعراض معاني الجاهلية كما وردت في الكتاب والسنة أنها قد تكون جاهلية ضلال ، أي معصية ، وقد تكون جاهلية كفر ، أو هي اللفظة المقابلة للإسلام ، أي حكم الله.

إذن فالجاهلية والإسلام ضدان ، وعدوان لا يجتمعان ، سواء أكانت جاهلية ضلال أو جاهلية كفر ، ولقد يهادن الإسلام الجاهلية أو يتقيها أو يشفق عليها ، لا يهاجمها أو لا يحاربها إلا أن الجاهلية لا تفعل شيئا من هذا البتة ، إن الإسلام بالنسبة إليها هو العدو الخطر ، ولا شيء غيره ، إن الإسلام ـ مجرد الاسم ـ يهيجها ويفقدها توازنها وأعصابها ، بحيث لا تطيق السكوت عن شيء يمت إلى الإسلام بصلة ، وينبغي أن يكون هذا شديد الوضوح في أذهان المسلمين.

إن الجاهلية تصبر على المرء ـ أو لعلها تسعد كثيرا ـ إذا كان فاسدا مرتشيا ذا ذمة مطاطة ، يحيطه الفشل فيما توكل إليه من أعمال أو مسئوليات ، أما أن يكون مسلما فهي الطامة الكبرى ، والمصيبة القاصمة ، وهذا مثال من عشرات الأمثلة أو مئاتها في مصر ، إن القادة الأبطال الذين ضيعوا بيت المقدس وسيناء والجولان والضفة الغربية وغزة كل هذه الجرائم كان جزاؤها أحكاما تافهة لذر الرماد في العيون فقط ، أما المفكر العظيم صاحب في ظلال القرآن فليس له عند الجاهلية إلا جزاء واحد هو الإعدام.

إن الثورة - أية ثورة - تقابل في كل مكان بالترحاب والتأييد إذا انتصرت وانتزعت الحكم وتمكنت منه ، ولا يهم بعد ذلك مبادؤها أو أهدافها ، أو ما جرت على شعوبها ويلات وكوارث ، أما أن تكون ثورة إسلامية تعلي راية القرآن فتلك مصيبة ، أو مصائب تنزل على كل حكومة في هذا العالم ، في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب.

أما إذا استطاعت الثورة الإسلامية إقامة حكم الله ، وتحطيم الجاهلية فإن مصائب الدنيا كلها وطوامها [1] الكبر لا تقارن بمصيبة إقامة حكم الله على الأرض ، أو قل على جزء منها ، فإذا استطاعت الثورة الإسلامية أن تقيم خلافة إسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده فإن العالم الجاهلي يقف دون استثناء يحارب تلك الثورة عن قوس واحدة.

وفي السابق كانت انجلترا تتزعم العالم النصراني لمنازلة الإسلام والمسلمين في كل مكان ، ذلك المكان الذي تشغله أمريكا زعيمة العالم الحر التي أخذت على عاتقها خلافة انجلترا في الكيد المتواصل الذي لا يتوانى ضد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

ولذا فإن الجاهلية حين تأكدت أن ثورة المهدي ثورة إسلامية مجاهدة وقفت منها موقفا يليق بها ، الحرب والصراع ، ورغم أن الثورة استطاعت في النهاية إقامة خلافة إسلامية ، إلا أن الصراع استمر بين دولة الخلافة الناشئة وبين الجاهلية بقيادة انجلترا ، وقد جاءت الرصاصة الأولى التي أطلقت على ثورة المهدي المباركة ، جاءت من :

---

(١) جمع طامة كبرى.

الخط الأول :

كان الخط الأول المعادي للثورة الحكام ؟؟ كلا ، كلا ، بل علماء السوء الذين يعيشون دائما في خط معاد لمصالح المسلمين والإسلام ، وهم على الدوام في خندق واحد مع الحكام الظالمين الجائرين ، أليسوا وعاظ السلاطين ؟؟.

ونشير إلى مثلين فقط من هؤلاء العلماء الذين استعدوا الحكام على الثائر العظيم ، بدلا من الوقوف مع الجماهير وثورتها وقيادتها ، ذلك أنهم يرون أن الثورة الإسلامية خطر عليهم وعلى كيانهم ومكانتهم في المجتمع ومكاسبهم الدنيوية.

١- الشيخ الشريف أحد أشياخ الثائر العظيم الذي هجره بسبب إجازته للرقص والغناء في حفل ختان أولاده ، وهذا الرجل الشريف عارض المهدي وطلب إليه الرجوع عن دعوته ، ثم عقد له مجلسا من الأعيان في آبا وأمره بحضورهم أن يرجع عما يدعو إليه ، وكأن الشريف يشهد أعيان آبا على معارضته للثورة ليرتفع سهمه بين الظالمين ، ويفقد ثوابه عند أحكم الحاكمين.

ولم يكتف الشريف بهذا ، بل نصح قائم مقام الكوة بالقبض عليه ، وزجه في السجن لكيلا يستفحل أمره !!

٢- الشيخ محمد صالح ، أحد علماء دنقلة الذين أرسل إليهم المهدي أحد كتبه ، وكان الشيخ الصالح شديد الإخلاص للحكم الجائر في الخرطوم ، فأرسل الكتاب إلى محمد رءوف الحاكم العام للسودان الذي كان قد بلغه الأمر من الشيخ الشريف ، ولكن رءوف توهم أن المسألة لا تعدو أن تكون مشيخة متنافسة ، أو منافسة مشايخ ، إذ كان على علم بالخصومة بين الشريف ومريده السابق المهدي.

ولم يقتصر دور علماء السوء على ما سبق من استنفار الحكومة ضد الثورة ، بل كان لهم موقف آخر شديد الخطورة سنتعرض له فيما بعد.

بيان الثورة :

لم يترك المهدي الحاكم العام يحار أو يضرب أخماسا في أسداس بل أرسل إليه الإنذار التالي :

من عبد ربه محمد المهدي إلى الحاكم العام بالخرطوم ، وبعد ، فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق إلى السنة والهجرة بالدين أمر من سيد الوجود (ﷺ) فمن تبع صار من المقربين ، ومن خالف خذله الله في الدارين ، فمن لم يصدق طهره السيف ومن أتانا بالعداوة أخذه الله ، إما بالخسف أو الغرق ....).

وهنا جمع رءوف العلماء فالتمس الطيبون منهم للثائر عذرا بأنه قد حصل له جذب ، ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل اتساع الخرق !! وهكذا تحالف علماء السوء مع الظالمين ، بل أعطوهم الفتوى التي فتحت الطريق إلى حروب طويلة دامية ، استمرت قرابة عشرين عاما.

دفاع عن النفس :

بعد فتوى وعاظ السلاطين أرسل رءوف أحد معاونيه ، وهو أبو السعود إلى المهدي فوجده جالسا ، وحوله جماعة من رجاله فسلم ثم دار الحوار التالي :

- أبو السعود : إن الحاكم العام بلغه أمر الدعوة التي قمت بها ، وأرسلني لآتي بك إليه ، وهو ولي الأمر الذي تجب طاعته.
- المهدي : أما ما طلبته من الوصول معك إلى الخرطوم فهو مما لا سبيل إليه ، وأنا ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة.

- أبو السعود : ارجع عن هذه الدعوى ، فإنك لا تطيق حرب الحكومة ، ولا نرى معك من سيقاتلها.
- المهدي مبتسما : أنا أقاتلك بهؤلاء ، وأشار إلى أصحابه ، ثم التفت إليهم ، وقال : أأنتم راضون بالموت في سبيل الله.
- الأصحاب كلهم : نعم راضون بالموت في سبيل الله وباذلون أرواحنا في رضا الله ورسوله.
- المهدي ملتفتا إلى أبي السعود : قد سمعت ما أجابوا به ، فارجع إلى ولي أمرك في الخرطوم ، وأخبره بما رأيت ، ورب الكعبة لقد كلفت برسالة سأؤديها ، ولو وقفت أمامي كل عقبات الدنيا.

وعاد أبو السعود إلى سيده بالخرطوم ، ولكن الثائر العظيم أدرك بفطرته وفطنته أن المصريين رجعوا لطلب المدد ليعودوا لحربه والقضاء عليه ، ولذا قال لأصحابه :

- (من كان منكم خائفا على أولاده وأمواله فليخرج منا ، فنحن مسامحون له ، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج ، فإذا سلمنا الله فعودوا [1] إلينا).
- فقالوا جميعا وبلسان واحد :

(يا سيدنا ، نحن بايعناك على الموت ، ورضينا بذلك ، ولا نرغب بأنفسنا عن نفسك ، بل نحن معك حيثما توجهت ، فمر بما شئت فنحن لك سامعون ولأمرك مطيعون ، يا خليفة رسول الله).

وهكذا كان على الثورة أن تدافع عن نفسها وعن قيادتها ، وأن تكون القيادة نفسها على درجة عالية من الحذر والاستعداد لمنازلة الجاهلية ومصارعتها وإنزال

---

(1) يقتدي هنا بالرسول (ﷺ) حين استشار الأنصار قبل حرب المشركين في موقعة بدر.

الهزيمة بها وبرموزها.

وتصدق نبوءة الثائر العظيم فلقد عاد أبو السعود على رأس قوة مسلحة مكونة من مائتي رجل للقبض على المهدي وحمله مكتوفا إلى الخرطوم ، ولكن قيادة الثورة كانت قد أعدت العدة للجولة الأولى مع الحكومة الجائرة.

ونزل الجنود المساكين إلى الجزيرة فأبادهم رجال الثورة ، ولم ينج منهم إلا القليل ، أما القائد الهمام أبو السعود فإنه لما رأى ما حلّ بجنوده - وكان ما يزال في السفينة - فر هاربا إلى الخرطوم.

ويبدو أن أبا السعود كان على علم بقوة المهدي ، ولذا آثر أن يبقى في السفينة تاركا جنوده لمصيرهم المشئوم ، ويبدو أنه كان من العاملين بمبدأ الجبن سيد الأخلاق.

وهكذا كسبت الثورة الجولة الأولى ، وكسبتها لا بالقوة والسلاح والعدة والعتاد فقط ، ولكن بسلاح أهم هو سلاح اليقظة والحذر ، إذ لم يتركوا القوة المصرية تفجؤهم ، بل هم الذين فاجئوهم بالذبح ، وكانت هذه سنة المهدي وأنصاره في كل حروبهم أن يأخذوا عدوهم ويفاجئوه ، ويضربوه في مقتله ومكانه بشكل يذهله ويفقده روعه وشجاعته.

وتعرف هذه المعركة باسم واقعة آبا ، وكانت الجمعة السادس عشر من رمضان سنة ١٢٩٨هـ الموافق ١٢ أغسطس ١٨٨١م ، وقد دوى خبرها في السودان كله ، وانتشر كالبرق ، وأصبح المهدي قوة لا يستهان بها ، وكثر أنصاره ، وبدا الرجل يعد للجولات القادمة ، ويجابه تحرك الجاهلية نحو سحقه والقضاء عليه وقد كتب له النصر والغلبة ، كما سنرى.

الهجرة :

كان يمكن للمسلسل الدامي أن ينتهي عند هذه الحلقة ، ولكن الجاهلية واصلت محاولات القمع والتحطيم والثورة ، كان هذا ما تنبأ به قائد الثورة فأمر بالهجرة إلى جبل قدير إلى الغرب من آبا وشمالي فاشودة ، وجنوب كردفان.

هاجر كما هاجر سيد الخلق محمد بن عبد الله (ﷺ) من مكة إلى يثرب ، وكما هاجر عثمان بن فودي سنة ١٨٠٤م من مملكة غوبر إلى قرية دغل على أطراف الصحراء في كبّ ، وكما هاجر السنوسيون إلى واحة الجغبوب ، فإن الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبة شرعا ، ومن يقعد عنها فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

أما قول نبينا (ﷺ) : (لا هجرة بعد الفتح) أي لا هجرة من مكة بعد فتحها ، وقد صارت دار إسلام ، إذ الهجرة تكون من دار الكفر فقط ، ويقول الرسول (ﷺ) أيضا : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) صدقت يا رسول الله (ﷺ).

أما اختيار جبل قدير بالذات فقد ثبت أنه اختيار موفق إلى أبعد حد ، إنه موقع جبلي حصين يسهل الدفاع عنه والتحصن فيه ، بعيد عن النيل الذي يسهل على الحكومة أن تقمع أية ثورة قريبة منه باستخدام الملاحة النهرية في نقل العتاد والرجال بسهولة ، ولم يشأ المهدي أن يتجه في هجرته نحو الشرق ، لأنه سيكون قريبا من حدود الحبشة وكانت مشهورة بعدائها للمسلمين ، كما سيكون محصورا بين النيلين الأزرق والأبيض ، مما يجعل من السهولة بمكان إرسال الحملات للقضاء عليه وعلى الثورة.

إذن لقد جمع الثائر العظيم بين فهم المنهج الإلهي وبين حسن تطبيقه ، فقد

أشهر نفس السلاح الذي أشهره سيد الخلق في وجه الجاهلية ، ألا وهو سلاح الهجرة ، وقد أجاد استخدامه بحسن اختيار المكان الذي قرر الهجرة إليه - وهو جبل قدير - فاستطاع أن يضرب الجاهلية في مقتل ، وأن يتفادى إجهاضها لثورته.

يقول المهدي : (لا يخفى ما ورد في فضل الهجرة ، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة ، ومعلوم أن نصر الله في القلة مع أسبقية الصحبة ، فضله عظيم ، ولا سيما وقد قال الله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ [1] هُمُ الصَّادِقُونَ) ومفهوم أن من لم يكن كذلك فليس من أهل الصدق.

وقد قال الله تعالى في فضل الهجرة : (وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ [2] الآخِرَةِ أَكْبَرُ) وقال (ﷺ) : (من فر بدينه من أرض إلى أرض ، ولو شبرا من الأرض فقد استوجب الجنة) وكان رفيق إبراهيم خليل الله ، ونبيه محمد (ﷺ) إلى غير ذلك.

فإذا بلغكم هذا فأتوا إلى الله ورسوله بأنفسكم وأهليكم ، ولو على الأرجل ، ولو تركتم جميع الأمتعة ، اتكالا على الله ، وامتثالا لأمره ، ولا تخشوا من أحد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ [3]).

فإذا وصلكم جوابي هذا فليحضر الذي أجاب الدعوة ولا يتأخر ، فإن تأخر عنها فحضوره بعد هو والعدم سواء ، ولا تخافوا في انتقالكم إلينا من أي مخلوق ، فإن خوف الخلق من دون الله ضعف في الدين.

---

(١) ٨ ، الحشر.
(٢) ٤١ ، النحل.
(٣) ٤٤ ، المائدة.

وكل من بلغته أجوبتي ومراسلاتي فلا عذر له في التخلف عن الهجرة لإقامة الدين ، بل هو من العاصين لأمر الله ورسوله) أ.هـ.

وقد استجابت الجماهير المسلمة والمؤمنة لأمر قائدها استجابة سريعة وواسعة ، وشرع الناس في نقل النساء والأطفال إلى الغرب ، أي إلى جبل قدير ، وتركوا غالب ما يملكون من الأمتعة والأموال ، وتركوا هذه الأعراض الزائلة وهاجروا رضا ورغبة فيما عند الله.

وهنا نستطيع القول بأن خلافة جديدة إسلامية ولدت في ها المكان من السودان (١٢٩٨هـ - ١٨٨١م) إنها دولة إسلامية جديدة تكاملت عناصرها ، قيادة رسالية تسير على سنة سيد الخلق محمد (ﷺ) وجماهير مبايعة على الجهاد إلى أرض هجرة ، وإن كانت محدودة ، إلا أنها نواة لإمبراطورية إسلامية شاسعة ، كما كانت مدينة الرسول (ﷺ) نواة للدولة الإسلامية الأولى ، وكما كانت القرية التي هاجر إليها عثمان بن فودي ، كانت هذه الأخيرة نواة لخلافة سكتو ، أو ما عرف - أحيانا - بالإمبراطورية الفلانية.

ولكن ما عدة الدولة الإسلامية الناشئة ، تلك العدة التي لا تستغني عنها في كل مكان أوان ؟ إن هذه العدة هي : (الجهاد) وقد استطاع الثائر العظيم أن يعد جيشا يتلهف شوقا إلى الجنة ، أصبحت الشهادة أمل ها الجيش وأغلى أمنياته ، وهو ما تثبته الحوادث كما سيأتي.

يقول المهدي :

فيا أحبابي ويا أصحابي ، إن الله غني عن عباده ، ولو شاء أمرا أبرمه وقضاه من غير واسطة أحد ، وقد أهلك القرون السالفة وأهل الأعصار الماضية

الذين عصوا أنبيائهم بغير جهاد أحد ، ولكن لعنايته (ﷺ) بهذه الأمة ، وليكسبوا المزايا الدائمة اختار أن يقهر أعداءه (ﷺ) على أيديهم، ويصفي قلوبهم تلك ، وتختبر إيمانهم وعدمه هنالك فقال : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [1]).

واعلموا أن الله لا يخلف وعده ، فمن كان مؤمنا مصدقا بقوله تعالى : (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [2]). وقال تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [3]) وذلك أن من استشهد من المؤمنين أراه الله خزي أعدائه في الآخرة ، بعد أن أكرمه الله بما ناله في سبيل الله ، وأراه أن المؤمنين إخوانه في الدنيا بعده منصورون ، وإن حصلت للكفار دولة في بعض الأحيان فهي لاستدراجهم ولكمال الخزي بهم ، فإن الله عالم بهم ، وبيده تقلباتهم وتصرفاتهم وهو خالد لهم كما أوعدهم بذلك في أكثر من آية ، ووعد المؤمنين بالنصر في أكثر من آية ، فمنها قوله تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [4]) فمن ذلك يعلم المؤمن يقينا أنه إذا حصلت للكافرين دولة في بعض الأحيان فإنما هي استدراج ، وذلك لا يدوم ، وإنما العاقبة للمتقين.

واعلموا أيها الأحباب - أن في الجهاد تصفية الإيمان ، والفوز برضا الرحمن واعلموا أنه لابد من اختيار التوحيد والإيمان ، وتجرد الصافين والصادقين بالامتحان ، فيظهر عند ذلك ما كان منطويا في سريرة العبد من الإخلاص لله أو الخسران ، فعند المصائب تتضح الأحوال.

---

(١) ١٤٢ ، آل عمران.
(٢) ٤٧ ، الروم.
(٣) ٥١ ، غافر.
(٤) ١٧١ - ١٧٣ ، سورة الصافات.

فافهموا ـ يا أهل الإيمان ـ واعلموا أن المدافع والرصاص اختبار لأهل الإخلاص وكذلك قعقعة السيوف والسنان ، وجميع ما يقع في الحروب وغيرهما من المصائب والشنآن ، فمن تحقق بالتوحيد علم أن بواطنها وتحركاتها بيد الرحمن ، ومن أبعده الله أضله الشيطان فراغ عن التوحيد الله ، وخاف تصرفات العدو في الميدان ، وغاب قلبه عن التحقق بأن ملكوت كل شيء بيد الله في جميع الأكوان.

وإذا كان الأمر كذلك فيتعين على كل عاقل أن يتوجه لجهاد أعداء الله ، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم ، أو تسلب نفوسهم من أبدانهم ، فجيوش ذوي العناد مدبرة مدمرة ، وإن كانت بعقولهم مقدمة ومدبرة ، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغرة ، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة !! ألا ترى أن الله تعالى جعل كل مسلم يغلب منهم اثنين كما قرر (ﷺ) أن للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقد آتت هذه النصائح أكلها فأصبحت الشهادة أملا يتعطش إليه المسلمون حتى كان الرجال يوصي بعضهم بعضا : (إن أصبت قبل أن أتمكن من الوصول والدخول في وسط العدو فجروا برجلي حتى تلقون بي وسط العدو ، لعلي أتشفى في أعداء الله ، ولو بضربة في آخر رمق مني ، فأستريح من شؤم الدنيا) بل وصل الحد إلى درجة أن رجلا جر صديقه إلى المحكمة لأنه تمنى له طول العمر !! كما كان للنساء المسلمات دور مهم في الجهاد والشهادة في سبيل الله ، وفي سبيل حمايتهم الدولة الإسلامية الجديدة.

معركة راشد :

أبرق رءوف الحاكم العام للسودان إلى الخديو في مصر بإبادة الجنود المصريين على أيدي الثوار في آبا ، وجادل عن الكارثة بأن المصريين أبوا طاعة

قائدهم ، وامتنعوا عن إطلاق النار على الثوار !!.

وقد رد الخديو مستحثا الحاكم العام على قمع الثورة ، وبذل الهمة في سبيل القبض على قائدها ، وكان ذلك أواخر عهد وزارة رياض وابتداء ضعضعة سلطة الحكومة بسبب قيام الثورة العرابية ، وعليه فقد جرد رءوف حملة أخرى لتأديب المهدي ، ولكن الثائر كان أسرع من الحكومة فهاجر إلى جبل قدير ، كما ذكرنا.

ولم يكد المهدي وأنصاره يستقرون في مهجرهم - قبل أن ينتهي العام - حتى ركبت الجاهلية رأس راشد أيمن مدير فاشودة الواقعة إلى الجنوب من جبل قدير ، فأسرع الخطى إلى حتفه مجرجرا معه الجنود المصريين المساكين ، وكعادة القادة الفاشلين عشاق الهزائم ، الذين لا يجلبون لبلادهم سوى الخزي والعار ولعنات الخالق والمخلوقين ، كعادة هؤلاء القادة الميامين الذين بهم ابتليت كنانة الله سار القائد الموهوب راشد أيمن دون أدنى معرفة بمن يحارب ، ودون استطلاع كأنها زفة [1] أو (زيطة) وليست حربا !!.

أما المهدي فكان أسرع حركة ، وأبرع في إدارة المعارك فكمن للجيش القادم وباغته في الطريق ، وانقض عليه هو وأنصاره حتى أباده عن آخره يوم ٩ ديسمبر ١٨٨١م وانجلت المعركة عن مصرع ألف وأربعمائة ، على رأسهم كبيرهم راشد أيمن ، وغنم المهدي جميع أسلحة الحملة وذخيرتها وعتادها ، وكانت تلك فاتحة المعارك الكبيرة التي مكنت للمهدي في السودان ، وثبتت أركان دولته الجديدة.

على أية حال فإن هذه المعركة صورة جيدة للقيادة العسكرية التي تتميز دائما بمفاجأة العدو ومن حيث لا يعلم ، ثم الإبادة الكاملة ، دون أسر أحد من

---

(١) موكب الأفراح.

المحاربين ، وكان هذا مما أوقع الرعب في قلوب أعداء المهدي ، فإن أية حملة كانت ترسل لحربة لا ينجو منها أحد ، وقد كان في هذا منصاعا وخاضعا لقول الرب (ﷺ) : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ [1]) الآيات ، وقد نزلت معاتبة سيد البشر (ﷺ) بسبب قبوله لفداء الأسرى بعد معركة بدر ، كما هو مفصل في كتب السيرة.

وإذا كان الأمر للنبي (ﷺ) بعدم أخذ أسرى قبل أن يثخن في الأرض ، ويتمكن فإن نفس الأمر موجه أيضا إلى خلفائه ، وإلى ورثته ، فالمهدي خليفة رسول الله (ﷺ) ووريثه ، فهو كما رأينا من العلماء الربانيين الرساليين ، ولذا كان من الطبيعي أن يستجيب لأمر القرآن بعدم اتخاذ الأسرى قبل أن يثخن ويتمكن من أعدائه ، وكان من الطبيعي أيضا أن ينتصر بسبب استجابته لأمر الله ، فالمسلمون ينتصرون دائما ويصرعون أعداءهم ليس بالعدة والعتاد فقط ، ولكن بسبب أساسي شديد الأهمية ، هو إتباع المنهج الإلهي ، ولذا فإن نهضة المسلمين أو انحطاطهم رهن بهذا المنهج ودائر معه ، والتاريخ خير شاهد على هذه الحقيقة برغم تضليل الضالين المضلين.

عزل الحاكم العام :

ارتاع محمد رءوف لهذه المذبحة الجديدة فهرع يطلب المدد من مصر ، إلا أنه عزل عن منصبه ، وأرسل العرابيون رجلا من أكفأ رجالهم للتعامل مع المهدي ، وهو عبد القادر حلمي ، ولكن دون أن ترسل معه قوات إضافية ، ثقة منهم في الحاكم الجديد للسودان ، وفي كفاية الحاميات المصرية التي وصل تعدادها إلى اثنين وثلاثين ألفا ، ولذا رأت وزارة البارودي العرابية عدم الحاجة إلى إرسال المدد الذي طلبه الحاكم السابق محمد رءوف مكتفية بعزله ، وإرسال أحد رجالهم الأكفاء.

(١) ٦٧ ، الأنفال.

وحين وصل الحاكم الجديد الخرطوم في ١١ مايو ١٨٨٢م أدرك خطورة الثورة ، فأرسل يطلب المدد من مصر التي سارت فيها الأمور من سيء إلى أسوأ ، وأخيرا جاء الاحتلال الصليبي البريطاني وهزيمة عرابي ، فلم ترسل شيئا إلى الخرطوم ، حتى مرتبات الجنود والضباط ، يقول إبراهيم فوزي في كتابه السودان بين يدي غوردون وكتشنر : (وقد بلغني أن عبد القادر حلمي بعث يسترحم الحكومة المصرية في إرسال ثلاثين ألف جنيه لصرف المرتبات ، وقال : إنه لا يليق بنا أن نسوق الجند وضباطهم إلى مواطن الموت ، وأولادهم ونساؤهم يتضورون جوعا ، فلم يلتفت إلى قوله ، حتى إنه كان يسأل الحكومة المكافآت بالرتب والنياشين لكثير من الضباط فتقابل مطالبه بالرفض والإباء).

وفي هذه الحالة لم يجد بدا من الاعتماد على الإمكانيات المتاحة له في السودان ، فبدأ في تحصين العاصمة ، وحفر خندقا يصل النيل الأزرق بالنيل الأبيض كما أظهر همة عالية في التصدي للقوات الإسلامية ، وكانت خطته تعتمد على مرابطة جيوشه ومدافعه وأسطول البواخر النهرية على طول مجرى النيل الأزرق ، وعدم إعطاء الفرصة للقوات الإسلامية لعبور النيل إلى الشرق ، وتركها مؤقتا في كردفان وعدم مهاجمتها ، فتبقى محصورة في بيداء قاحلة ، ولا تلبث هذه القوات أن تتبدد مع الزمن بسبب نقص المؤنة والميرة.

كما كان يرى أن مهاجمة المهدي في معقله أمر لا تحمد مغبته ، لبعد المسافات التي يضطر الجيش إلى قطعها ، وابتعاده عن النيل ليكون هدفا لقطع خط الرجعة عليه من القوات الإسلامية ، كل هذه الآراء كانت جيدة ومنطقية من الناحية النظرية البحتة ، وأما من الناحية الواقعية فإن القوات الإسلامية المتعطشة إلى الشهادة قد جرفت عبد القادر حلمي وآراءه البراقة ، فعزل الرجل الشجاع عن منصبه في حين

كان يستميت دفاعا عن الحكم العفن في السودان أمام تقدم المهدي وأنصاره.

ويبدو أن الله أراد بهذا الرجل بعض الخير فغادر السودان في أواخر إبريل ١٨٨٣م ، بعد أن قضى في منصبه أقل من سنة ، خذله فيها سادته في القاهرة ـ كما رأينا ـ ورأى من القوات الإسلامية المجاهدة كل الذل والهوان ، ولكن عودته إلى مصر أنقذته من ميتة محققة على يد المهدي ، فقد رأينا أن القائد العظيم لم يتخذ أسرى في أية مرحلة من مراحل الصراع ، بل كان يقضي على الجيش القادم إليه برمته ، وبخاصة القواد الذين لا يدخلون معركة ضده إلا أرسلت أرواحهم إلى الحياة الأخرى.

أما الحاكم التعس الذي قدر له أن يخلف عبد القادر حلمي في السودان فكان علاء الدين الذي حكم شرق السودان تحت إمرة سلفه ، وكان هذا العلاء آخر الحكام الذين عينتهم مصر قبيل الانسحاب من السودان ، واستقرار الأمر لحكومة المهدي الإسلامية.

معركة الشلالي :

بعد رحيل رءوف كان يتولى حكم السودان نيابة عنه جيكلر النمساوي رئيس مصلحة البرق السودانية ، فجرد حملة بقيادة يوسف الشلالي مكونة من نحو أربعة آلاف مقاتل ساروا من الكوة في منتصف مايو قاصدين جبل قدير من طريق فاشودة.

وقد علم المهدي بخبر قدوم الشلالي من طريق الطلائع التي كانت تتجسس لحسابه ، وبرغم القبض على أربعة من هؤلاء الجواسيس وتعذيبهم فإن القيادة الإسلامية استطاعت ـ بطريق أو بآخر ـ رصد الحملة القادمة ، ومعرفة كل شيء عنها ، وهو ما اتضح في نتيجة المعركة.

على أية حال فإن الشلالي بعث برسالة ينكر على المهدي إرسال الجواسيس والطلائع ويعيب عليه سفك الدماء ، ويطلب إليه إرسال ملك من السماء ليشهد على صدق دعوته ، فكتب له المهدي هذا الرد :

(من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن السيد عبد الله ، إلى يوسف الشلالي ومن معه من الجموع.

أما بعد فانه قد وصل إلينا جوابكم ، وما ذكرتم فيه من وقوفكم على مكاتبتنا وإنكاركم صار معلوما لدينا ، وكان قصدنا أن نعرض على إفادتكم صفحا ، أو نطوي إجابتكم كشحا ، لوقوفكم على الإنذار ومجاهرتكم بالإنكار ، ولكن أردنا أن نبين لكم غلطتكم فيما ذكرتموه في جميع المواضع ، ونوضح لكم خطأكم فيما ادعوتموه بالبراهين السواطع ، أما قولكم أنا قتلنا العسكر غدرا في الوقعتين [١] قبل أن يحاربونا فهذا كذب صريح ، لأنهم في الوقعتين ابتدرونا بالمحاربة والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم.

وقولكم إن الحكومة أرسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الأدلة باطل أيضا ضرورة ، لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين لأرسلت الصلحاء والعلماء وأهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ، ولم ترسل العساكر الأغبياء وتعطيهم الأسلحة !!.

وقولكم : أنا قتلنا جلة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلما وعدوانا باطل ، لأنا ما قتلنا إلا أهل الجرادة [٢] ، بعد أن كذبونا وحاربونا !!! فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم.

---

(١) آبا وراشد.
(٢) اسم جبل.

وقولكم : إن الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ، ويتبعون ما جاء به النبي (ﷺ) ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل ، لأن القطب الدرديري [1] قد نص في باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون ، لأخذ أموال المسلمين منهم كرها ، فيجوز قتلهم.

وقولكم : إنكم ضبطتم أربعة أنفار الطليعة وآذيتموهم ، فاعلموا أنه أوذي قبلهم أصحاب الرسول (ﷺ) بالسجن والضرب والقتل وجميع أنواع الأذى ، كبلال وخبيب ، فليس لهم إلا الثواب ، ولابد أن يحاربكم الله على ما صنعتم بهم.

وقولكم : إن الطليعة تنافي المهدية ، لأن المهدي - ضرورة - يعلم الغيب ، جهلا منكم بسيرة الرسول ، فإن النبي (ﷺ) كان يرسل الطلائع ، وقد قال تعالى لنبيه : (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) [2] وقال تعالى : (إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ) [3] هو يعلمه ، لا غيره.

وقولكم ما اتبعنا إلا البقارة والجهلاء والأعراب والمجوس ، فاعلموا أن أتباع الرسل قبلنا ، وأتباع نبينا محمد (ﷺ) هم الضعفاء والجهلاء ، والمجوس الذين يعبدون الحجر والشجر ، وأما الملوك والأغنياء وأهل الترف فلم يتبعوهم إلا بعد أن يخربوا بيوتهم ، ويقتلوا أشرافهم ، ويملكوهم بالقهر ، ونرجو الله أن تكونوا أنتم ومن وراءكم غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب والمجوس.

وقولكم : قم واحضر عندنا وتوجه بنا إلى محل الهدى مكة المشرفة ، فاعلموا أن توجهنا إنما يكون بأمر رسول الله (ﷺ) في الوقت الذي يريده الله ، ولسنا تحت أمركم ، بل أنتم ومن فوقكم تحت أمرنا ، وأنا ولي الأمر الآن.

---

(١) أحد شيوخ الأزهر السابقين.
(٢) ٥٠ ، الأنعام.
(٣) ٢٠ ، يونس.

وقولكم : أرسل لنا ملكا من الملائكة جهل منكم ، كما قال الله تعالى موبخا كفار قريش : (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ[1]) وقد أخبرنا الله تعالى بأنهم لا تنفعهم الآيات ، ولا يدلهم على الإيمان ظهور المعجزات ، قال (ﷺ) : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ [2]) فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد ، وإظهارها إنما يكون بإرادة الله تعالى.

وقد ذكرتم أنكم كاتبتمونا لأن الخديو قال لكم : (لا تحاربوه حتى يتعدى الحدود ، فاعلموا أن ما أخركم عنا إلا الخوف الشديد ، والجزع الذي ليس عليه من مزيد ، لأنا من حين كنا بجزيرة آبا تعدينا حدودكم ، وخالفنا مقصودكم ، فكيف تخاطبونا بمثل هذا القول الذي لا ينشأ إلا من ضعفاء العقول ، فسارعوا إلى محاربتنا لتأخذوا مناصبكم التي غركم بها الشيطان ، ولا تجبنوا وتحرصوا ، إن كنتم - كما زعمتم - رجالا أبطالا ، أهل دراية بالحرب ، فإنه ليس بيننا وبينكم إلا السيف) أ.هـ.

وحين وصل جواب المهدي السابق تحركت الحملة إلى حتفها ، بعد أن عرفت القوات الإسلامية كل شيء عنها وأعدت العدة اللازمة لسحقها فلم تكد تقترب من جبل قدير حتى انقض عليها المهدي بجموعه الحاشدة يوم ١٢ رجب ١٢٩٩هـ - ٢٩ مايو ١٨٨٢م ، وكان يبلغ عددهم خمسة عشر ألفا ، باغتوا الجنود ليلا فذبحوهم وهم نيام ، فأفنوهم عن آخرهم ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وقتل كبيرهم يوسف الشلالي التي سميت المعركة باسمه.

وغنم المهدي أسلحة الحملة وذخائرها فازداد قوة على قوة ، وذاعت

---

(١) ٨ ، الأنعام.
(٢) ٧ ، الأنعام.

عبقريته وانتصاراته في مختلف أرجاء السودان ، وبخاصة في كردفان ، وانهارت هيبة الحكومة ، وازداد الناس اقتناعا بالقيادة الإسلامية التي هزت أركان الظلم والظالمين هزا عنيفا.

وقد كانت هذه المعركة استقبالا جيدا للحاكم العرابي الجديد ، عبد القادر حلمي الذي وصل قبيل كارثة الشلالي بثمانية عشر يوما فقط ، وكان حريا بالرجل أن يتفهم القضية ، ويجنب أبناء الوادي في الشمال والجنوب مزيدا من إراقة الدماء ، أو يأخذ العظات والعبر من إبادة الحملات السابقة ، وهلاك راشد والشلالي ، ولكنه يبدو أنه كان مفرطا في الثقة بنفسه ، فكان عليه أن يجرب ويفشل ، كما رأينا.

ولكن المرء لا يسعه هنا أن يترك الحديث عن معركة الشلالي قبل أن يشيد بعبقرية القيادة الإسلامية التي فاجأت الحملة المعادية وذبحت الجنود وهم نيام برغم الجواب الذي أرسله المهدي منذرا العدو بأنه ليس من رد غير السيف !! كيف استطاعت القيادة أن توفر للمعركة عنصر المفاجأة برغم هذا الإنذار الذي كان من الممكن أن يفسد أهم أسباب الانتصار ، وهو المفاجأة ، إنهما العبقرية الإسلامية ، ونصر الله الذي يؤتيه من يطبق منهجه ، ولقد طبقت القيادة فأرسلت الطلائع والجواسيس اقتداء بالقائد الأعظم محمد بن عبد الله (ﷺ) كما أشار المهدي في جوابه للشلالي ، كما أنها طبقت قوله تعالى : (فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء) فكان الإنذار الواضح الصريح : (ليس بيننا وبينكم إلا السيف).

فتح الأبيض :

بعد معركة الشلالي كان على القوات الإسلامية أن تتحول من الدفاع إلى الهجوم ، بعد أن أبادت الحملات الثلاث السابقة ، وبخاصة الأخيرة منها ، وكانت

الثمرة الدانية مدينة الأبيض عاصمة مديرية كردفان ، بعد أن انهارت السلطة الحكومية في تلك المديرية ، ولم يعد هناك بد من السير إلى عاصمتها.

وقد كانت القيادة الإسلامية في جبل قدير على وعي كامل بقوانين الصراع ضد السلطات الغاشمة والنظم المستكبرة ، وبخاصة ما يتعلق بعواصم تلك النظم ، إذ أنها لا تهاجم إلا في المرحلة النهائية ، فهي الثمرة النهائية لإنهاء النظام ، ولم يكن من الصواب أن تهاجم الأبيض قبل هز السلطة المصرية هزا عنيفا ، ولذا جاء السير إلى هذه المدينة بعد أن تلقت الحكومة ثلاث هزائم مرة في معارك آبا وراشد والشلالي.

زحفت القوات الإسلامية إلى عاصمة كردفان ، وكان عليها اللواء محمد سعيد مديرا وحاكما على غرب السودان ، ومعه من الجند ستة آلاف ، وفي المدينة مائة ألف نسمة ، وبينما كان الجنود البريطانيون يهبطون في قناة السويس يدنسون أرض مصر الإسلامية ، في شهر أغسطس ١٨٨٢م كانت القوات الإسلامية تحاصر الأبيض ، وفي ٨ سبتمبر هاجمت المدينة ، لكنها استعصت على المهدي وأنصاره برغم استبسالهم في المعركة واستشهاد العديد منهم ، ولكن محمد سعيد لم يجرؤ على الخروج من المدينة لتعقب الأنصار فبقي محاصرا داخلها خوفا من أن تفتك به القوات الإسلامية كما حدث مع سابقيه راشد والشلالي.

وبقي الحصار مضروبا على المدينة قرابة ستة أشهر حتى أكلت الحامية كل كلب وفأر ، وبلغ ثمن الجمل الواحد ألفي ريال !! نعم تأكل الجاهلية كل كلب وفأر ولا تنزل على حكم رب العالمين ، وإن الصبر على الذل والهوان وأكل الهوام وعارى الدنيا والآخرة أمور محتملة عند الجاهليين ، ولكن الإسلام - في نظرها - أمر شديد البشاعة والهمجية ، أهون منه وأسهل أكل الكلاب والفئران !! هنيئا لك أيتها

الجاهلية الضالة بأكلك الشهي وصمودك البطولي ضد الإسلام !!.

أما القيادة الإسلامية فإنها لا تتعجل الفتح ، لأنها كانت متأكدة من أن المدينة مهما طال صمودها ، وكثر الكلاب فيها والفئران فلابد أن تنفد هذه الأشياء عاجلا أو آجلا ، ولذا بقي الحصار حتى انتهاء العام ١٨٨٢م.

وهنا أدركت القيادة أن عدم سقوط المدينة مرجعه بقاء طريق الأبيض الخرطوم مفتوحا ، ولذا اتجهت إلى باره ، إحدى المواقع المهمة في كردفان ، تقع إلى الشمال من الأبيض وتتحكم في طريقها إلى عاصمة السودان ، وشددت القوات الإسلامية الحصار على باره وحاميتها حتى سلمت في ٥ يناير ١٨٨٣م.

ثم استأنف حصار الأبيض وسدت عليها جميع الطرق فاشتد الضيق والجوع بمن فيها ، وفتكت بهم الأمراض فعقد محمد سعيد مجلسا عسكريا من ضباط الحامية للتشاور في الموقف فاستقر الرأي على التسليم بعد أن نفدت قواهم.

وفي ١٩ يناير ١٨٨٣م دخلت القوات الإسلامية المدينة ظافرة منتصرة ، وغنمت كل ما كان لدى الحامية من الأسلحة والبنادق والذخائر ، فضمت إلى غنائم المعارك السابقة ، فاجتمع لدى القوات الظافرة ٦٤٠٠ بندقية ، وثلاثة عشر مدفعا ومقادير هائلة من الذخائر والعتاد ، إضافة إلى مائة ألف جنيه ، وكان هذا الفتح هدية للمسلمين في العام الميلادي الجديد.

يقول أورفالدر : (إن المهدي بعد سقوط الأبيض أصبح يلقى ما كان يلقاه النبي نفسه من تقديس ، ولم يعد أحد يشك في نجاح رسالته ، وباتت أحلامه وراؤه وحيا من الله !!! وكان المهدي يبتسم فيشع وجهه بثقة روحية ، ولم يستأ كثيرا حين سمع في صيف ١٨٨٣م أن جيشا مصريا يقوده بريطاني يزحف نحو مصب النيل).

نعم أصبح المهدي بعد فتح الأبيض - بل وقبله أيضا - يلقى ما كان يلقاه النبي (ﷺ) من تكريم وسمع وطاعة ، أليس من ورثته ، أليس من العلماء الربانيين الرساليين ... أليس يقود المسلمين للعمل بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ؟؟ أليس ربي هو القائل : (أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) (1) فهو ولي أمر شرعي تجب طاعته ، كما تجب طاعة الله ورسوله ، إن نبي الرحمة يأمرنا بالسمع والطاعة حين يقول لأبي هريرة (ﷺ) : (عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك).

ويقول أيضا : (من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن يعصني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني) والمهدي كان الأمير الذي تجب طاعته ، وتحرم معصيته ، ويقول النبي الأكرم أيضا (ﷺ) : (إن أمر عليكم عبد مجدع يقودكم فاسمعوا وأطيعوا) وكان المهدي يقود المسلمين بكتاب الله فوجبت له الطاعة على المسلمين ، إنها السمع والطاعة وليس التقديس.

أما قول أورفالدر : (باتت أحلامه وراؤه - أي المهدي - وحيا من الله) فإننا نسوق هذا الحديث النبوي الشريف : (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة ، والرؤيا ثلاث فرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا بما يحدث المرء نفسه) صدق رسول الله (ﷺ).

أما المقطع الأخير من كلام هذا القسيس فإنه يدل على ثقة المهدي بنفسه واطمئنانه إلى تأييد ربه ، وهو حين يبتسم لا يفعل ذلك سذاجة أو تلاهيا عن الأخطار المحدقة به ، فهو لا يستاء كثيرا حين يعلم بقدوم جيش لحربه ، ذلك أنه يرصد

---

(1) ٥٩ ، النساء.

حركة هذا الجيش التعس منذ لحظتها الأولى ، فيعد له العدة اللازمة للفتك به وإفنائه دون أن يفقد هدوءه واتزانه ، فهكذا تكون القيادة الناجحة ، إنها كالجبال الرواسي ، لا تنال منها العواصف والرياح والأعاصير مهما كانت قوتها وعنفوانها ، ولقد أثبتت الأيام أن الرجل من هذا الطراز من القادة العظام.

معركة شيكان :

بعد هزيمة الشلالي وتحرك القوات الإسلامية نحو حصار عاصمة كردفان أرسل الحاكم العام في أكتوبر ١٨٨٢م يطلب النجدة من القاهرة ، لقد طلب عشرة آلاف مقاتل ، رأى أنه بدونهم لا يمكن الدفاع عن الخرطوم ذاتها ، فضلا عن فك الحصار المضروب على الأبيض ، وهدد بأن المديرية - كردفان - سوف تستسلم ما لم تصلها النجدات.

ولقد استغرقت مصر عاما لتتحرك ، إذ كان الأمل يراودها شهرا بعد شهر بأن يتمكن الحاكم القدير في الخرطوم من السيطرة على الموقف بالجنود الذين كانوا تحت إمرته ، ولكن سقوط كردفان - أغنى مديريات - السودان كشف بجلاء عن ضرورة إرسال حملة عسكرية من القاهرة إذا أريد القضاء على الخلافة الإسلامية الناشئة.

ولكن من الذي يوفد الحملة المستعمِر أم المستعمَر ؟ كانت إنجلترا عازفة عن أن يكون له دور فيها ، فقد حدث بعد معركة التل الكبير - في مصر - رد فعل على هذه المعركة ، فإذا رئيس الوزراء عزوف عن أي غزو جديد في إفريقية ، فلو أن كرومر استطاع حكم مصر بدون الجنود البريطانيين لسحبهم منها ، لذا بات على الحكومة المصرية أن تدبر المال والسلاح والعتاد والجنود أيضا ، وقد تم هذا بصعوبة شديدة بالغة ، وفي ظروف اقتصادية وعسكرية واجتماعية سيئة جدا ، بسبب الاحتلال

والأزمة الاقتصادية وهزيمة العرابيين.

ورد الفعل الذي كان في بريطانيا بعد معركة التل الكبير لم يكن مرجعه وخز الضمير أو نوازع الإنسانية تشفق على الشعوب من القهر والإذلال ، وإنما يكون مرجعه أشياء أخر ، مثل توقيت المعركة أو أهميتها أو جدواها أو تكاليفها ، فالمعارضة في بريطانيا مثلا لا يثنيها عن الهجوم على الحكومة انتصار الجيوش في المعارك العسكرية ، بل تبحث عن كل ساقطة وشاردة وواردة في كل حدث ، تناقشه وتقلبه على جميع الأوجه علها تجد ثغرة تطعن منها الحزب الحاكم ، صحيح أنها قد تكون المزايدات الحزبية والخصومات والرغبة في إظهار معايب الحاكمين ومثالبهم ولكنه على أية حال أحسن من تكتيم الأفواه والإشادة بالمهزومين والحاكمين ، ولو أضاعوا بلادهم آلاف المرات ، ولو خربت الديار ، وتحولت إلى كومة تراب.

ولا شك أن العملية العسكرية نفسها ـ ولو كللت بالانتصار ـ قد تكون نفسها عنوان الفشل عند عتاة الساسة المستعمرين ، إذ يعتبر العمل العسكري عندهم آخر الدواء ، أو دواء العاجزين من الساسة عن استخدام أسلوب الثعالب في التعامل مع الشعوب ، أي أسلوب المكر والخداع والمؤامرات والضحك على الساذجين ، نعم ، لو أن كرومر استطاع حكم مصر بدون الجنود البريطانيين لسحبهم منها.

وحين يفضل المستعمرون عدم اللجوء إلى سياسة الأسود ، أي سياسة القوة فإنها لا تفضله بسب حرصها على عدم إراقة الدماء ، أو ظلم الشعوب المستضعفة ، وإنما هي تفضل أسلوب التعالب [1] بسبب التكاليف التي تتطلبها حملات الردع

(١) فنلاحظ أنه بعد انحسار الاستعمار التقليدي وظهور الاستعمال الذي يعتمد على السيطرة على الشعوب بواسطة المؤامرات وفرض التبعية اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، نلاحظ أن التدخل العسكري انحصر في أضيق نطاق ، وإن استخدم بالفعل مع بعض الدول المستضعفة مثل أفغانستان وفيتنام ولبنان وجرينادا والعراق والصومال ، وإن كانت الدول المستكبرة ـ وبخاصة أمريكا وروسيا ـ لا تلجأ إلى التدخل العسكري إلا عند الضرورة ، وعند التأكد من الغلبة والانتصار.

العسكرية ، بسبب ما يموت من جنودها ـ ولو كان قليلا ـ فهذا كله يؤثر في أصوات الناخبين الذين يحرصون على أموالهم وأموال بلدهم ، ويحرصون أكثر على أرواحهم وحياتهم.

لهذا كله كان رئيس الوزراء البريطاني عزوفا عن غزو جديد في إفريقية ، إذ رأى أن على الحاميات المصرية في السودان أن تدافع عن نفسها ، وإذا كانت هناك حاجة إلى نجدات فعلى مصر أن تقوم بإعدادها وإرسالها ، دون أن تسهم إنجلترا بمال أو رجال ، وكان لها ما أرادت.

وقد ضمت الحملة إلى جانب الجوقة المكونة من بضعة عشر صليبيا ، في أركان الحرب والمراسلين الصحفيين ، ضمت أيضا بعض المصريين المغرر بهم ، من الضباط الكبار ، السادة اللواء حسين مظهر ، واللواء إبراهيم حيدر ، وأمراء الألايات سليم عوني والسيد عبد الخالق وحسن فهمي ورجب صديق ، وكان على رأس هؤلاء الضباط العظام علاء الدين الحاكم العام الذي أمرته الحكومة أن يقدم إلى هيكس كل ما يطلب من المعاونة ، وجعله وهو الحاكم العام للسودان ومرفقاته قائدا ثانيا للحملة ، عجبي !!.

أما الجنود ـ يا ليت أمي لم تلدني ـ فقد كانوا من أرض الكنانة ، معظمهم من جيش عرابي الذي سرحه الإنجليز ، فيه أكثر من ألف من الفرسان والباقي من المشاة والأتباع الذين يصحبون الجيش عادة ، فاكتملت الحملة ، ثلاثة [1] عشر ألف مقاتل يسرعون الخطى نحو إنقاذ الحكم الجاهلي العفن في السودان من دفنه في مزابل التاريخ.

---

(١) ويقال إنهم كانوا عشرين ألفا.

وتطلب نقل الإمدادات عبر الصحراء أكثر من خمسة آلاف جمل ، وضمت المهمات مدافع جبلية ومدافع رشاشة ، وعشرات الملايين من الطلقات ، كانت حملة قوية ، وافرة العدد والعدد ، ولكن كل هذا لا يجدي عند الهزيمة ، فالجنود يكثرون عند النصر ، ويقلون في الهزيمة.

على أية حال فإن القوة أرسلت من القاهرة إلى الخرطوم التي وصلها هيكس في ٧ مارس ١٨٨٣م بطريق النيل ، وتحركت من العاصمة السودانية في ٩ سبتمبر برا ونهرا ، حتى بلغت الدويم على بعد مائة ميل من جنوب الخرطوم ، على النيل الأبيض ، ثم سارت من الدويم في ٢٤ سبتمبر قاصدة الأبيض بطريق الصحراء ، وأخذت تهيم في مجاهل كردفان ، وتقطع المراحل الشاسعة في تلك الأصقاع النائية ، وبلغ ما قطعته مائتي ميل.

ويكفي لتقدير ما عاناه جيش هيكس في قطع هذه الأميال أنه تحرك من الدويم في ٢٤ سبتمبر ، وبلغ منهل الرهد في ٢٠ أكتوبر ، وأقام فيها ستة أيام ، ثم استأنف السير فوصل منهل علوبة يوم ٢٩ أكتوبر ، ومنها إلى وادي كشجيل ، ثم إلى غابة شيكان على بعد ثلاثين ميلا جنوب الأبيض ، فكأن الجيش ظل يسير أكثر من شهر قبل أن يشتبك مع قوات المهدي.

وعليه فقد وصل منهوك القوى من المسير في تلك المسالك الوعرة والجهات المقفرة ، وابتعد عن قاعدته الحربية ، وانقطعت صلته بها ، فصار يسير تحت رحمة الأخطار المحدقة به.

أضف إلى ما سبق أنه حالة الجيش المعنوية كانت سيئة ، إذ كان الجند والضباط يعتقدون أن الحكومة أرسلتهم إلى تلك الأصقاع للتخلص منهم ، لأنهم جيش عرابي القديم ، وكلما جد الجيش في زحفه أنهكه الجوع والعطش.

وكانت إدارة المهمات غير صالحة ، والجنود غير راغبين في الحرب ، والماء غير موجود ، كان موكبا عجيبا أعجف ، وبرغم الحر الفظيع كان بعض الجنود البائسين يرتدون دروعا وخوذات أثرية كأنها ترجع إلى الحروب الصليبية ، وكانت الأوامر أن يشكلوا عند الاشتباك مربعا ومدافعهم مصوبة نحو الخارج من كل ركن ، في حين تجمع الإبل والأمتعة في الوسط ، وقد زود كل جندي بجهاز غريب مؤلف من أوتاد حديدية كان عليه أن يثبته أمامه على الرمل ليكون متراسا أو عائقا ضد انقضاض العدو.

ولا نريد أن نسترسل في بيان ثغرات الحملة التي كانت تسرع الخطى نحو الأبيض ، فبرغم هذا كله كان يمكن لهذا الجيش العرمرم أن يحارب ، ويقوم بعمل ما لفك الحصار عن المدينة لكنه اصطدم بقيادة عسكرية عبقرية تمكنت من تحقيق عنصر المفاجأة التامة لعدوها ، لتسلبه عقله فتفقدة القدرة على الحركة ، أية حركة.

لقد كان المهدي يرصد الحملة ويراقب تحركاتها وسكناتها ليس من الدويم ، أو من الخرطوم ، ولكن من القاهرة ، من ساعة التفكير في شأنها ، وقد وصلت القيادة الإسلامية قمة نجاحها حين زرعت جواسيسها ليكونوا أدلاء لجيش هيكس حيث مرمطوه في صحارى كردفان ، أنهكوه في السير في مفازة متفرقة ، إضافة إلى نقل أخبار الحملة وتفاصيل تحركاتها ، أولا بأول إلى المهدي.

وسار الجواسيس الإدلاء بالجيش القادم إلى أنسب المواقع لإبادته ، يبدو أنه المكان الذي حددته القيادة ، وهو غابة شيكان ، التي سميت المعركة باسمها.

يقوم ألان مورهيد : (اغتبط المهدي مقدما ، وهو يرقب من الأبيض تقدم الحملة ، وقبل النهاية المحتومة بوقت طويل كان ثمة رنة قنوط في الرسائل التي

يبعثها هيكس إلى الخرطوم : (فرغ الماء ، والرجال يموتون ، والإبل تنفق بأعداد متزايدة كل يوم ، وقد قطع فرسان المهدي خط الإمدادات بينهم وبين النيل ، ولم يكونوا يملكون تحديد مواقعهم).

وقبل ذلك كتب مراسل التايمز من الخرطوم : (بعد ثلاثة أيام نسير في حملة يرمقها أشد المتعطشين لسفك الدماء بأعظم وجوم) أترى عزيزي القارئ هذا الصحفي الصليبي الذي جاء من أقصى البلاد ليشهد مصارع المسلمين الأبرياء الذين ثاروا ضد الحكم العفن ، هؤلاء المسلمون الذين لم يعتدوا على قومه أو بلاده ، يأتي هو مع جيش عرمرم لإبادتهم ثم يدعي بعد ذلك بأننا أشد المتعطشين لسفك الدماء !! ألم يسأل هذا الرجل نفسه لماذا جاءوا إلى البلاد التي تبعد عن الجزر البريطانية آلاف الكيلو مترات ؟ إنها محاولات الهيمنة والسيطرة على البلاد والعباد والأحقاد المستمرة ضد الإسلام والمسلمين.

وإذا تحرك هذا الجيش لضرب المسلمين والقضاء عليهم أفلا يكون من حقنا أيها الصحفي المحترم أن نتعطش لسفك دمائكم !! وإذا قام جيش من أي مكان في العالم لغزو بريطانيا وقهر شعبها أفلا يكون من حق شعبكم أن يدافع عن نفسه وأن يكون من أشد المتعطشين لسفك الدماء ، دماء الغزاة !! مالكم لا تعدلون ! أن أنك تكيل لشعوب العالم كله بكيل مختلف تماما عن الكيل لشعب بريطانيا !! إنها العنصرية إذن ، والتعالي على خلق الله.

وفي ٤ محرم ١٣٠١ هـ - ٥ نوفمبر ١٨٨٣م سار هيكس بجيشه ، فدخل واديا مفتوحا ، تحيط به من الجانبين غابة كثيفة جافة ، تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوبي الأبيض ،ولو أن الحملة اتجهت من الدويم على النيل إلى بارة مباشرة ثم التقدم إلى الأبيض من الشمال بعد محاولة الاستيلاء على موقع بارة لكان من الممكن

أن تتغير نتيجة المعركة ، أما دخول الأبيض من الجنوب فكان من إرشاد الأدلاء ، عيون المهدي ـ فيما بعد ـ الذين نجحوا في استدراج الجيش إلى الموقع الذي حددته لهم القيادة الإسلامية.

وكان المهدي قد حشد في غابة شيكان معظم جموعه ، فلم يكد جيش هيكس يدخل الوادي حتى أطبقت عليه القوات الإسلامية من كل جانب فاخترقت صفوفه ، وأعملت فيه السيف ، وسدت على الجيش المسالك ، فكانت أشبه بمجزرة منها إلى معركة ، قتل فيها الجيش برمته ، قواته وضباطه والجنود ، ومنهم هيكس وأركان حربه ، وعلاء الدين الحاكم العام ، وجميع الضباط والجنود ، ولم ينج من القتل سوى اثنين من الضباط وثلاثمائة جندي اختبأوا بين الأشجار ، فأخذوا أسرى ، وفني الجيش بأكمله في هذه الواقعة.

وبعد المعركة بثلاث وعشرين سنة تقريبا ، أي في سنة ١٩٠٦م زار ميدان المعركة الحاكم العام للسودان ريجلند وينجت فكتب يقول : (زرت ميدان الواقعة التي قتل فيها الأنصار هيكس وأفنوا جيشه سنة ١٨٨٣م ، ومن الغريب أن العساكر كانوا في حال شديدة من العطش مع وجود بركة كبيرة من المياه على بعد ميل واحد منهم ولكنهم لم يعلموا بها ، والمكان واقع وسط غابة كثيفة ، ولاشك أنه لو كانت النجدة المرسلة لرفع الحصار عن الأبيض أكثر عددا وأقوى عدة لكانت لاقت ما لاقته حملة هيكس ، وإرسال الحملة في أحوال كهذه يعد ضربا من الجنون ، وهو أكبر دليل على أن الحكومة في ذلك الحين لم تكن عالمة بحقيقة الحال ، ولم تحسب حسابا للصعوبات التي لابد لكل جيش كبير من ملاقاتها في مروره ببلاد كهذه.

ويبدو أن هيكس قد مال إلى مهاجمة الأبيض من الجنوب ليحقق عنصر المفاجأة ، ولكن هيهات يا جنرال ، إنك تحارب المهدي ، الذي كمن في هذه الغابة ،

ومعه خمسون ألف من رجاله ، وكانت هذه الغابة أنسب مكان لإخفاء هذه الآلاف المؤلفة من الجنود ، والمهدي لم يختر هذا الموقع لأنه يشرف على الوادي الذي دخلت منه قوات هيكس فيسهل إبادته فقط ، بل لأن هذا الموقع أيضا يشرف على بركة مياه كبيرة تتيح للقوات الإسلامية فرصة كبيرة للصمود ، وفي نفس الوقت لم يترك المهدي القوات المعادية تقترب من المياه ، ومن ثم يمكن القول بأن القيادة الإسلامية عملت على توفير جميع عناصر النجاح والانتصار في المعركة.

نتائج المعركة :

كانت معركة شيكان أشبة بغزوة الأحزاب ، كلتاهما فتحت الطريق نحو التمكين والفتح العظيم ، وشل حركة العدو والتزامه جانب الدفاع ، وعدم القدرة على الهجوم ، وهو ما تم بالفعل فإن المهدي بدأ يعد العدة نحو الزحف على العاصمة السودانية ، بعد أن أفقد عدوه القدرة على القيام بأي هجوم من أي نوع ، كما حدث مع النبي الأكرم (ﷺ) بعد غزوة الأحزاب حيث فقدت قريش القدرة على غزو المدينة المنورة بعد ذلك ، واستمر الحال هكذا إلى أن فُتحت مكة بعد ثلاث سنوات تقريبا.

على أية حال فقد كان لإبادة جيش هيكس صدى كبير في السودان ومصر وإنجلترا ، فقد تسربت أنباء الكارثة بعد أسبوعين من وقوعها فكانت مفاجأة تامة للعالم كله ، وسوف نشير إلى أهم ردود الفعل على هذا الحدث الجلل :

(أ) **في السودان :**

ارتجّت أنحاء البلاد لهذا الانتصار ، وزادت هيبة المهدي في النفوس ، وأصبح يتمتع بالسيطرة التامة على كردفان ، وقصد إليه الألوف من السودانيين الذين كانوا مترددين في الانضمام للثورة ، كما أرسل المهدي دعاته يحملون أنباء انتصاراته ، فانتشرت الثورة وامتدت إلى كل مكان في السودان.

وبدا بعد انتصار شيكان كأن سدا في السودان قد انهار فإذا موجة الثورة تتدفق في كل مكان ، ولم يبق ركن في الدولة الكبيرة لم تحط به ثورة المهدي ، وبدأ الذعر يستشري في الخرطوم ، فهرب كثير من الظالمين بطريق النيل إلى مصر.

فأما سلاطين النمساوي مدير دارفور فانقطعت كل صلة له بالخارج فخاض مع القوات الإسلامية بعض المعارك الميئوس منها ، ثم استسلم في (داره) يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٨٣م ، ثم استسلمت الفاشر عاصمة المديرية في ٢٤ يناير ١٨٨٤م ، وانضم هذا السلاطين إلى المهدي متظاهرا بالإسلام ، وسمى نفسه عبد القادر.

أما لبتون الإنجليزي مدير بحر الغزال فقد صمد حتى ٢٩ أبريل ١٨٨٤م حيث استسلم للقوات الإسلامية بقيادة الشيخ محمد الكركاوي الذي عين أميرا على بحر الغزال ، وحذا لبتون حذو سلاطين فانضم إلى المهدي متظاهرا باعتناق الإسلام وتراجع المنافق الألماني شنينزر في مديرية خط الاستواء إلى جنوب النيل.

وهكذا أصبح الجزء الأكبر من غربي السودان تحت سيطرة القوات الإسلامية ولم يبق إلا الزحف على العاصمة الخرطوم ، ولكن ماذا عن الجبهة الشرقية ، أي شرق النيل ؟ هذا ما سوف نتناوله بعد الحديث عن رد الفعل في كل من مصر وبريطانيا على معركة شيكان.

(ب) <u>في مصر :</u>

قوبلت أنباء المعركة بالحزن والجزع ، فقد فقدت مصر في كردفان فقط قرابة عشرين ألف قتيل من أبنائها في المعارك ضد المهدي ، أما الجماهير المصرية فكان جزعها على خيرة شبابها وأبنائها الذين فقدتهم في سبيل المحافظة على استمرار الاحتلال والقضاء على الثورة ، أما الساسة المفسدون الفاسدون فقد

جزعوا على ضياع جزء من ملكهم ، وانهيار نظامهم العفن النتن في السودان ، وكان حريا بهؤلاء وهؤلاء أن يعيدوا النظر في السياسة المصرية في السودان ، وتجاه الأشقاء في جنوب الوادي.

(جـ) **في إنجلترا :**

رأت الحكومة البريطانية بعد معركة شيكان إخلاء السودان ، إعادة تقييم الموقف ، وبالفعل صدرت الأوامر من القاهرة في يناير ١٨٨٤م بإخلاء السودان فورا ، وترحيل الموظفين والجاليات الأوروبية والنصرانية من الخرطوم ، وكان عددهم لا يقل عن أحد عشر ، وسحب الحاميات المصرية من السودان كافة ، وكان عدد أفرادها نحو خمسة وعشرين ألف جندي كاملي السلاح والعدة.

وكان هذا القرار شديد الحكمة ، يدل على فهم صحيح للأمور ، وذلك أن هؤلاء الناس لو بقوا في السودان ـ وبخاصة الحاميات ـ فلن يكون مصيرهم بأفضل من مصير هيكس وجنوده ، ولاشك أن هذه الحاميات ستقع فريسة سهلة ، وثمرة دانية القطوف في يد القوات الإسلامية التي أصبح لها الكلمة الطولى ، الأخيرة والأولى في جنوب الوادي ، وأصبحت الحاميات المصرية أشبه بجزر صغيرة طافية فوق الماء لا قيمة لها من الناحية العسكرية ، بل هي مجلبة للكوارث والهزائم.

ولم يكن قرار سحب الحاميات معناه استسلام إنجلترا أو خروجها من الحرب ضد الإسلام ، كلا ، بل هو من قبيل الكر والفر ، لإعداد خطط أخر ، يمكن بها مواجهة الدولة الإسلامية الجديدة ، لم يكن كما فهم بعض المصريين محاولة لإخراج القوات المصرية ليكون السودان خالصا لإنجلترا ، كلا ، لأن هذه الحاميات لم تكن إلا أداة طيعة في يد إنجلترا ، كما لم يكن إخراج الحاميات إنقاذا لأرواح جنودها أو حقنا

للدماء ، أو إشفاقا على الشعوب من أن تكتوي بنيران الحروب ، لا ، بل إنقاذا لهيبة إنجلترا ، لأن انتصارات القوات الإسلامية بقيادة المهدي كانت تهز المسلمين هزا عنيفا ، في جميع أنحاء العالم ، وليس في مصر والسودان فقط ، وحين فكرت إنجلترا في إخراج الحاميات كانت تعد خطة أخرى للقضاء على المهدي ، هي خطة المساومة ، كما سنعرف بعد ذلك.

ويحسن بنا أن ننهي الحديث عن موقف إنجلترا باقتباس من ألان مورهيد صاحب كتاب النيل الأبيض يقول : (وفي نهاية ١٨٨٣م بات من الممكن المكابرة بأن الكفتين كانتا متعادلتين في الصراع بين الإسلام والنصرانية ، فقد فاز البريطانيون بمصر ، ولكنهم خسروا السودان) إذن المسألة بكل وضوح وصراحة كم[illegible]ن مورهيد هي صراع بين الإسلام والنصرانية ، وهو ما يغفل عنه ـ أو يتغافل عنه ـ غير قليل من المسلمين !!.

الجبهة الشرقية :

بعد فتح الأبيض انضم إلى القوات الإسلامية قائد عسكري عظيم كان له أثر كبير في تثبيت دعائم الدولة الجديدة ، وهو عثمان دنقة الذي بايع المهدي سنة ١٨٨٣م فولاه على سواكن وطوكر وكسلا ، فشق الرجل طريقه بسرعة فائقة إلى شرق السودان وسواحل البحر الأحمر ، محرضا قبائل الهدندوة على مبايعة القيادة الإسلامية ، وعلى الفور بدأت المعارك التي لم تهدأ ضد المصريين والانجليز والأحباش والإيطاليين ، والتي استمرت بضعة عشر عاما.

وكان محمد توفيق يتولى محافظة سواكن ، وتحت إمرته الحاميات المصرية الموزعة بين سواكن على البحر الأحمر ، وطوكر الواقعة على بعد أربعين ميلا

جنوبها ، وسنكات على نفس المسافة غربها ، وإن على محمد توفيق أن يواجه أكفأ قوات الدولة الإسلامية ، وليسير في طريق راشد أيمن ويوسف الشلالي وبقية القائمة.

معركة سنكات :

اقترب عثمان دنقة من سنكات يريد فتحها ، فبادر إليها محمد توفيق يدافع عنها ، وهي من المواقع المهمة من الوجهة العسكرية ، إذ هي أهم المواقع على طريق سواكن بربرة التي تقع على النيل شمال الخرطوم ، وجاء الهجوم الإسلامي على سنكات يوم ٥ أغسطس ١٨٨٣م ولكنها صمدت ، واستشهد كثير من المسلمين منهم ابن عم عثمان دنقة الذي جرح هو الآخر جرحا بليغا ، فرجع إلى أركويت جنوب سنكات ، كما أصيب القائد المصري أيضا بعدة جروح ، ولكنه صامد في الدفاع عن مواقعه.

معركة التيب الأولى :

وظلت الحرب سجالا بين القوات الإسلامية وبين جنود الحكومة المصرية ، فضرب الحصار على طوكر فخرج اللواء محمود طاهر في قوة تبلغ ٥٥٠ رجلا لنجدة طوكر يصحبه الكابتن مونكريف قنصل إنجلترا في جدة ، الذي جاء من الأراضي المقدسة لحرب المسلمين.

وعند آبار التيب التي تقع شمال طوكر انقض الأنصار ـ في ٥ نوفمبر ١٨٨٣م - على محمود طاهر ورجاله فقتلوا معظمهم وبخاصة مونكريف ، وفر القائد الهمام إلى سواكن ، ثم عزل بسبب هذه الهزيمة المنكرة ، وقد حدثت هذه المعركة في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة شيكان التي سبق الحديث عنها.

وقد ترتب على انتصار عثمان دنقة في معركة التيب أن وضع القائد العظيم الحصار على سواكن ، فصارت القواعد الثلاث المهمة وهي سواكن وطوكر وسنكات محصورة ، ومركزها في شدة الحرج.

معركة طماي الأولى :

بعد أن شفي عثمان دنقة من جراحه في معركة سنكات قام على الفور ، بحشد ثلاثة آلاف من رجاله ، ونزل بهم في آبار طماي ، وعلى نحو عشرين ميلا من سواكن ، وأخذ يهاجمها ، وقطع الطريق بينها وبين سنكات ، وشدد الحصار على سواكن ، فخرج إليه الضابط كاظم أفندي على رأس قوة من حوالي سبعمائة جندي ، والتقوا بعثمان دنقة يوم ٢ ديسمبر ١٨٨٣م بالقرب من طماي فقاتلوا حتى أبيدوا عن آخرهم ، ولم ينج منهم سوى ٤٥ رجلا.

فتح سنكات :

ظل محمد توفيق يدافع عن سنكات ، ولكن الأنصار شددوا عليها الحصار ، وانقطع المدد عنها ، فاستبسل الرجل مع الحامية ، واحتملوا أهوال الحصار ، حتى نفدت مئونتهم ، فعانوا ألم الجوع واضطروا إلى أكل لحوم البغال والحمير ، والكلاب والقطط ، وأكلوا الجلود ، واضطروا إلى مضغ أوراق الشجر تسكينا لسعار الجوع.

وهنا أرسل محمد توفيق إلى الحاكم العام في الخرطوم يقول : (إن حالة الأطفال والشيوخ جرحت فؤادي ، وأقلقت خاطري ، بعد نفاد المؤن ، ولم نبق على حمار أو جمل ، وكنا بانتظار إمدادكم إيانا حتى الآن ، ولم نر منكم معينا ولا نصيرا ، وقد ضقت ذرعا ، وفرغ معين الصبر ، ومع ذلك فإني أصبر بعد إرسال هذا الكتاب يومين فقط ، فإذا لم أر منكم عضدا ، فلابد لي من إتمام واجبات العسكرية بشرف

فأطلق المدافع وأهدم الاستكامات ، وأهجم ورجالي على الأعداء فنقاتلهم ونناوشهم الحرب بكل قوانا ، قصد النجاة والفوز بالحياة ، فإذا أسعدنا الحظ ، وإلا فإنا نموت موت الأبطال ، بعد القيام بالواجبات العسكرية ، شرف الجندية تخليدا لذكر مصرنا العزيزة ، ومحافظة على حقوقنا المقدسة).

وكان أحرى بهذا القائد الصنديد أن يحارب الصليبيين الإنجليز الذين دنسوا بلاده ، فقد كان هذا أخلد لذكراه وذكر مصر من محاربة الشعب المسلم في السودان الذي خلع عن نفسه ربقة الحكم العفن والهيمنة الجاهلية (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور [1]).

وبعد أن هدّ الجوع قوى الرجال جمعهم محمد توفيق ، فقال لهم : (إن بقينا هنا هلكنا من الجوع ، وإن سلمنا لم نضمن السلامة ، وإن سَلِمْنا عشنا عيشة يهون معها الموت ، فلم يبق لنا إلا أن نخرج من الاستحكام ، ونتخذ طريق سواكن ، فإن لحقوا بنا حاربناهم حتى ظفرنا أو متنا شرفاء).

واستجاب الناس لأمر قائدهم ، وهو محاولة الهرب إلى سواكن ، وفي يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني ١٣٠١هـ - ٨ فبراير ١٨٨٤م خرجت الحامية بعد أن حرقت مخازن البارود وسدوا أفواه المدافع ، وخرجوا من سنكات - وعددهم لايزيد عن ستمائة نفس من جند ونساء وأطفال - وساروا نحو ميل ونصف فقط حتى أتوا مضيقا وعرا فإذا الأنصار فيه كامنون ، وهنا نظم محمد توفيق الجند على هيئة مربع ، وجعل النساء في الوسط ليقيهم شر القتال ، ثم أخذوا يطلقون النار ، ولكن القوات الإسلامية أطبقت عليهم من كل جانب حتى قتلتهم عن آخرهم ، وعلى رأسهم محمد توفيق ، وسائر ضباطه ، فضلا عن الجنود .

---

(١) ٤٦ ، الحج.

ولم ينج من القتل سوى خمسة رجال منهم قاضي سنكات ، وثلاثين امرأة ، وكانت مغامرة فاشلة راح ضحيتها القائد نفسه وكل رجاله ، وكانت فكرة سخيفة أن يحاول الهرب من الحصار بهذه الطريقة ، أو يحارب بهذه الطريقة البائسة ، فتفنى الحامية بأكملها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ومن العجيب أن محمد توفيق هذا لم يكن رجلا عسكريا ، بل قضى معظم حياته في التدريس ، وكان من الحماقة أن يتولى القيادة دون أن يكون أهلا لها ، وإذا كان القادة الكبار لم يصمدوا أمام القوات الإسلامية ، فكيف بهذا الرجل يزج نفسه ويقحمها في المهالك !!.

حملة بيكر:

بعد تشديد الضغط على سواكن كان لابد من حمله أو قل نجدة من القاهرة لإنقاذ هذا الميناء المهم من الحصار الإسلامي ، ولذا قررت الحكومة المصرية أن تعهد بمهمة هذه الحملة الجديدة إلى فانتين بيكر ، شقيق المكتشف صموئيل بيكر. وكان فالنتيين قد حارب كضابط في سلاح الفرسان البريطاني في جنوب إفريقية والقرم ، وفي سن السابعة والأربعين حكم عليه بالسجن عاما والغرامة ، لاعتدائه على فتاة في أحد القطارات ، وخرج من السجن فرحل إلى تركيا حيث عمل جنديا مرتزقا ، فأبلى في الحرب ضد روسيا بلاء رفعه إلى منصب حاكم أرمينية.

وعندما رزئت مصر بالاحتلال استدعاه الجنرال ولسلي ، قائد الحملة الإنجليزية التي احتلت مصر ، وإدوارد مالت قنصل إنجلترا العام على الفور ، وعهد إليه بتنظيم جيش مصري جديد ، وبالفعل غادر بيكر استنبول أواخر ديسمبر ١٨٨٢م أي قبل أن تنقضي بضعة وعشرون يوما على احتلال القاهرة ، فجاء هذا الرجل السعيد المحظوظ إلى مصر لينعم عليه الخديوي برتبة فريق ، وأصبح يعرف بالفريق بيكر باشا.

وفي ٨ يناير ١٨٨٣م أصدر الخديوي مرسوما بتعيين هذا الباشا مفتشا عاما للشرطة وقائدا عاما لها ، فصار الجيش والشرطة في يد الإنجليز ولما يمضي على الاحتلال أربعة أشهر ، ويقال بأن الرجل جاء لقيادة شرطة بلوكات النظام التي كانت حديثة التكوين إبان الاحتلال ، ولكن الحظ صعد به إلى قيادتي الجيش والشرطة في مصر !!.

وهكذا تفتح بلاد المسلمين على مصراعيها أمام الأفاقين الفاسدين ، وكأن البلاد عقمت إنجاب أمثال هيكس وبيكر ... الخ القائمة السوداء التي ابتليت بها الأقطار الإسلامية ، ولا تقف المأساة عند هذا الحد ، بل يقود هؤلاء الكفار المسلمين لحرب إخوانهم المسلمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ويجند الفريق بيكر من قوات الشرطة ومن الاحتياطي حملته المشئومة ، يقول مورهيد : (واشتم كرومر خطر هذه البعثة ، إذ أدرك أن بيكر خرج ليعيد نفسه إلى الجيش البريطاني ، بالاستماتة في القتال ، ومن ثم شدد في توصيته بألا يزج بالجنود جميعا في نكبة كالتي حاقت بهيكس ، ولكن الكلام طار بمجرد وصول بيكر إلى سواكن في ١٣ ديسمبر ١٨٨٣م.

وبمجرد أن وصلت الحملة سواكن بدأت الزحف إلى ترنكات في الجنوب ، وفي أوائل فبراير تقدم بيكر بقوة من ثلاثة آلاف وستمائة مقاتل ، وساروا قاصدين طوكر ، فما أن وصلوا آبار التيب حتى فاجأتهم القوات الإسلامية يوم ٤ فبراير ١٨٨٤م فألقت الحملة السلاح من أول صدمة ، فذبحت عن آخرها في دقائق ، واستطاع بيكر وحده تقريبا أن ينجو بنفسه ، وقتل من رجاله نحو ٢٣٠٠ ، ومن ضباطه ٩٢ ضابطا ، وهرولت الفلول المنهزمة إلى سواكن.

ومن العجيب يا سادة يا كرام أن اللواء محمود طاهر لقي هزيمة منكرة على يد القوات الإسلامية في نفس المكان ، آبار التيب ، قتل فيها قنصل إنجلترا في جده ، وكان على بيكر قائد الحملة الهمام أن يأخذ العبرة من المعركة السابقة ، وبخاصة أنها لم يمر عليها أكثر من ثلاثة أشهر ، ولكن ماذا تنتظر من جندي مرتزق ، وضابط أدين بجريمة مخلة بالشرف ؟ إن الرتب والألقاب لا تحارب ، إن الذي يحارب هم الرجال فقط ، فإذا افتقدوا فلا حاجة إلى الرتب الطنانة والألقاب الرنانة.

وقد ترتب على هذا الانتصار الساحق أن أصبح الطريق مفتوحا إلى سنكات وطوكر ، بعد أن انقطع عنها المدد ، فبعد أربعة أيام فتحت سنكات ، كما ذكرنا ، وفي ٢٤ فبراير فتح طوكر ، وتوالت الفتوحات الإسلامية في الجبهة الشرقية حتى وصلت إلى أقصى الجنوب حين فتحت القضارف بمديرية كسلا في ٢١ أبريل ١٨٨٤م.

وكان لهذه الهزيمة كالعادة صدى أليم في مصر ، أما في إنجلترا فإنها ارتاعت هي الأخرى ، ولكن الأسباب مختلفة ، هذه الأخيرة لم يكن يعنيها في شيء دماء المصريين التي سفكت أو النفقات التي ضاعت ، وإنما ارتاعت خوفا على ميناء سواكن ، إذ هو يتحكم في الطريق نحو الهند ، فقد كان قيام ثورة في السودان أمرا سيئا ، ولكن تعرض طريق البحر الأحمر إلى الهند أسوأ مغبة.

حملة جراهام :

على إثر الخوف من استيلاء القوات الإسلامية على ميناء سواكن ، وبخاصة بعد هزيمة بيكر صدرت الأوامر إلى الأميرال هويت بأن يتجه بأسطوله إلى سواكن على أن تتبعه قوة بريطانية من أربعة آلاف جندي ، بقيادة الجنرال جراهام ، وهو ما تم في أواخر فبراير ١٨٨٤م ، وقبل أن تصل النجدة إلى طوكر كانت القوات الإسلامية قد استولت عليها في ٢٤فبراير.

على أن الحملة هاجمت القوات الإسلامية يوم ٢٩ فبراير ، عند آبار التيب أيضا ، وهي ثالث معركة تقع في هذا المكان ، وهنا تراجعت قوات الأنصار ، وأخلت مناطق الآبار.

وفي ١٣ مارس ١٨٨٤م هاجمت الحملة عثمان دنقة في طماي فأخلاها معتصما بالجبال ، محاولا استدراج الإنجليز ، ولكنهم تراجعوا إلى سواكن ، ثم أمر جراهام بالعودة إلى مصر ، فعاد في أبريل ، ولحقه جيشه بعد أن أقيمت حامية جديدة في الميناء المهم الذي اطمأن الإنجليز على سلامته ، وفي ١٠ مايو ١٨٨٤م عيّن العقيد تشمرسيد محافظا لسواكن خلفا لمحمد توفيق ، وتركت له بعض القوات تكفي فقط للدفاع عن المدينة.

ولكن لماذا استماتت الإنجليز في الدفاع عن سواكن فقط دون غيرها ؟ إن هذا يرجع إلى عدة أسباب :

١ـ موقعها المهم ، هي مدخل جيد للسودان ، فموقعها على البحر الأحمر يجعلها بوابة سهلة للسودان ، كما يمتد منها الطريق البري إلى بربر على النيل شمال الخرطوم ، ومن بربر يمكن استخدام النهر في الوصول إلى العاصمة السودانية.

٢ـ إحكام الحصار البحري حول الدولة المهدية ، وعدم السماح لها باستخدام البحر الأحمر تجاريا وعسكريا ، وقطع طريق الحجاج على المسلمين ، فإن مكة تقع قريبا من الشاطئ المقابل لسواكن ، لفرض الحصار الإعلامي على الثورة الإسلامية ، والدولة الإسلامية الفتية ، فإن اتصال الأنصار بإخوانهم المسلمين في موسم الحج كان كفيلا بإثارة الشعوب المسلمة في كل مكان في العالم ضد إنجلترا.

٣- أن تبقى نقطة وثوب ضد الخلافة الإسلامية حين يأتي الوقت للإجهاز عليها وإسقاطها.

٤- إن استيلاء القوات الإسلامية على ميناء سواكن قد يمكنها من قطع طريق بريطانيا إلى الهند ، ومن تحويل مياه البحر الأحمر إلى مياه إسلامية ، فإن الدولة المهدية كان يمكن أن تسيطر على هذا الطريق البحري المهم ، وتستخدمه في غزو مصر ... الخ.

وصفوة القول أن إنجلترا كانت تستميت في الدفاع عن سواكن حتى لا يتسرب بركان الثورة إلى المسلمين في مستعمراتها ، وكان هذا الميناء الحيوي بمثابة فوهة البركان التي تسخر إنجلترا في سبيل سده كافة ما لديها وما تحت يديها من إمكانيات الشعوب المستعمرة وغيرها ، منعا لوحدة المسلمين ، وحرصا على تشتيت طاقاتهم.

معاهدة عدوة :

شددت القوات الإسلامية الحصار على الحاميات المصرية شرق السودان حتى حدود الحبشة ، وعلى ميناء سواكن بصفة خاصة ، وذلك بعد انسحاب جراهام ما دفع انجلترا في مايو ١٨٨٤م إلى إرسال وفد إلى يوحنا الرابع إمبراطور الحبشة وقد ترأس الوفد الأميرال وليم ناثان عن الحكومة الإنجليزية ، ومثل الخديوي محافظ مصوع المستر مازون الأمريكي للاتفاق مع الإمبراطور على تسهيل انسحاب الحاميات المصرية المحاصرة وتأمين سلامتها عند مرورها في الأراضي الحبشية في طريقها إلى ميناء مصوع.

وقد أجيب الوفد إلى طلبه ، فعقدت معاهدة عدوة في ٣ يونيه ١٨٨٤م ، أما

الثمن الذي تلقاه الإمبراطور لقاء تسهيلاته فهو استرجاع منطقة باغوص ، ثم المواقع التي انسحبت منها الحاميات المصرية في كسلا وعمديت وسنهيت ، وكانت تلك المواقع ستقع في يد القوات الإسلامية ، إن آجلا أو عاجلا ، ولذا كان من الأفضل للبريطانيين النصارى أن يعطوها لأخوتهم الأحباش النصارى أيضا ، لتتفرغ إنجلترا إلى حرب المهدي من سواكن وجنوب مصر.

المساومة :

علا الضجيج في إنجلترا بعد انتصارات المهدي الساحقة والمتوالية ، وبخاصة بعد هلاك هيكس وإفناء جيشه ، وكان رئيس تحرير الجازيت أقوى صحفي سياسي على عهده ، فرأى الفرصة سانحة لحديث من أقوى الأحاديث ، اتصل بغوردون ليسأله : (هل فكر الجنرال في أمر السودان ؟) وكان الجنرال يفكر فيه كل التفكير : (ومن يكون ذلك المهدي !؟).

مجرد متمرد عربي آخر ، من الممكن معاملته ، كما عومل الزبير وابنه سليمان في حينهما ، ولكن يمكن أن يصبح شديد الخطر إذا ترك وشأنه ، ويجب الاحتفاظ بالخرطوم مهما تكلف ذلك ، ولعل من المفيد إنفاق مليوني جنيه لتدعيم وضع الجيش المصري في السودان ، كان كل ما يتطلبه الأمر وجود قائد قوي في الميدان.

يقول مورهيد : وأدلى غوردون بآراء قوية الأثر بصدد الموضوع الرئيس ، أي الصراع بين الإسلام والنصرانية في الشرق ، ومما قال : (ليس زحف المهدي عبر وادي حلفا هو الخطر الذي يخشى ، بل من غير المتوقع أن يتوغل إلى الشمال أصلا ، ولكن الخطر من نوع آخر تماما ، فهو ناتج عن قيام دولة إسلامية مظفرة

ملاصقة لحدودكم [1] مباشرة على القوم الذين تحكمونهم ، سيسود المدن المصرية جميعا شعور بأن بوسعهم أن يفعلوا ما فعله المهدي ، وأن يطردوا الدخلاء والخونة كما طردهم).

إذن فالمشكلة الأساسية والموضوع الرئيس هو الصراع بين الإسلام والنصرانية ، وهو ما يفسر استماتة إنجلترا في سبيل القضاء على المهدي ودولته ، ولقد كان غوردون على صواب حين ذكر أن خطورة هذا الرجل على مصر لا تكمن في زحفه نحوها ، بل الخطر الأكبر : (قيام دولة إسلامية مظفرة ملاصقة) للحدود المصرية ، إن هذه العبارة لتكشف عن حقيقة مهمة نراها عند قيام أية دولة إسلامية مظفرة ، إن الخطر دائما ما يأتي من الجيران.

وقد ضربنا أمثلة ثلاثة ـ قبلا ـ لعل أوضحها ما يحدث الآن في الخليج ، الخطورة من الدولة الإسلامية المظفرة ليست خطورة عسكرية ، فلا يعقل أن تقوم إيران بغزو دول الخليج ، ولا تفكر فيه البتة ، وإن كان الغرب والشرق يصور لتلك الدول الأخطار العسكرية الوهمية ليدفعها إلى شراء مزيد من السلاح ولشق الصف الإسلامي ، وتكريس الفرقة في ديار المسلمين.

ولعل كثيرا من الناس على يقين من زيف الخطر الإسلامي الموهوم ، ولكن الشيء المؤكد أن قيام دولة إسلامية ـ أو شبه إسلامية ـ في الخليج ، أو في أي مكان سوف يدفع الشعوب إلى أن تحذوا حذو الشعب الإيراني ، وهذه هي الخطورة الكبرى والفزع الكبير الذي ترتعد منه الفرائض ، وهو ما فسر قيام العراق بشن الحرب على إيران ، ليس بسبب الجزر ، أو مشاكل الحدود ، أو تحرشات مزعومة مفتعلة ، كما يقال للساذجين ، بل خوفا من انتقال العدوى الثورية إلى الشعب العراقي ، ولذا كان

(١) يقصد حدود مصر.

لابد من تلك الحرب القذرة لإسقاط الدولة الإسلامية المظفرة ، ولنا عود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

نعود إلى إنجلترا فنقول : إنه بعد جدل وأخذ ورد اتفق الرأي على إرسال غوردون إلى السودان ، لا كقائد عسكري ، ولا كحاكم ، وإنما كمجرد مستطلع للأحداث ، فما أن يصل هناك حتى يغدو في مركز يتيح له إبداء المشورة بشأن إخراج الحاميات المصرية ، ولعله بنفوذه الشخصي يستطيع تسوية المسألة سلميا ، وهكذا يتسنى ـ بدون نفقات ، وبدون توريط الحكومة البريطانية ـ وضع نهاية لضجيج الرأي العام ، وإرضاء الجميع.

وكانت فكرة ركيكة ، إذ بنيت على عدم فهم لكل من غوردون والمهدي ، فإن الذين خطر عليهم أن الجنرال سيقنع باستطلاع الأحداث لم يكونوا يعرفونه ، وما كان ماضيه يوحي بأتفه اطمئنان لهذا الرأي ، وكان الأخطر من ذلك الاستهانة ـ في لندن ـ بخطر المهدي ، وكان غوردون نفسه مخدوعا كسواه ، ولم يستطع أن يرى أن الموقف في السودان تغير تماما في السنوات التي غابها عنه.

إن المهدي لم يكن مغامرا أو مشاغبا تسانده غوغاء من أبناء القبائل ، وإنما هو زعيم نهضة دينية ، يقول مورهيد : (كان المهدي خطرا جدا ، ولم يكن هناك طريقة لمعاملته سوى إرسال حملة عسكرية من إنجلترا ، ولكن فكرة إرسال غوردون إلى السودان ليعمل المعجزات كانت شديد الجاذبية في لندن آنذاك).

ولقد كان اختيار غوردون بالذات لأداء هذه المهمة اختيارا سيئا وغير مناسب على الإطلاق ، فهذا الجنرال كان من أعظم أسباب شقاء السودان وبؤسه ، مما دفع الأحداث إلى الثورة ، فهل يعاد مرة أخرى إلى هذا البلد ، وتناط به هذه المهمة ؟! وهل نرفع شعار : (وداوني بالتي كانت هي الداء ؟!).

ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن الفريق الاستعماري في الوزارة البريطانية لم يكونوا منساقين لسوء إدراك تبعات إرسال غوردون ، بل إنهم رأوا أن إنجلترا ستتورط بمجرد وصوله إلى السودان فإن وجوده في الخرطوم كان كفيلا بأن يجبر البريطانيين ـ بطريقة ما ـ على إرسال بعثة عسكرية ، فلا يلبث المهدي أن ينهزم كما انهزم عرابي ، ويقول مورهيد : (ولكن هذا الرأي يبدو مبتسرا ، فما من أحد ـ في لندن ـ كان يريد الحرب في تلك المرحلة ، وإنما المراد سلامة قناة السويس وتسوية المسألة سلميا ، ولاشك أن تجربة غوردون كانت تستحق المحاولة ، ولو كانت فرص نجاحها ضئيلة فإذا فشل أمكن إثارة المسألة مرة أخرى بشكل أقوى).

أما عدم الرغبة في الحرب في تلك المرحلة التي أشار إليها مورهيد فقد يكون صحيحا ، وذلك لأن الدول لا تلقي بنفسها في أتون الحرب قبل أن تستفرغ جميع السبل الأخرى لعلاج المشكلة ، وإنجلترا من تلك الدول التي تحبذ هذه السياسة وهي ذات باع واسع في المكر والدهاء وحياكة المؤامرات المحكمة ، ولا يزال في جعبتها الكثير ، فآخر الدواء الحرب.

وهي الآن نجرب سلاح المساومة ، فإن لان المهدي فحبا وكرامة ، وإلا فإن هناك أسلحة أخرى ، لقد كانت خطة محكمة لولا أن غوردون نفسه لم يكن أهلا لها ، ولم يستطع تنفيذها ، صحيح أنه كان غير كفء للمهدي ، ولكن الجنرال ورط نفسه وورط حكومته ، وزج بنفسه في مهمة غير التي كلف بها ، فكان هو أول ضحية لأخطائه وحماقاته.

وكانت الخطة التي رسمت له كما عبر عنها قرار مجلس الوزراء البريطاني الذي صدر في يناير ١٨٨٤م : (عهد بمهمة الجلاء عن السودان إلى الجنرال غوردون ، وأنه سيكون في الخرطوم ممثلا للحكومة الإنجليزية) وكتب إليه وزير

الخارجية بالسفر بلا إبطاء إلى مصر ، ووضع تقرير عن حالة السودان العسكرية ، وعن الوسائل التي يحسن اتباعها لسلامة الحاميات المصرية والجاليات الأوروبية ، وعن خير الوسائل للجلاء عن السودان مع الاحتفاظ بثغوره الحربية ، وإدارتها تحت السيطرة المصرية.

وسافر غوردون على الفور ، يصحبه العقيد ستيورات كمساعد له ، سافر الاثنان على عجل إلى القاهرة ، وفي الطريق قفزت إلى ذهن الجنرال أفكار كثيرة ، منها طريف وعجيب ، ما هي خير طريقة لتهدئة البلاد بعد إخراج الحاميات المصرية ؟ لماذا لا يقام أمراء السودان حكاما ذوي استقلال اسمي بعد ذهاب المصريين ؟ لقد اتبع هذا النظام مع مهراجات الهند ، ولكن لابد من معالجة أمر المهدي أولا ، لقد كان لغوردون طريقة في معاملة المتمردين في الماضي ، فلماذا لا يمارسها ثانيا ؟ فلينطلق إلى مقابلة المهدي في معقله في الصحراء ويتفاهم معه بالعقل والحجة ، ويقنعه بتسريح أتباعه من أبناء القبائل ... الخ.

وفي القاهرة تغيرت المهمة من مجرد مستطلع إلى الحاكم العام للسودان ، وبدأ يتجلى تدريجيا في لندن والقاهرة أن عملية الاستطلاع لا تتكافأ مع القضية ، فقد تجمعت في هذه الأثناء معلومات كافية ، وحان الوقت لاستخلاص الحاميات المصرية من السودان ، وإلا فلن يقدر لها أن تبرحه.

وكان غوردون - في رأي إنجلترا ومصر - الوحيد الذي يستطيع تدبير الإجلاء أو لعله الوحيد الذي قبل هذه المهمة ، إذ رفضها قبله عبد القادر حلمي الحاكم السابق للسودان ، ولكنه لا يستطع أن يترك البلد بعد ذلك للمهدي ، بل لابد أن يترك جهازا للحكم ، وكانت إعادة نظام الأمراء وزعماء القبائل القديم لا تكاد تحل الموقف ، فلابد من سلطة تربطهم معا في نوع من الاتحاد.

وقد عرض غوردون اقتراحا أذهل الجميع لفوره ، لماذا لا يعهد بهذه السلطة إلى الزبير ؟ ولكن الأخير رفض لأن غوردون كان المسئول عن إعدام ابنه سليمان ، فتقرر تعيين الأمير عبد الشكور الذي كان يعيش لاجئا في القاهرة ، وكان لينا غير مستنير الذهن يقبل على الخمر ، ولكنه سليل سلاطين دارفور الأصليين فروي تعيينه في تلك المديرية كأول الحكام المستقلين ، وزود بألفي جنيه وسترة موشاة بالقصب وأكبر وسام وجد في القاهرة ، ولكنه اختلف مع غوردون في الطريق ، ثم اختفى تماما.

أما العقيد ستيورات مساعد غوردون في القيادة فقد كان عسكريا اسكتلنديا خدم في السودان من قبل ، فقد كلفته الحكومة البريطانية سنة ١٨٨٢م عقب ا[illegible] مصر بالذهاب إلى السودان ، ودراسة شئونه ، فذهب إليه في نوفمبر ١٨٨٢م ، وقدم تقريره في ١٨٨٣م انتهى فيه إلى عجز المصريين عن حكم السودان ، وعليه اتخذت الحكومة البريطانية قرار إخلاء السودان.

يقول مورهيد : (وبرغم أن ستيوارت كان نشيطا وقادر ، إلا أنه أوتي كل ما للضابط الإنجليزي من ازدراء للأهلين ، في حين وجده كرومر رجلا هادئا وصبورا ، وجديرا بالإعجاب ، لذا كان خير قرين لغوردون).

وسافر مع غوردون أيضا اللواء إبراهيم فوزي ، وسار الركب من القاهرة إلى الخرطوم ، ومعه تعليمات محددة هي كما جاء في مرسوم الخديو :

(إن الغرض من إرسالكم إلى السودان إرجاع الجنود والموظفين الملكيين المصريين إلى القاهرة ، مع حفظ النظام في البلاد بإعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري ، ولنا مزيد الثقة أنكم تتخذون أفضل الطرق لإتمام هذه المهمة طبق رغبتنا).

وقد أضاف غوردون إلى الخطة محاولة التفاهم مع المهدي بإرسال بعض الهدايا بصورة فجة ساذجة ، كما عرض عليه أن يكون أميرا على كردفان ، ولكن المهدي أفشل كل هذه المؤامرات والمخططات ، وهو ما سنفصله عند الحديث عن فتح الخرطوم.

وصفوة القول أن خطة التراجع والمساومة التي حيكت خيوطها في لندن والقاهرة قد فشلت تماما ، لقد أرادوا إنقاذ الحاميات ، وسودنة الصراع ، فبدلا من الجنود المصريين وغيرهم كانوا يريدون تسليم البلاد إلى الملوك السابقين ليقودوا بأنفسهم الحرب ضد المهدي ، وأنفاس الاستعمار معهم ومن وراءهم بالدسائس والنصائح والمؤامرات ، ولكن الله سلم المسلمين من كيدهم.

والآن نستطيع القول بأن الجاهلية استخدمت مع القيادة الإسلامية كل ما عندها من أسلحة ، وإن كانت لا تزال تبحث وتنقب عن أنجح الوسائل وأنجعها للقضاء على الدولة الإسلامية المظفرة ، وقد رأينا فيما سبق أن المهدي كان ناجحا في إدارة الصراع ضد الجاهلية ، هذا الصراع الذي لا يهدأ أواره أبدا ، وقد مهد هذا النجاح إلى المرحلة التالية ، أي مرحلة الفتح والتمكن ، وهو ما يتناوله الفصل التالي :

الفتح والتمكين

لا ينتصر المسلمون إلا بإتباع المنهج الإلهي وحسن تطبيقه وفهمه فهما كاملا صحيحا ، ولا يأتي كل هذا إلا من عالم رسالي ، ولقد طبق المهدي هذا المنهج بصورة جيدة ، مما مكنه في السودان ، وفتح عليه .

ولقد يطيب لنا أن نشير إلى أسباب انتصار هذا القائد الرسالي العظيم رغبة في استفادة المسلمون منها في صراعهم المرير ضد الجاهلية ، وبخاصة أن الله قد حبانا بدولة إسلامية مظفرة في إيران ، والبقية تأتي ، ولكننا نرجع الأسباب التي سنذكرها جميعا إلى تطبيق المنهج ، أو قل إجادة تطبيقه :

١- الحيطة والحذر:

لقد جاءه أبو السعود يطلب منه المثول أمام الحاكم العام ولكنه رفض ، فلو ذهب إلى الخرطوم لكان جزاؤه - في أحسن الأحوال - أن يلقى في غياهب السجون ، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وحين رجع أبو السعود عرف المهدي أنه سيأتي مرة أخرى ومعه قوة كبيرة للقبض عليه ، وهو ما حدث بالفعل ، وكان الرد جاهزا ، فأبيدت القوة عن آخرها ، وهرع أبو السعود وحده تقريبا هاربا إلى الخرطوم.

ولكن هل انتهت الحكاية ؟ كلا ، لقد عرف أن الحكومة لن تسكت ، وسوف ترسل جيشا هذه المرة ، ولذا لابد من سلاح بتار ، الهجرة إلى موقع آخر حصين ، إلى جبل قدير ، وهنا صح تقدير المهدي ، سارت إليه الحملات والجيوش فهزمهما جميعا ، وأبادها عن آخرها.

وهكذا ينبغي على المسلم الرسالي الذي يواجه الجاهلية أن يكون على يقين من أن جميع الأسلحة سوف تشهر ضده ، وأن الجاهلية لن يرقأ لها جفن قبل أن تصرعه ، فلا ينبغي أن يأمن جانبها على الإطلاق ، مهما هادنت أو داهنت ، فلا سلام بين العدوين اللدودين - الإسلام والجاهلية - إلا سلام المقبرة.

وكان المهدي في حيطته وحذره من العدو مطبقا لقول المولى (ﷻ) : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا [1] جَمِيعاً) وفي نهاية الحديث عن صلاة الخوف يقول أحكم الحاكمين : (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً [2]) بل إن صلاة الخوف نفسها دليل على أن المسلمين لابد أن يكونوا دائما في يقظة تامة من عدوهم ، حتى عند إقامة الصلاة المفروضة.

٢- المفاجأة :

نتيجة للحيطة والحذر فإن العدو لم يستطع أن يفاجئ المهدي في أية معركة من المعارك ، في حين إنه حقق في كل معاركه التي خاضها المفاجأة الكاملة المذهلة بدءا من المعركة في آبا حتى هزيمة هيكس ، وقد أشرنا إلى أنه برغم إنذاره ليوسف الشلالي فإنه استطاع أن يذبح الجنود وهم نيام محققا بذلك انتصارا قل نظيره في التاريخ.

يقول تعالى : (فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ [3] رَّحِيمٌ) ، وفي سورة [4] النساء : (فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ

---

(١) ٧١ ، النساء.
(٢) ١٠٢ ، النساء.
(٣) ٥ ، التوبة.
(٤) الآية ٨١.

وَاقْتُلُوهُمْ [1] حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً).

٣- أسلوب عسكري متميز:

يعتمد على مفاجأة الجيش القادم إليه ، يقول مورهيد : (وراح المهدي يتبع التقاليد الحقيقة للحرب الدينية في الإسلام ، فهو يظهر فجأة كالعاصفة في الصحراء دون أن يدري أحد من أين ظهر) وهذه ليست عملية سهلة ، فإن تحرك الجيوش بهذه الصورة التي يذكرها مورهيد يتطلب مهارة كبيرة في الإخفاء والتمويه وسرعة الحركة والتكتم الشديد ... الخ.

أما طريقته في فتح المدن ، كما حدث في الأبيض مثلا فقد كانت الحصار المستمر إلى أن تستلم المدينة ، دون أن يكلف نفسه مجهودا يذكر في القتال ، وهو بهذا يستغل قدرته على الحركة ، ومعرفته بالطرق ، وبخاصة طرق إمداد العدو التي يقطعها تماما ، مما يضطر العدو إلى التسليم ، أما هجومه على الخرطوم فقد كان له أسباب سنذكرها في موضعها.

٤- استخبارات قوية :

استطاعت أن توفر للقوات الإسلامية المعلومات الكاملة لمفاجأة العدو من حيث لا يدري ، وضربه في مقتل ، وفي الوقت نفسه أحاط المهدي دولته بسياج قوي محكم حتى يقيها شر الدسائس والمؤامرات ، كما أن العدو لم يكسب معركة المفاجأة على الإطلاق.

وهذه بعض الأمثلة لنجاح استخبارات المهدي :

---

(١) يقصد المنافقين.

(أ) لقد عرف بحملة هيكس قبل أن تدخل السودان ، بل لعله عرف بها منذ أن انطلقت من القاهرة ، فقد كان له في مصر من يوافيه بأخبارها وأحوالها ، كتب له أحد رجاله : (إن الأحوال تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، وإن الحكومة لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان ، وإنها منقسمة إلى قسمين وطني وخديوي...).

وكان أعظم نجاح حققه المهدي في مجال الاستخبارات أنه وضع جواسيسه في جيش هيكس ليستدرجوه على المكان المناسب الذي حدد لإفناء هذا الجيش قبل أن يصل إلى المياه ، وذلك بعد أن قاد أدلاؤه هيكس إلى تيه الصحراء في كردفان ، قطع خلالها مائتي ميل في شهر ، فوصل منهوك القوى ، أخذ منه الجوع والعطش كل مأخذ.

(ب) ثبت أن النساء الجالسات للتسول في شوارع الخرطوم كن جاسوسات للمهدي ، وهن اللواتي كشفن ضعف دفاعات المدينة ، وتسللن لإخبار المهدي بذلك ، وساعدنه على فتحها [1].

وقد رأينا كيف أنكر الشلالي على المهدي استخدام العيون والجواسيس ، وكيف رد المهدي بأن النبي الأكرم كان يفعل الشيء نفسه ، إذ هو لا يعلم الغيب ، ونعطي مثالا لما فعل نبينا قبل معركة بدر.

جاء في سيرة ابن هشام : (ثم إن رسول الله (ﷺ) سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارة من

(١) أفسح المهدي للمؤمنات دورا للجهاد : (جاهدوا في سبيل الله ، واعلموا أن سيفا سل في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين عاما ، وعلى النساء الجهاد في سبيل الله ، فمن صارت قاعدة ، وانقطع عنها إرب الرجال تجاهد بيديها ورجليها ، وأما الشابات فيجاهدون نفوسهن ويسكن في بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن لغير حاجة شرعية ، ولا يتكلمن بكلام جهرا ، ولا يسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء حجاب ، ويقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ، ويتسترن بثيابهن ، فمن وقفت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب ٢٧ صوتا ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب ٢٧ صوتا).

تجارتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ، مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص).

فكيف عرف النبي (ﷺ) بهذه المعلومات ؟ ألا يدل هذا على رصده لكل تحركات العدو ، ولو كانت تلك التحركات غير عسكرية ؟ لقد كانت قافلة تجارية ، لا دخل لها بأية عملية عسكرية ضد المدينة المنورة ، ولكن القيادة الإسلامية عرفت كل شيء عن القافلة وعدد رجالها وقيمتها وأهميتها ... الخ كل هذا إشارة من سيد الخلق إلى أهمية معرفة كل شيء عن العدو.

وقد بلغ من أهمية الاستطلاع أن خرج بنفسه مصطحبا رجلا من أقرب الناس إليه ، هو أبو بكر ، قال ابن هشام : (ثم نزل قريبا من بدر فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه وما بلغه ؟) فكان الحوار التالي :

- <u>الشيخ</u> : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟
- <u>الرسول</u> : إذا أخبرتنا أخبرناك.
- <u>الشيخ</u> : أذاك بذاك.
- <u>الرسول</u> : نعم.
- <u>الشيخ</u> : بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان كذا وكذا - مشيرا للمكان الذي به المسلمون - وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذي فيه قريش).
- <u>الشيخ</u> : (بعد أن فرغ من خبره) فمن أنتما ؟
- <u>الرسول</u> : نحن من ماء (ثم انصرف عنه).
- <u>الشيخ</u> : (محدثا نفسه) ما من ماء ، أمن ماء العراق ؟

ولا يكتفي الرسول (ﷺ) بما سبق ، بل يرسل قوة استطلاعية إلى ماء بدر ، يقول ابن هشام : ثم رجع رسول الله (ﷺ) إلى أصحابه فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ونفر من أصحابه إلى ماء بدر ، يلتمسون له الخبر عليه ، فأصابوا [1] راوية لقريش ، فيها غلامان ، فأتوا بهما فسألوهما ، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلي ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما آذوهما [2] قالا : (نحن لأبي سفيان) فتركوهما.

وركع رسول الله (ﷺ) وسجد سجدتيه ، ثم سلم وقال : (إذا صدقاكم ضربتوهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إنهما لقريش) ثم دار الحوار التالي :

- الرسول : أخبراني عن قريش ؟
- الغلامان : هم - والله - وراء هذا الكثيب ، الذي ترى بالعدوة القصوى.
- الرسول : كم القوم ؟
- الغلامان : كثير.
- الرسول : ما عدتهم ؟
- الغلامان : لا ندري.
- الرسول : كم ينحرون كل يوم ؟
- الغلامان : يوما تسعا ويوما عشرا.
- الرسول : القوم ما بين التسعمائة والألف ، فمن فيهم من أشراف قريش ؟

---

(١) إبل تسقى.
(٢) بالغوا في ضربهما.

- الغلامان : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ... (وعد الغلامان خمسة عشر من أوجه وجهاء قريش).
- الرسول : (مقبلا على الناس) هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

٥- وأخيرا :

لا ينبغي أن ننسى أهم سبب من أسباب انتصار المسلمين ، وهو وحدة الصف ، وحدة القيادة ، لقد استطاع المهدي أن يجمع الكلمة ، ويقضي على ألوان الفرقة ، حتى إنه ألغى الطرق الصوفية ، ودعا إلى توحيد المذاهب الفقهية ، كل هذا سعيا إلى تطبيق أمر الله تعالى : (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ [1]).

وهناك أسباب أخرى لانتصار المهدي يمكن للقارئ أن يلاحظها في ثنايا الكتاب ، ولنعد مرة أخرى إلى غوردون وماذا أعد لمواجهة القيادة الإسلامية ؟

خطط غوردون :

اختاره الإنجليز لإجلاء الحاميات المصرية وإعادة حكم الملوك إلى ذرياتهم ، كما كان قبل غزو محمد عليّ للسودان ، أو يولى غيرهم ، كما يتراءى لسادته ، ولكنه ـ لحسن الحظ ـ لم يفهم طبيعة الثورة المهدية ، كان يعتقد ـ يا حضرات ـ أن مجرد ظهوره في السودان كفيل بإعادة الطمأنينة إلى القوب المنخلعة فرقا من الهدير الإسلامي.

لقد كان القوم يتوقعون أن غوردون جاء ومعه جيوش جرارة ، أولها في لندن وآخرها في الخرطوم ، ولكن الجنرال خيب آمالهم بخططه الفاشلة الإسلامية ،

(١) ١٠٣ ، آل عمران.

إذ كان سيادته يعتقد أنه سيجيء بالذنب من ذيله ، كما يقول المثل المصري ، أي سيفعل ما لم يفعله الأوائل !!.

وفي بربر أول محطة للجنرال في السودان أعلن قرار الإخلاء معتقدا أن تلك القبائل التي عرفت بتذبذب ولائها ستطير من الفرح والحبور ، مستميتة في الدفاع عن استقلالها ضد المهدي ، وهنا لم يكن أمام تلك القبائل غير الانضمام إلى القوات الإسلامية ، إذ أيقنت أن المصريين سيرحلون تاركيهم وحدهم إلى قوة ، لا قبل لهم بها ، وهنا شرعوا يتقربون إلى القيادة الإسلامية.

وكانت بربر نقطة حيوية للمواصلات النيلية ، كما كانت مفتاح الخرطوم ، كما أنها أقرب نقطة على النيل من ميناء سواكن على البحر الأحمر ، المفتاح الثاني للعاصمة السودانية ، وكان سقوط بربر في يد القوات الإسلامية معناه خنق الخرطوم كما سيتضح لنا في مراضعه.

وجاوز الجنرال بربر إلى الخرطوم التي وصلها يوم ١٨ فبراير ١٨٨٤م ، فاستقر على الفور في القصر (السراي) وانفرجت أسارير الكفار والمنافقين ، وأصيبوا بتفاؤل خادع ، أبرق القنصل العام إلى كرومر : (وصل غوردون صباح اليوم ، فقوبل بمظاهر ترحيب رائعة ، والأحوال منذ سمع بمجيئه تبشر كل البشرى بقرب عودة السلام لهذا الجزء من السودان ، وقد قوبل خطابه في الشعب بأعظم حماس).

وقد شرع الجنرال النشيط في اتخاذ عدة إجراءات لتهدئة الأمور ، واسترضاء الأهلين ، منها :

١- في أول لقاء مع القناصل والعلماء والوجهاء أعلن مهمته : (إن السودان قد فصل فصلا تاما عن مصر ، وقد جئتكم حاكما عاما ، فجعلت من محمد أحمد المهدي سلطانا على كردفان).

٢- فتحت أبواب المدينة على مصاريعها ليخرج من يرغب في الانضمام إلى المهدي وكانت التدابير قد اتخذت مقدما لإجلاء أول دفعة من الجنود المصريين.

٣- إنشاء مجلس من اثني عشر من الوجهاء في الخرطوم.

٤- إطلاق سراح المسجونين العسكريين والمدنيين الذين أوفوا عقوباتهم من زمن ، كأن انتهاء مدة العقوبة ليس مبررا كافيا للإفراج عنهم ، حتى في تلك الظروف التي اشتعلت فيها الثورة !!.

٥- إحراق سجلات الديون على الناس ، وكل أدوات التعذيب في دار الحكومة.

وأبرق غوردون إلى القاهرة : (لا داعي للقلق بشأن هذا الجزء من السودان فالناس كبيرهم وصغيرهم مسرورون من أعماقهم بالتحرر من اتحاد مع مصر لم يجلب لهم إلا الأسى) وأرسل إلى المهدي وفدا يعرض الصلح ، ويعينه أميرا على كردفان ، ولا ينسى الجنرال أن يبعث بهداياه الفخمة إلى عدوه ، جبة من جوخ ، وقفطان حرير ومركوب أحمر وشال كشمير !!.

وكانت هذه الهدايا دليلا فاقعا فاضحا صراحا على غباء الجنرال المنقطع النظير والشبيه ، فهل يترك المجاهد الكبير الجبة المرقعة وحزام الخوص إلى الجوخ والكشمير والمركوب الأحمر !! هل يجاهد في سبيل الله من أجل عرض زائل !! وردت على غوردون هداياه الساذجة ، وإمارة كردفان التي أراد بها مساومة المهدي ، لقد عرض على نبي الهدى (ﷺ) أن يكون على قومه ملكا فأبى ، كما فصلنا ، فهل ترى يقنع المجاهد المهدي بأن يكون أميرا تحت قيادة غوردون !!.

وفشلت مساومة القيادة الإسلامية ، وفكر الجنرال في الزبير باشا فطلب إرساله إلى السودان ، ولكن حكومته رفضت ، فاقترح فتح الطريق بين سواكن

وبربر وإرسال قوات هندية وبريطانية حتى يمكن إخلاء العاصمة ، وحين رفض اقتراحه قدم استقالته في ٩ مارس ١٨٨٤م ، أي بعد أقل من عشرين يوما على وصوله إلى الخرطوم ، وكان هذا تعبيرا بليغا عن فشل الجنرال ، ولكن إنجلترا أمرته بالاستمرار في الخرطوم إذا رأى ذلك ضروريا لإنشاء حكومة وطنية معادية للمهدي أو الانسحاب إلى بربر ، إذا تعذر عليه تحقيق ذلك.

وتعقب مجلة العروة الوثقى على مهمة غوردون : (وكان السودانيون لما تلتئم جراحهم من ظلم غوردون أيام كام حاكما مستبدا عليهم ، وهو في نظرهم أعدى أعداء الإسلام ، فقد طلب ـ أثناء حكمه ـ قسيسا لنشر النصرانية بين مسلميهم ، وهل يسهل عليه إرضاء المهدي ـ بعد ما قام بدعوة عظيمة ـ بمنحه لقب أمير كردفان ، وهل يقنع صاحب هذه الدعوة بمثل هذا اللقب ، بعد ما تسنى له من الفتوحات !! قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدي ووقعها من قلوب المسلمين).

والشيء بالشيء يذكر يا عزيزي القارئ ، فبعد مائة عام تقريبا عرض على مؤسس الجمهورية الإسلامية ١٩٧٩م أن يبقى في مدينة قم على رأس حكومة دينية ، على نسق البابا في الفاتيكان !! وكانت لعبة قديمة ، مكشوفة ومرفوضة ، إن المجاهد لا يخرج ثائر حاملا روحه على كفه طمعا في ألقاب فارغة جوفاء ، تمنحها أو تتكرم بها الجاهلية عليه ، لقد تحرك المجاهد ليطيح بتلك الجاهلية في مزابل التاريخ ، فهل تراه يقبل أن يكون من أمرائها ، فضلا عن أن يقبل وجودها أصلا !!.

على أية حال فقد شق على السودانيين كثيرا أن يؤمر الأشقاء المصريون عليهم هذا الغوردون ، كتب أحد أمراء المهدي إلى اللواء محمد نصحي أحد قادة

الجيش المصري في السودان : (إنه لا يليق بكم أن تجعلوا إمامكم الغوردون الكافر ، وتذكروا عدوان الإنجليز عليكم ، وما جرى لعرابي معهم ، إن الإنجليز أخذوا الملك من الخديوي ، وصيروه جسما بلا روح ، واستلموا مصر ، ونحن وأنتم إخوان في الدين ، ولا عدو لي إلا الكافر).

ويبدو أن الاستكبار العالمي وعى الدرس فاستبدل بالكفار أناسا من بني جلدتنا ليقوموا بقطع الطريق على أدنى تحرك للمسلمين ، فقد كلف شهبور بختيار بالقضاء على ثورة الخميني في إيران ، ليقوم بنفس المهمة التي قام بها غوردون للتعامل مع قائد الثورة الإسلامية في السودان.

الحصار:

فشل محاولات الجنرال لمساومة القيادة الإسلامية والالتفاف حول الثورة ، ففي ٢٢ مارس ١٨٨٤م رفض المهدي عروض الصلح ، وأرسل إلى غوردون يدعوه إلى الإسلام والتسليم ، وكان يريد به خيري الدنيا والآخرة ، ولكن الصلف والغرور قادا هذا الرجل إلى خزي الدارين ، وليسمح لي القارئ الكريم أن أثبت هنا تلك الرسائل المتبادلة بين القيادتين الإسلامية والصليبية ، كتب غوردون :

إلى فخر الأمراء المكرمين ، وقدوة الأولياء الصالحين ، حضرة سيدنا ومولانا السيد محمد أحمد بن عبد الله ، حفظه الله ، آمين.

بعد إهداء السلام ، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم ، نخبر حضرتكم أني قد تعينت واليا على السودان باتفاق كل من الحكومة الخديوية ، ودولة بريطانيا لتسوية حال السودان ، بناء على ما طرأ عليه في السنين الأخيرة من انتشاب الحروب ، وسفك دماء المسلمين ، وقطع الطريق على أبناء السبيل ، الذين يقصدون

التوجه لزيارة قبر النبي (ﷺ) والذين يريدون السعي على معايشهم من التجارة والمتسببين [١] ، وقد شق علينا ذلك كثيرا ، وكما نعلم أن حضرتكم لا يخلصكم [٢] هذا الأمر.

فغاية ما نريده الآن من جنابكم ـ يا حضرة السيد ـ أنه باتفاقنا سويا ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين، وسلوك الطرق ، ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة والمودة ، بحسب ما يرضي الله ورسوله ، وأن تأذنوا وتتكرموا بإطلاق الناس المأسورين عندكم ، من مسلمين ومسيحيين لمناظرة عيالهم والتوصية بهم ، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيرا على صنيع معروفكم معهم.

وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطانا على كردفان فقد أعطيناه لكم لتكون سلطانا وأميرا عليها ، وأريد أن ترسلوا واحدا سفيرا معتمدا من طرفكم لأجل مقابلتنا في الخرطوم ، والتروي فيما هو لازم بيننا ، بخلوص النية وحسن الطوية ، ولأجل إعطائه ما هو لازم من أعمدة وأسلاك البرق ، لتجديد ما سبق إتلافه بواسطة العربان [٣] ، ومداومة المواصلات بيننا ، ومرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة كردفان.

واعلم ـ يا حضرة السيد ـ أني أريد أن أكون معكم بغاية المحبة والمودة ، ولا أقصد إلا كل خير ، ورجائي أن تتكرموا علينا برد الخطاب ، والله الموفق للصواب.

١٦ ربيع الآخر ١٣٠١هـ

غوردون

---

(1) صغار التجار والحرفيين.
(2) لا يرضيكم.
(3) البدو.

ورد المهدي :

الحمد لله الولي الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم ، غوردون باشا ، وصل جوابك إلينا ، وفهمنا ما فيه ، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين ، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي (ﷺ) واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ، وحل المأسورين من النصارى والمسلمين ، وأن تجعلنا سلطانا على كردفان.

فأقول ـ والأمر لله ـ إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم ، وما يقربهم من ربهم وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ، وليعلموا بما يصلحهم في آخرتهم ، وقد كتبت إلى الحكمدارية في الخرطوم وأنا في آبا بدعوتي إلى الحق ، وبأن مهديتي من الله ورسوله ، ولست في ذلك بمحتال ، ولا أريد ملكا ولا مالا ولا جاها ، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر ، وتفخر السلاطين ، لما جلبوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفاني ، وتركوا الباقي ، واشتغلوا بما لا يكون إلا من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ورسوله ، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئا ، وندموا على قدر الذي تنعموا به ، فأيدني الله تعالى بالمهدية لدلالتهم [1] إلى الله تعالى ، وليتركوا العز الفاني ، والنعيم الفاني إلى العز الدائم والنعيم الأبدي في دار النعيم المقيم ، وقد قال المسيح (ﷺ) ابنوا على موج البحر دارا لكم ، فلا تتخذوها قرارا ، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور ، وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا يريدها ، ويكون له في الآخرة شأن.

فأنب إلى الله الباقي ، واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها ، وكيف من يكون على خلاف سنة رسول الله

---

(١) ليدل السلاطين.

(ﷺ)أن يقوم بفتح باب زيارة قبره ، ولم يكن النبي (ﷺ) ممن يرغب فيمن عبد غير الله ، ونسي الله ، وأعرض عن كلامه ، وطلب متاع الحياة الفانية.

فإن كنت شفيقا على المسلمين ، فبالأولى أشفق على نفسك ، وخلصها من سخط خالقها ، وقومها على إتباع دين الحق ، وإتباع سيدنا محمد (ﷺ) الذي أحيا ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين ، وأتى مصدقا لما بين يديه من الكتب ، فجمع الأنبياء (عليهم السلام) لو حضروا ما سلكوا غير ملته ، وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ، وممن حضر بعثته.

فطهر نفسك أولا بالدخول في ملته ، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته ، فعند هذا فأنت الشقيق ، وبغير هذا فمالك من الحق رفيق ، كيف وقد قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [1] إلى أن قال : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [2]) وإننا قد امتثلنا أمر الله ، وما نتخذ وليا إلا الله ورسوله والمؤمنين ، وعلى هذا فقد وعدنا بالغلبة ، كما سمعت من قول الله هذا ، وما دام الله يقول : (هُمُ الْغَالِبُونَ) فلا غلبة لغيرهم.

فإذا رجعت عما أنت عليه ـ من ملة غير الإسلام ـ وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا ، وتكون من إخواننا ، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله ، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات ، فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) ٥١ : المائدة.
(٢) ٥٥ ، ٥٦ المائدة.

وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ [1]).

فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما بيننا وبينكم ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل ، وتكون قد اتبعت بإتباع سيدنا محمد (ﷺ) عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدي ، وإلا حيث علمت ، إن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون ، فاعلم أن حزب الله واصل إليك ، ومزيل لك عما شاركت به الله خالقك ، فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها من يشاء من عبادة الصالحين.

وأما النصارى والمسلمون الذين دعوت إلى إطلاق سراحهم فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله ، وفي دار الأبد ، كما أريده لك ولكافة عباد الله ، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم ، فإن الله أيدني رحمه للعباد لأنقذهم من الهلاك الذي وقعوا فيه.

وقد أيدني الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه ، وقد بشرني النبي (ﷺ) بأن جميع من يلاقيني بعداوة يخذله الله ويهزمه ، فلا تغتر فتهلك ، كما هلك إخوانك ، فافهم وسلم تسلم.

وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير ، فجزاك الله خيرا ، وهداك إلى الصواب ، واعلم أنه كما كتبنا لك أنا نرغب عن متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب ، وها هي عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ، ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدي.

---

(١) ٦٥ ، المائدة.

ثم إن هديتك هذه عندنا كثير ، ولكن أعرضنا عنها طلبا لما عند الله ، وأقول لك في ذلك ، كما قال سليمان لبلقيس : (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ [1]).

واعلم أنك إذا أتيتنا مسلما نربيك فنريك من النور ما يطمئن به قلبك ، ويزول به طمعك في الدنيا والآخرة ، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك ، وإلا هلكت ، وكان عليك إثمك ، ومثل آثام جميع من اتبعك.

ثم كتب المهدي في حاشية الخطاب ما يلي :

باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه ، وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى ، الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات ، طالبا لعالي الدرجات ، وهي جبة ورداء ، وسراويل وعمامة ، وطاقية وحزام وسبحة.

فإن أنبت إلى الله ، وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك ، تتوجه لدائم حظك ، وها هو الرسول الذي أتى منك واصل إليك مع رسل عندنا. أ.هـ.

وبرغم الأدب الشديد في مخاطبة غوردون وشكره على هداياه فإن الجنرال رمى بالثياب التي أرسلها الإمام المهدي ، رمى بها أرضا معلنا في صلف وعجرفة بأنه لن يستسلم أبدا ، مصرا على أن يسير في طريق جهنم إلى منتهاه ، ثم كتب الرد التالي المليء بالبذاءة وسوء الأدب ، حيث يقول :

(١) ٢٦ ، ٢٧ ، النمل.

وصلني كتابك الركيك [1] العبارة ، العاري عن المعني ، الدال على سوء نيتك وخبث طويتك ، وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها ، وتكون أنت المسئول الآن عمن عميت قلوبهم ، وغشيت أبصارهم وبصائرهم ، ويتمت أطفالهم ، وخربت ديارهم.

وكنت لا أرى حاجة إلى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة ، عادم الذمة ، لكني تعلقت بأذيال الأمل ، راجيا من الله (ﷻ) أن تتخلى عن فكرتك الخامدة ، فتلقى النصيحة بيد القبول ، وتعلو متن سلطنة مكنتك منها ، وكان دون نيلها خرط القتاد ، وها أنا مستعد لقدومك ، ومعي رجال أقطع بها أنفاسك ، والعاقل من تدبر ، والسلام... غوردون.

وهكذا ظهر الجنرال على حقيقة ، ظهر أحمق متصلف ، وبرغم هذا كتب له الإمام المهدي :

من العبد المعتصم بمولاه ، محمد المهدي بن عبد الله إلى غوردون باشا ، هداه الله قبل أن يتلاشى آمين.

نعلمك أن جوابك وصل إلينا ، وفهمنا مضمونه ، وقد عذرناك في عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة ، كما طلبنا منك ، وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التي نحن عليها ، وبحسب مقامنا ودلالتنا إلى الله ، وشفقتنا على جميع خلق الله ، حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ، ولازلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل.

فأجب داعي الله ، واغتنم سلامتك من الشر الوبيل ، فقد رأيت ما حل ونزل ،

---

(١) تصور عزيزي القارئ كيف يصف غوردون الأعجمي خطاب المهدي بأنه ركيك ، ولكن إذا لم تستح فقل وافعل ما شئت.

ولازلت ترى ، ولا طاقة لك ولأعوانك بحرب جند الله (ﷺ) وقد ذكرت أن عبد القادر حبيبك [١] ، وتقبل قوله ونصيحته ، وطلبت إرساله إليك فعلى ماذا ؟ هل أنت منيب إلى الله ، وقصدك التسليم لنا على يد المذكور ؟ أما أنت على تصميمك في إعراضك ؟ فأفدنا لنعلم طلبك له ، هو على أي الوجهين ، ونرسله لك إن رأينا في ذلك صلاحا في الدين.

وأقول لك إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك في الدارين فتحل بها إن عقلت ، فإن أراد الله سعادتك ، وقبلت نصحي ، ودخلت في أماننا وضماننا فهو المطلوب ، وإن أردت أن تجتمع مع الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم نوصلك إليهم ، فإلى متى تكذبنا ، وقد رأيت ما رأيت ، وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من في الخرطوم قريبا ، إلا من آمن وسلم ينجيه الله ، ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين ، لأنا قد سمعنا مرارا فيك الخير ، لكن بقدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي إلى خيرك ، كما نسمعه من الواردين والمترددين ، والآن ما يئسنا من خيرك وسعادتك ، وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله ، عسى أن ييسر لنا هدايتك ، وطالما كاتباك لترجع إلى وطنك : (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) [٢]. أ.هـ.

وأراد الجنرال الذي لم يقهر ، ولم يهزم في معركة قط ، أراد أن يجرب حظه مع القوات الإسلامية في الحلفاية شمال شرق الخرطوم ، والتي تقع على النيل ، كان يهدف إلى تخفيف الضغط عن العاصمة ، ومن ثم أنفذ حملة من أربعة آلاف مقاتل ، ولكن الأنصار أوقعوا بهم في يوم ١٦ مارس ١٨٨٤م ، وكانت علقة ساخنة على

---

(١) المنافق سلاطين الذي سمى نفسه عبد القادر.
(٢) ٢٩ ، النساء.

الطريقة المهدية ، ولم يكتف المسلمون بهذا ، بل تقدموا إلى الخرطوم بعد تلك المعركة التي سميت باسم معركة الشرق ، فأصبح غوردون محاصرا من الشمال والجنوب والشرق.

ولكن الموقف في الخرطوم لا يدعو إلى اليأس ، فيها أربعة وثلاثين ألف شخص ، بينهم ثمانية آلاف جندي ، ولعلهم ليسوا أهلا للاعتماد عليهم اعتمادا مطلقا ، بيد أنهم كانوا مسلحين بالبنادق ، ومعهم اثنا عشر مدفعا ، وتسع سفن ، تمكنهم من القتال على النهر ، وفي مخازن الذخيرة مليونا مشط ، كما كانت الترسانة على استعداد لإنتاج أربعين ألف مشط أخرى كل أسبوع ، وكان غوردون يرى في شهر مارس ١٨٨٤م أن لديه أغذية تكفي لسنة أو ستة أشهر ، ولم يكن ثمة مشكلة بخصوص الماء ، نظرا لوجود النيل ، ولقد انخفض ما في الخزانة من أموال إلى بضعة آلاف من الجنيهات ، ولكن الجنرال طبع عمله ورقيه جديدة.

ولم تكن الخرطوم مكانا يستحيل الدفاع عنه ، يحميها النيل الأزرق شمالا ، والنيل الأبيض غربا ، وكان اتساعه - حتى عند انخفاضه - يبلغ نصف الميل ، فإذا حرصت السفن على البقاء في منتصف النهر هان خطر البنادق الإسلامية ، سيما وأن تلك السفن كانت مكسوة بطبقة من الفولاذ.

ووضعت حامية قوية في قلعة أم درمان على الضفة الغربية للنيل الأبيض ، أما الريف المحيط بالعاصمة فقد كان في أيدي قبيلة الشايقية التي ظلت موالية للإنجليز ، وكانت نقطة الضعف الوحيدة في الدفاع عن المدينة هي الجنوب ، حيث المدينة معرضة للصحراء المكشوفة ، فحفر خندق عميق نصف دائري ، طوله أربعة أميال ، بين النيلين الأبيض والأزرق ، وركز الجنرال انتباهه منذ البداية على هذا الجناح الجنوبي ، فبث في الرمال ألغاما بدائية ، مع آلاف من المعوقات الحديدية

والزجاجات المكسورة !! إذ كان أعداؤه حفاة ، وقام بتمويه الاستحكامات المصنوعة من التراب ، بينما أقام خنادق جديدة ، واستحكامات على مسافة أبعد.

وبعد انتهاء شهر مارس تقدم ثلاثون ألفا من القوات الإسلامية لحصار العاصمة ، ولكن الشطر الأكبر من القوات الضاربة ظل موزعا في السودان.

ولم تحدث في أشهر الصيف القائظة أية محاولات لخرق استحكامات المدينة وقنعت قوات الأنصار بمجرد طلقات غير مركزة لإشعار السكان أن مدينتهم محاصرة ولإرهاب المدافعين عنها وخلخلة معنوياتهم ، وكان غوردون كثيرا ما يرسل فرقا للإغارة على الأهلين الآمنين لسرقة الماشية والغلال ونهبها ، بينما كانت سفنه تمضي شمالا إلى بربر ، وحاملو الرسائل يتسللون إلى مصر ، إذ لم تكن هناك حرب بمعنى الكلمة ، ولا سلام.

ولم تكن المجاعة قد دبت بعد ، فلم يفكر في الخروج إلى المهدي كثير من أهل الخرطوم ، واستمرت الحياة اليومية في المدينة في وجوم وانصياع للقدر ، ولكن دون ذعر حقيقي ، وما تصور غوردون أو غيره أن يستمر هذا الموقف دون نهاية ، فإما أن تنجدهم حملة توفد من مصر ، أو يضطروا إلى الاستسلام ،ولكن توقع النجدة كان قويا حتى في تلك الفترة ، وهكذا مرت شهور أبريل ومايو ويونيه دون أن يفقد أحد في الخرطوم الأمل في تحسن موقفهم.

وفي لندن كانت الحكومة تزداد قلقا وسخطا في تلك الأثناء ، وهي تشعر بأنها تعرضت لنوع من التهديد من الحاكم العام ، لكي يفرض خططه ، وكان من الممكن ـ حتى في تلك المرحلة ـ ترك الحاميات المصرية للمهدي ، أما ترك غوردون فكان أمرا آخر ، وكان على الجنرال أن يخرج من السودان ، وأن يترك الحاميات

تدافع عن نفسها ، لكن القوات الإسلامية أغلقت عليه كل السبل ، ففي مايو ١٨٨٤م سقطت بربر في يد الأنصار ، لتتسع الدولة الإسلامية الجديدة إلى منطقة تعادل مساحة فرنسا وأسبانيا وألمانيا مجتمعة.

وفي ٨ أغسطس ١٨٨٤م أعلن في بريطانيا عن إرسال حملة إلى السودان لنجدة غوردون ، واقر البرلمان مبلغ ثلاثمائة جنيه للنفقات ، على رأسها ولسلي صاحب انتصار التل الكبير ضد عرابي في مصر.

وقد وصل ولسلي إلى القاهرة في ٩ سبتمبر ، ثم غادر هو وأركان حربه فندق شبرد إلى وادي حلفا في ٢٧ سبتمبر ، ولكن الحملة لم تصل الخرطوم إلا في يناير من العام التالي ، مما جعلها عديمة القيمة ، فلقد طلب نقل سبعة آلاف جندي ومهماتهم مسافة ألف وخمسمائة ميل داخل الصحراء قرابة خمسة أشهر ، كما كانت نكبة هيكس لم تبرح الأذهان ، ولم تكن الأنباء التي تلقتها الحملة تشير إلى أن غوردون في مأزق خطير ، مما جعل ولسلي يسير بحذر شديد ، دون عجلة حمقاء تودي بجيشه ، ولكن دون إبطاء أيضا.

أما القوات الإسلامية فكان من الواضح أنها ستتبع نفس الخطة التي اتبعت مع الأبيض ، أي بقاء الحصار إلى أن تستسلم المدينة ، وكان على غوردون البقاء واستخدام كل حيلة ممكنة لاستبقاء الروح المعنوية المنهارة لدى القوم ، ولم يكن أمامه سوى الاستسلام ، وهو ما يرفضه تماما.

ولم يحن شهر سبتمبر حتى كان الموقف ازداد حرجا في الخرطوم ، كانت الفرق المغيرة تنهب الماشية والغلال ، مما اضطر القوات الإسلامية إلى علاج هذا الأمر ، ففي ٤ سبتمبر ١٨٨٤م منيت فرقة صغيرة بنكسة خطيرة ، إذ هلك قرابة

الألف من رجالها ، مما جعل غوردون يلتزم جانب الدفاع فقط ، وزاد الحصار إحكاما.

ولكن العامل المدمر حقا كان احتجاب الأنباء ، وشعور القوم بأنهم تركوا لمصيرهم ، فلم يكن ثمة أمل محدد يتطلعون إليه ، وكل يوم يزداد وطأة عن سابقه ، مما اضطر غوردون إلى الاعتراف بأن المدينة ستسقط ما لم تصل النجدة خلال شهر أو اثنين ، لذلك قرر إرسال الباخرة عباس شمالا ، وحمل ربانها رسائل تدعو إلى المبادرة بالنجدة.

وكان اجتياز الباخرة للمناطق التي تسيطر عليها القوات الإسلامية عملية خطيرة ، ولكنها كانت من وجهة نظر غوردون ليست مستحيلة ، فما أن تتجاوز الباخرة معقل المسلمين في بربر حتى يجد رجالها أنفسهم بين قبائل موالية للإنجليز توافق على نقل الرسائل بالإبل إلى كتشنر في القاهرة.

ولم يكن قد بقي مع الجنرال في الخرطوم سوى ثلة صغيرة من الأوربيين ، ستيوارت نائبه في القيادة ، وقناصل ثلاثة فقط ، الإنجليزي والفرنسي والنمسوي ، مع بعض اليونانيين والمصريين.

وكان غوردون ينظر دائما إلى محيط الرمال الشاسع المحدق بالمدينة ، وعليه الفرسان المسلمون والخيام والأكواخ ، والعدو ساجد على الأرض دائما [١] يصلي.

وفي الأسبوع الأخير من سبتمبر كان لدى الجنرال نبأ مؤكد بأن الحملة في طريقها إليه ، فاحتفل بذلك احتفالا هائلا ، فأمرت الحصون بإطلاق المدافع ، ونشرت في الشوارع صور الجنود البريطانيين والهنود في استعراضاتهم ، وعلى وجوههم

(١) يبدو أن منظر الصلاة والسجود كان يغيظ الجنرال !!.

إمارات الظفر والنجاح ، واستؤجرت بيوت على النيل الأزرق للضباط الانجليز القادمين ، وأثيرت ضجة لاستئجار الخدم وشراء الأثاث ، ووقعت عقود مع قصابي المدينة والخبازين لتموين الجيش ، وكانت الأخبار صحيحة تماما ، والحملة في الطريق ، ولكن الطريق طويل شاق يا غوردون العزيز.

وقد وصلت برقيات مشفرة فلم يكن لدى غوردون وسيلة لفك رموزها ، فلم يملك سوى التكهن بمحتوياتها ، بعد إرسال مفتاح الشفرة مع الباخرة عباس ، وأصبحت التكهنات تملأ نصف يومه ، أين تكون عباس ؟ لابد أنها تجاوزت انحناء النيل ، وأين المهدي ، ومتى سيهجم على الخرطوم ؟ يميل الظن إلى أنه يؤثر الانتظار حتى تبدأ مياه النيل في الانخفاض في نهاية العام تقريبا ، هل تصل الحملة إلى الخرطوم قبل ذلك ؟

إن هذا يعتمد على مدى فهم ولسلي لأساليب القتال في الصحراء ، وكانت أفكار غوردون في هذا الصدد واضحة : (لن أستطيع أن أطمئنكم كثيرا إلى أن الحملة لن تصادف أي عدو جدير بأن يسمى عدوا بمعنى الكلمة لدى الأوروبيين ، الصراع الحقيقي صراع مع المناخ والإقفار ، صراع يعتمد على الوقت والصبر ، وعلى جماعات صغيرة من رجال ذوي عزم يساندهم حلفاء من الأهالي ، يكتسبون بالسياسة والمال ، إن جماعات من أربعين أو ستين رجلا تتحرك بسرعة وخفة تفعل أكثر مما تفعله أية كتيبة ضخمة العدد ، فإذا فقدت جماعتين أو ثلاثا فلا بأس ، إنها الحرب ، لكن الحلفاء من الأهالي قبل كل شيء وبأي ثمن ، إنك إذا أطلقت شراذم منفصلة ، تندفع هنا وهناك فستوقع الفوضى في صفوف العدو ، والفجر أو قبله هو وقت الهجوم ، ولكن ستين رجلا يدفعون العدو إلى الفرار قبيل الفجر ، وهو ما لا يستطيعه ألف رجل في النهار ، فإن قوة العدو في فرسانه الذين لا يستطيعون

الهجوم في الظلام ، وآمل ألا تجروا معكم المدفعية ، فهي لن تؤدي إلا إلى التأخير ، ونفعها قليل).

فليذكروا هكس ، بل يحسن أن يتذكروا قمبيز وجيشه ، الذين ابتلعتهم الصحراء ، ولقد كان في يوميات الجنرال حزم وأمل ، ولكن مزاجه بدأ يتغير بانتهاء سبتمبر وقدوم أكتوبر ١٨٨٤م ، وكان لا يفتأ يتساءل عما أصاب عباس ، ويشعر بالقلق على بواخره المسلحة ، الشرايين الوحيدة التي كانت تربطه بالعالم الخارجي ويعلل نفسه بأنه قد يبحر على إحداها جنوبا في النيل الأبيض إلى جوف إفريقية الوسطى ، وينفض يده من لندن وسياستها القائمة على الرياء ، ومنتدياتها وحفلات عشائها البشعة.

وقال الجنرال : (إنه يؤثر أن يعيش كأبناء القبائل مع المهدي ، على أن يخرج إلى مأدبة عشاء في لندن كل ليلة) وأضاف : (من بواعث اغتباطي أنني غير ملزم البتة بأن أرى بريطانيا [1] ثانية ، إنني آمل أن أخرج من هذه المحنة فأذهب إلى الكنغو عن طريق مديرية خط الاستواء أو بروكسل ، بشرط أن يسمح للحامية بالعودة إلى مصر ، دون أذى) ومن ناحية أخر لم يعتزم التسليم إطلاقا ، فهذا مسألة تتعلق - في رأيه - بالشرف القومي.

وفي أواسط أكتوبر دب النشاط فجأة ، إذ علمت السرايا أن فريقا من ستة عشر رجلا من كبراء المدينة كانوا يتأهبون للقيام بثورة للانضمام إلى المهدي ، وقبض غوردون عليهم ، وهو حائر أشد الحيرة ، فهل هذه الاعتقالات عمل صائب ؟ وتساءل الجنرال : لو قدر لي أن أتأكد أن الأغلبية تود الذهاب إلى المهدي لدبرت أموري ، فإن ذهابهم يتيح لي ارتياحا هائلا ، فهل يريد عامة الشعب ذلك ؟ لم يكن

(١) وصح توقع الجنرال فلم ير بلاده مرة أخرى.

بوسع أحد أن يجيب ، كان الجوع قد بدأ يشتد في المدينـة ، فلا أحد يفكر في غير القوت ، وقد هدم الحصار الطويل قدرتهم على أن يبتوا في شيء ، ولكن الجنرال بقي على عناده.

وفي ١٦ أكتوبر كتب غوردون : (وصلت خطابات سلاطين ، وليس لي تعليق عليها ، ولا أدري لماذا كتبها ؟) وكان المنافق سلاطين يوضح موقفه من تظاهره بالإسلام ويعرض خدماته على الجنرال ، ولكنه ازدراه واحتقره.

على أنه بدا له فيما بعد إمكانية الاستفادة من هذا السلاطين فعرض أن يفتديه ومن معه من الأوروبيين بعشرة آلاف جنيه ذهبي ، ولكنه لم يتلق ردا ، فقد ظهرت مسألة أكثر إزعاجا ، إذ ذكر سلاطين في رسالة له أن عباس قد أسرت في بربر ، وأعدم ستيوارت ومن معه ، وكان غودرون قد سمع بنبأ كهذا من مصدر آخر ولكنه يعترف في ٢١ أكتوبر : (إنني قلق جدا على عباس ، فلو صح أنها أسرت لكان هذا أمرا فظيعا).

وقطعت جهينة قول كل خطيب ، إذ وصلت رسالة من المهدي نفسه في ٢٢ أكتوبر يؤكد أسره عباس ، ومقتل القنصلين البريطاني والفرنسي وغيرهم ممن رفضوا الإسلام ، وتبع ذلك قائمة طويلة ووصف دقيق لكافة الوثائق : يوميات ستيوارت ـ الشفرة ـ النداءان الموجهان للبابا في روما وللسلطان في اسطنبول ـ التقارير المشتملة على تفاصيل كميات الأغذية والذخائر الباقية في الخرطوم ـ نسخ البرقيات التي تبودلت بين القاهرة وغوردون ـ إحصاء للجنود الباقين في الحامية وأسلحتهم والرسائل التي تكرر فيها طلب النجدة.

وأضاف المهدي : (ولقد فهمنا هذه الرسائل جميعا) ثم دعا غوردون مرة أخرى للتسليم قبل فوات الأوان ، لأنك إذا سلمت بعد بدء المعركة فلن يكون ذلك إلا

خوفا ، ولن نقبل ، كما أرفقت رسالة قائد المهدي في الجنوب كشف عن سقوط مديرية بحر الغزال ، كما وصلت رسالة من كتشنر تؤكد هي الأخرى الأنباء الفاجعة فأحس الجنرال أن لغة الرصاص لا مفر منها.

وزحف المهدي في ٢١ أكتوبر ١٨٨٤م على الخرطوم بقوات ضاربة ، وقد شجعته المعلومات التي استقاها من وثائق عباس ، واستقر في معسكرين ملاصقين لأم درمان ، على الضفة الغربية للنيل معلنا عن عزمه على مهاجمة الخرطوم في رسالة إلى غوردون جاء فيها : (لقد أشفقت على بعض رجالي ، وسمحت لهم بالاستشهاد لينالوا الجنة).

وبدأت المرحلة النهائية للحصار ، وأحصى غوردون فرصه ، فلم يكن قلقا بشأن الذخيرة ، إذ ظلت الترسانة تنتج حوالي أربعين ألف مشط أسبوعيا ، ولكن مشكلة الطعام كانت ملحة ، وكتب الجنرال : (إذا لم يصلوا قبل ٣٠ نوفمبر ١٨٨٤م فسينتهي الأمر).

ويترك غوردون التفكير في مصيره وحصاره ليفكر في الحكومة المقبلة ، كان الزبير - في نظره - خير حل ، فليعين حاكما عاما ، ويترك إلى الجنرال مديرية خط الاستواء ، وإلا فليدخل الأتراك السودان ويحكموه ، أو يبحثوا عن رجل كفء آخر ، يقبل حكم السودان بمعونة مالية من مصر ، وخطرت له فكرة جديدة ، لماذا لا يعين ذلك الشاب كتشنر ؟ صحيح أن عمليات مخابراته كانت مرتبكة ، فما من واحد من حملة رسائله تقريبا وصل إلى الخرطوم ، ولقد أرسل غوردون إلى كتشنر نفسه رسالة فيها هذا الاقتراح.

وفكر الجنرال في الانتحار ، وبث المتفجرات تحت السراي لينسفها وهو بداخلها ، ولكنه نبذ الفكرة ، لأنها تتعارض مع الإيمان بالله ، الذي يحيي ويميت ، لا

يشاركه في ذلك أحد.

وأصبح غوردون يطيل فترة بقائه على سطح السراي يوما بعد يوم حيث يرى كل ركن في قلعته حتى حصن أم درمان ، على الضفة المقابلة للنهر ، وحيث الجند يرونه ، وكان لهذا أهمية كبيرة فقد كان يقول لنفسه : إنه لم يكن من سبيل لإصلاح هؤلاء الجنود ، فما لم يوقنوا أن عينه عليهم فإن الحراس كانوا ينامون في أماكنهم والأوامر تنسى ، وكل امرئ يكذب ، أما خدم السراي فلا تملك أن تفيد منهم إنهم يأكلون أو يصلون أو ينامون ، أو يرقدون مرضى ، ولابد أن تكون فظا لتستفيد منهم ، وأخشى أنني هكذا كثيرا ، فقد ترغب في أمر عاجل فإذا خادمك يقب [1] ويغطس ، ولا تملك أن تزعجه ، ما أجملها من بلاد لاختبار صبرك ، والعجب حقا أن خدمي يكونون دائما في صلاة عندما أكون سيء المزاج ، وهي حالتي في كثير من الحالات والأوقات ، وهكذا تتبع الصلاة تطور مزاجي ، ولو كان صافيا لكانوا وثنيين !!).

ولم تختبر صبرك يا جنرال ؟ ألم تسأل نفسك ما الذي جاء بك إلى هذه البلاد ؟ ولماذا تعكر الصلاة مزاجك ؟ ترى لو كانت صلاة كصلاتك أكانت تثير مزاجك إلى هذا الحد ؟ لماذا لا تعترف يا بطل الأبطال أن صلاة محمد تغيظك ؟ ومالك وهؤلاء القوم وهذه البلاد ؟ هل أحسست أنك جئت لتقابل ملك الموت ، فالقرآن يقول : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ [2] تَمُوتُ).

ولم يحن الثاني عشر من نوفمبر حتى كانت القوات الإسلامية قد نصبت مدافعها التي غنمتها من هيكس ، وبدأت في قصف الخرطوم ، مما كان له أثر كبير في تثبيط المحاصرين ، الذين أصبحوا يعانون من سوء التغذية ، وسرعان ما بدأت

---

(١) يرتفع وينخفض ، أي يصلي ، يركع ويسجد ثم يقوم منهما.
(٢) ٣٤ ، لقمان.

الأحداث في العاصمة تنذر بالشر فإن واحدة من خير البواخر جنحت تحت النيران الإسلامية ، فلم يعد بد من يتركها.

وفي الوقت نفسه أحاطت قوات المهدي بحصن أم درمان ، وعزلته عن الخرطوم والنهر ، وظل غوردون قادرا على التخاطب مع قائد الحصن المصري بواسطة البوق ، ولكن القوات الإسلامية لديها هي الأخرى نافخ بوق على معرفة بالإشارات ، فما كان بوق غوردون ينطلق من سطح السراي بالنداء : (تعالوا إلينا) كان الرد يأتيه من معسكر المهدي هازئا : (تعالوا إلينا) لم يكن ثمة أمل لحصن أم درمان على أية حال ، ولكن الجنرال كان يرى أن الحملة يمكن أن تنقذه ، إذا وصلت في وقت مناسب.

وفي أوائل نوفمبر استردت شحنة كبيرة من الغلال ، كانت مسروقة وهربها تجار الخرطوم ، مما أتاح للحامية نجدة مؤقتة ، ولكن غوردون لم يلبث في ٣١ ديسمبر أن قدر أن المدينة لم تعد قادرة على الصمود أكثر من عشرة أيام ، وأصبح كلما خرج من السراي التف حوله حشد من النساء صائحات يطلبن الغذاء.

وأخذت القذائف الإسلامية من المدافع والبنادق تشتد وطأة يوما بعد يوم ، وكان لدى المهدي مدفع مصوب نحو سراي غوردون ، فكانت قذائفه ترتطم بعنف في الجدران الحجرية السميكة لتحرم الجنرال من النوم والراحة ولتنهار أعصابه ، ويفقد صوابه.

استطاع غوردون استبقاء مصنع السفن ماضيا في العمل بطريق ما ، وفعلا صنع مهندسوه باخرة جديدة تحل محل تلك التي فقدت ، وأراد بعض المنافقين أن يسموها باسمه ، ولكنه قال : (لقد سجنت معظمكم أو ظلمتكم ، فلست أخشى أن تنسوني)

وأطلق على السفينة الجديدة اسم الزبير ، فقد كان بوسع الجنرال من آن لآخر أن يهرج ويمزح من فرط غيظه ، ولكن وطأة القلق الرهيب لا تلبث أن تعاوده : (لا يوجد شخص أستطيع أن أركن إليه ، لقد سئمت حياتي ، فهي قلق مستمر نهارا وليلا ، وليلا ونهارا).

وكان النهر قد بدأ ينخفض فإذا الضفاف التي بدأت تجف تقرب القوات الإسلامية إلى المدينة ، كتب غوردون في ١٣ ديسمبر : (الآن افهموا هذا ، إذا لم تأت الحملة العسكرية - ولست أطلب أكثر من مائتي رجل - في عشرة أيام فإن الخرطوم قد تسقط ، وقد بذلت وسعي من أجل شرف بلادي ، وداعا).

وكان هذه آخر مذكرة تقريبا وصلت من الجنرال ، فحزم أوراقه ويومياته وأوراق البرقيات وقصاصات الورق المشمع والخرائط الصغيرة التي كان قد خططها والرسوم التي رسمها بالريشة والمداد ، وخاطها جميعا في قطعة قماش ، وكتب على الغلاف: (أحداث الخرطوم ، يوميات الجنرال غوردون ، لا أسرار فيها تتعلق بي ، وتفتح إذا أتيح لها النشر).

وأسلمت الطرد إلى ربان السفينة بردين ، وفي ١٥ ديسمبر أقلعت السفينة تحت نيران المهدي الكثيفة إلى متمة.

أما حملة ولسلي التي كانت تسرع الخطى لإنقاذ غوردون فلم ينته ديسمبر ١٨٨٤م حتى كانت طليعة الحملة قد بلغت كورتي على منحني النيل جنوب دنقلة ، وأصبحت في موقف يمكنها من الشروع في زحف نهائي نحو الخرطوم ، وتقرر انتهاج الخطة التي اقترحها غوردون ، فتمضي كتيبة في النيل عبر انحنائه إلى الشرق ، مجتازة أبا حامد وبربر ، في حين تسير كتيبة أخرى عبر الصحراء مباشرة على متمة حيث بواخر غوردون في انتظاره.

ولنترك الحملة لتعود إلى الخرطوم ففي نهاية هذا العام ١٨٨٤م أوشكت مئونة الذرة أن تنفد تماما ، وسرعان ما أكل القوم كل حيوان حي ، من حمير وكلاب وقرود ، بل وفئران !! وكان معظم النساء قد بعن حليهن في سبيل الطعام ، لم يبق للعسكريين والمدنيين - على السواء - سوى ألياف النخيل ، ونوع من الصمغ يحتوي على قدر ضئيل من المادة الغذائية ، ويسبب مغصا عنيفا لبضع ساعات بعد أكله ، وأرسل إلى المهدي خمسة آلاف من المدنيين مع رسالة من غوردون يرجوه فيها أن يرحمهم.

ولكن المجاعة تستبد وتحتد فإذا الموتى ملقون في الشوارع بينما الأحياء أضعف من أن يدفنوهم ، وكان الجنود يقفون على الاستحكامات كأنهم خشب مسنده يؤدون أعمالهم في شرود ذاهل ، لا يكادون يعرفون ما يفعلون.

وفي ٥ يناير ١٨٨٥م أطلق قائد حصن أم درمان رسالة بالإشارات بأنه لم يعد قادرا على الصمود فاضطر غوردون إلى الموافقة على استسلامه ، وأصبحت القوات الإسلامية تطبق على الخرطوم من كل جانب.

إلا أن غوردون أشاع أن رسلا وصلوا من الحملة ، وأنها توشك أن تصل في اليوم التالي ، أو الذي يليه ، ووعد الجنود بمرتب عام عن كل يوم يصمدونه ، وشغل عمال الأحواض بإعداد مراسي للباخرتين القادمتين ، ولكن المدينة أصبحت تحت قصف مستمر ليل نهار ، ولم ينتصف شهر يناير حتى أخذ الجنود المصريون والسودانيون ينضمون إلى القوات الإسلامية.

وفي العشرين من يناير فزعت الحامية المصرية لصوت (١٠١) طلقة من معسكرات المهدي ، واتجه الظن إلى أنهم كانوا يحتفلون بانتصارهم على الحملة

القادمة ، ولقد كانت هذه الطلقات بالفعل تحية للشهداء في معركة أبي كلية ، وحين أبصر غوردون بمنظاره المقرب المسلمات ـ على الضفة المقابلة ـ يبكين الشهداء انتشى وانتفخ ، واتخذ من هذا ذريعة لتبشير المدينة بأن النجدة في الطريق.

ولكنه كان يؤمن في قرارة نفسه أن المدينة ستسقط ؛ ولذا قام ـ دون أن يشعر أحد ـ ببث الألغام في الترسانة لتنسف إذا سقطت المدينة ، وأمرت الباخرة الإسماعيلية التي كانت ترسو أسفل السراي أن تذهب لحمل أكبر عدد ممكن من الركاب ، وعند إشارة معينة تنطلق بهم نحو الجنوب في النيل الأبيض ، وكانت فكرة فجة ركيكة ، فهل تستطيع الباخرة الهرب من القوات الإسلامية في الجنوب أو الشمال !! إنه أمر مستحيل ، ولكنها حيل اليائسين وفكرهم ، التي تنطلق من أعصاب مهزوزة وعقول مرتبكة.

وأطلق غوردون من جعبته حيلة أخيرة ، فاستدعى فريقا من كبار المسئولين في المدينة وأخبرهم عن طريق سكرتيره بأن يستعدوا لاستقبال الحملة القادمة ، ولم يشأ الجنرال مواجهة المسئولين لفرط انفعاله ، فقد رأى أن منظر قنوطه سيثبط العزائم ، وكان الحصار قد شيَّب شعره تدريجيا ، ولكن تلك الحيلة الأخيرة قد باءت بالفشل.

ثم لاحظ غوردون حركة كبيرة في الجنوب ، وكأنما قوات المهدي تحتشد في كلا كلا أحد الحصون المشرفة على الخندق ، جنوب المدينة ، فاستدعى المسئولين مرة أخرى ، وأخبرهم عن طريق السكرتير أيضا أنه لاحظ حركة شديدة في خطوط العدو ، ويعتقد أن هجوما يوشك أن يشن على المدينة ؛ ولذا علينا أن نجمع كل ذكر في المدينة من الثامنة حتى الشيخوخة ، ونصطف بمحاذاة الاستحكامات ، فإذا لقينا صعوبة في تنفيذ هذا الأمر ، فلنستخدم القوة ، وذكر أن الجنرال يهيب بنا للمرة

الأخيرة أن نصمد ؛ لأنه لم يكن يشك في أن الإنجليز سيصلون خلال أربع وعشرين ساعة ، أما إذا آثرنا الاستسلام فقد أبلغ القائد أن تفتح أبواب المدينة ليخرج المهدي من يريد.

ونعود مرة أخرى إلى ولسلي الذي رفضت حكومته أن يقود طليعة الحملة حتى لا يلحق بهيكس وغيره فبقي في دنقلة ليجمع قواته ، فلم يكن لديه مبرر للعجلة اليائسة ، ففي ٣ ديسمبر وفد على كورتي أحد رسل غوردون يحمل رسالة على قصاصة بحجم طابع البريد ، جاء فيها : (الخرطوم بخير ، ١٢ - ١٢ - ١٨٨٤م س.ح. غوردون) على أن الرسول قال : (إنه أمر بأن يذكر شفويا أن المؤن في الخرطوم كانت تتناقص بسرعة ، وعلى الحملة أن تصل بأسرع ما يمكن) وجدير بالذكر أن أحدا لم يكن اطلع على آخر دفعة من يوميات غوردون التي حملتها الباخرة بردين في متمة.

وبدأ هربرت ستيورات [1] زحفه عبر الصحراء مباشرة من كورتي إلى المتمة في صباح ٣٠ ديسمبر مع مائة جندي بريطاني فوصلوا آبار جقدول على بعد ثمانية وتسعين ميلا ثم عاد إلى كوتي وحده لإحضار دفعة أخرى من ١٦٠٠ رجل فالتأم شكل الكتيبة كلها ، واستؤنف الزحف في ١٣ يناير ١٨٨٥م ، وبعد ثلاثة أيام توقفت الكتيبة فقد كانت قوة إسلامية تكمن لهم في الطريق ، وقد استعدت للمعركة فضربت خيامها حول آبار أبي كلية.

أما هربرت ستيورات فقد أقام في معسكره في الخلاء على بعد ثلاثة أميال ونصف ، وفي صباح ١٧ يناير تقدم للهجوم فانقض عليه الفرسان المسلمون بكل ضراوة فنجحوا في النفاذ خلال الصفوف البريطانية ، حيث دار القتال عنيفا متلاحما

---

(١) هو غير ستيوارت نائب غوردون الذي قتل على الباخرة عباس في بربر.

يدا بيد بين الإبل ، ونجا ستيوارت هذه المرة ، ولكنه فقد نائبه بيرنابي الذي قتل في المعركة ، ومعه مائتا بريطاني ، وتراجعت القوات الإسلامية لتتقدم الكتيبة نحو متمة على بعد ثلاثة وعشرين ميلا ، فما أن انبثق فجر التاسع عشر من يناير حتى لاح النيل ، بيد أن المسلمين كانوا يسدون كل الطرق المؤدية إلى النهر.

ومرة أخرى فاجأتهم القوات الإسلامية ، فشنت هجومها خلال الأشجار والأعشاب الكثيفة ، بعد أن حرموا الجنود البريطانيين من النوم ثمان وأربعين ساعة فظفر المسلمون بالقائد نفسه ، هربرت ستيوارت ، وأصابوا ١١٠ من الكفار بين قتيل وجريح ، فآلت قيادة الكتيبة إلى تشارلز ويلسون، الذي كان من ضباط المخابرات ولم يسبق له أن قاد جنودا في معركة.

وبلغ ويلسون ضفة النهر إلى الشمال قليلا من المتمة ، وفي صباح ٢١ يناير ظهرت أربع بواخر من بواخر غوردون ، وفضت اليوميات مع خطاب بتاريخ ١٤ ديسمبر أعلن فيه غوردون أنه كان يتوقع سقوط الخرطوم بعد عشرة أيام ، ثم وصل نبأ آخر جاء فيه : (الخرطوم بخير نستطيع الصمود أعواما ، س. ح. غوردون ٢٩/١٢/١٨٨٤م).

وقد اتضح فيما بعد أن الجنرال أراد خداع القوات الإسلامية إذا وقعت الرسالة في أيديها ، ولم يخدع إلا نفسه ، ولم يضر إلا نفسه ، على أية حال فإن ويلسون أدرك أن الخرطوم كانت في أقسى الظروف طيلة الأسابيع الأخيرة فاندفع دون تلكؤ ، إلا أنه بقي ثلاثة أيام لإصلاح محركات البواخر ، وإجراء عملية استطلاع على طول النهر ، وفي ٢٤ يناير تقدم الجنود على الباخرة بردين وتبعتها تل حوين ، وهي تجر مقطورة ، عليها حمولة ثقيلة من الذرة.

وكان النيل قد هبط كثيرا ، فلاقت القافلة النهرية الصغيرة المتاعب على الفور ، ففي اليوم التالي لإبحار القافلة ارتطمت بردين بصخرة عند الشلال السادس فلم تستطع الباخرتان استئناف السير قبل صباح ٢٧ يناير ١٨٨٥م.

الفتح :

كان عبد الرحمن النجومي يقود الجيش الإسلامي الذي يحاصر الخرطوم ، فلما استبطأ المهدي فتحها تحرك بنفسه من الأبيض بجيش جرار لفتحها عنوة ، فحل بأبي سعد في أكتوبر ١٨٨٤م ، وقد بلغ جيشه الستين ألفا فقط !! وبقي يستعد للحرب حتى المحرم ١٣٠٢هـ - نوفمبر ١٨٨٢م لأنه - فيما قيل - لا يريد الحرب في شهر المحرم.

وحاول غوردون أن يفك الحصار عن الخرطوم لجلب القوت ، فخرجت قوة من الحامية أول يناير ١٨٨٥م ، ولكنها ارتدت منهزمة ، بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، وخرجت قوة أخرى في ٣ يناير ، لكن الحصار اشتد واستبد واستحكم ، ونفد الزاد تماما.

يقول مورهيد : (وكان المهدي وأمراؤه يدركون تماما ما يجري في الخرطوم وأخذ الهاربون يحملون إليهم آخر أنباء محنتها كل يوم ، وبرغم هذا كان المهدي مترددا ، كان لديه خوف بالغ من الإنجليز ، ويؤكد أورفالدر أن ظهور عشرين جنديا إنجليزيا في الخرطوم كان كافيا لنسف عزمه ، وعندما بلغت هزيمة أبي كلية أم درمان ساد معسكر البدو شيء يشبه الذعر ، وكان المهدي يحبذ التراجع فورا إلى كردفان !!! إلا أن الأمراء أشاروا عليه بأنه خير لحظة للهجوم قد حانت).

ولا مجال للرد على مزاعم مورهيد أو أرفالدر من خوف المهدي من الجنود الإنجليز ، فإن واقع الحال الذي شهد به مورهيد نفسه دليل على شجاعة المسلمين الفائقة ، أما تأخير الهجوم على المدينة فهو شيء طبيعي يتسق مع أسلوب المهدي الذي يحاصر المدينة حتى تسقط ، دون إراقة للدماء ، كما فعل مع الأبيض ، ولكن

هذا الغوردون كان شديد العناد والصلف ، ولذا اضطرت القوات الإسلامية إلى اقتحام المدينة ، وقد شجعها على ذلك عوامل ثلاثة هي :

١- أسر الباخرة عباس.

٢- استسلام أم درمان.

٣- ثغرة في الخندق.

أولا : أسر الباخرة عباس :

أشرنا إلى هذا الموضوع قبل ذلك ، ورأينا هلع غوردون وخوفه مما حدث لعباس ، ولا بأس من أن نذكر هنا بعض التفاصيل :

حين اشتد الحصار على غوردون أراد استعجال المدد وشرح الحالة في الخرطوم ، وما أن علم أن عباس ستبحر حتى انهالت على السراي طلبات للإذن بمرافقتها ، وكان القنصل الفرنسي أول المتقدمين ، فقد انقض على الفرصة ، لعله يتمكن من حمل حكومته على التحرك.

ثم عرض ستيوارت أن يذهب بشرط أن يبرئه غوردون من تهمة التخلي عن الواجب ، فأخبره بأنه لا يأمره بالذهاب على سبيل الأمر ، إذ كانت الرحلة تنطوي على كثير من الأخطار ، ولكنه على استعداد لإعطائه خطابا رسميا ، يوضح أن رحيله ليس فيه تخل عن الواجب ، فقد كان بوسعه أن يؤدي خدمة قيمة بشرح الموقف على حقيقته ، وتوجيه نداء شخصي إلى الدول الأوروبية ، فقد خطر له أنه إذا لم يكن بوسع بريطانيا أن تساعد فلعل غيرها تستطيع ، وكتب نداء إلى البابا وآخر للسلطان العثماني في استنبول.

وأما النداء إلى البابا ، والاستنجاد به أو استعداؤه على المهدي ودولته ، فلا

غضاضة ، ولا غرابة ، ولكن نداء السلطان في حاضرة الخلافة العثمانية يبدو شديد الخبث والغرابة ، فكيف تستعدي مسلما على أخيه !! إنه دأب الكفار دائما ، بث الفرقة بين الإخوة في العقيدة الواحدة ، إنهم لا يتورعون عن استخدام أموال المسلمين وجهودهم ودمائهم وأرواحهم لحرب الإسلام والكيد له والقضاء على القيادة الإسلامية الصحيحة.

لقد سخرت بريطانيا أموال المصريين وأرواحهم وجهودهم المستميتة للقضاء على الثورة المهدية ، بل حاولت استدراج الخلافة العثمانية كما سنرى ، وما أمر الحرب في الخليج منا ببعيد ، حيث تستخدم الأموال والدماء الإسلامية لضرب الإسلام والكيد له ، والمستفيد من ذلك كله والمحرك له ليس إلا الدول المستكبرة الكافرة وعلى رأسها أمريكا.

بل إن هذه الدول لا تتورع عن زرع الفرقة داخل بلاد المسلمين نفسها حيث تعمل على دق الأسافين بين الشعوب والنظم والحاكمة ، فتصور لتلك النظم أخطارا وهمية بأن الشعوب هي العدو اللدود ، أو هي العدو فقط ، إلا من نافق من الناس وداهن ، فإذا ما استنفدت النظم الحاكمة أغراضها رُكلت بالنعال.

ونعود إلى حكاية عباس فنقول : إن القنصل البريطاني ما لبث أن انضم إلى الراحلين ، وقد كان من الأخطاء الفادحة للجنرال غوردون إرسال الشفرة التي كانت تستخدم في الرسائل الرسمية القادمة من مصر ، وقال الجنرال : (إنه أرسلها خشية أن تقع في يد المهدي) وهذا تبرير واهٍ ، إذ أنها وقعت في يد المهدي فعلا ، وكان الحل الأمثل والأسلم أن تعدم تلك الشفرة إذا أريد لها ألا تقع في يد الأعداء يا جنرال.

وكان غوردون يود لو رحل القنصل النمسوي كذلك ، إذ لم يكن يحبه ، فقد

أثار اشمئزازه عند وصول الخرطوم أول مرة عندما ألقى بنفسه وسط الراقصات العاريات في مأدبة رسمية ، وقد بقي الرجل لأن له ممتلكات ومصالح تجارية كثيرة في الخرطوم.

وأعد كل شيء للرحيل في ١٠ سبتمبر ١٨٨٤م فصعد ستيوارت والقنصلان إلى الباخرة عباس مع ثلة من اليونانيين ، وجنود للحراسة ، ترافقهم باخرتان أخريان للحراسة ، وكان ربان السفينة من أكثر الناس خبرة بالملاحة النهرية ، وقد أوصى بألا يجمع الخشب لوقود آلات السفينة إلا من الأماكن المهجورة ، خارج أراضي القبائل المعادية ، وراقبهم غوردون وهم يخترقون طلقات البنادق الإسلامية خارج حدود المدينة.

وسارت عباس إلى أن وصلت إلى شلال [1] ود قمر ، فرست على جزيرة صغيرة تجاه قرية هبة حيث أسر الركاب جميعا ، ثم قتل من رفض الإسلام منهم ، كما حصلت القيادة الإسلامية على معلومات ثمينة عن الخرطوم وما فيها ومن فيها ، وأصيبت الروح المعنوية في المدينة بضربة قاصمة ، وهكذا هرب ركاب عباس من قدر الله إلى قدر الله ، هربوا من غضب القوات الإسلامية المحاصرة للخرطوم إلى القوات الإسلامية في بربر ، فأسر من أسر ، وهلك من هلك.

ثانيا : استسلام أم درمان :

في الخامس من يناير ١٨٨٥م طلب قائد حصن أم درمان من غوردون الإذن بالتسليم لأنه لم يعد قادرا على الصمود ، فأجيب إلى طلبه ، وبذا أصبحت الخرطوم محاصرة من جميع الجهات حصارا محكما ، ولم يكن أمامها إلا التسليم ، ومن ثم

---

(١) في بربر.

أرسل المهدي إلى غوردون في اليوم التالي ينصحه بالتسليم ، فلا أمل في وصول المدد إليه ، وأعاد الطلب في ٧ يناير ، ودب اليأس في قلوب الجنود والأهلين لتوقعهم اقتحام الثوار لخطوط الدفاع فضلا عن اشتداد المجاعة ، ولكنه ظل عنيدا رافضا للتعقل والحكمة.

ثالثا : ثغرة في الخندق :

إزاء عناد غوردون كان لابد من اقتحام المدينة ولكن الماء يحيطها من جميع الجوانب ، ويشكل دفاعا جيدا عنها ، إلا أن طمي النيل المترسب قد غطى جزءا من الخندق من جنوب المدينة ، وكان الجنود أضعف من أن يقيموا استحكامات جديدة ، وكان هذا الجزء من الخندق هو الثغرة التي شجعت القوات الإسلامية على اقتحام الخرطوم.

وفي المعسكر الإسلامي ظل مجلس الحرب منعقدا طيلة الأسبوع الثالث من يناير يقلب الأمور ويزنها ليصل إلى القرار الصائب ، دون عجلة أو تهور ، وفي الخامس والعشرين من نفس اليوم الذي حث فيه الجنرال جنوده لآخر مرة ، في حين كان ولسون يحاول اجتياز الشلال السادس على ظهر السفينة بردين ، تقرر شن الهجوم على الخرطوم في الساعات الأولى من الصباح التالي ٢٦ يناير ١٨٨٥م.

وأقبل اليوم الموعود ، وأمر الجنرال أن تعزف موسيقى الجيش ، وكأنما أحس بدنو أجله ، فأراد أن يسمع نشيد الوداع ، وفي الساعات الأولى لصباح التاسع من ربيع الآخر ١٣٠٢هـ - ٢٦ يناير ١٨٨٥م اندفعت الجحافل الإسلامية المتعطشة للشهادة تعبر النيل ، لا تخاف الموت ، بل تتسابق للقاء ربها ، شعارها : (واطرباه ، غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه) وقد ذكرهم القائد العظيم في خطابه بأن الجنة أمامهم إذا نالوا الشهادة في سبيل الله.

وفي سكون زحف حوالي خمسين ألفا من المسلمين على الاستحكامات مركزين قوتهم على البقعة التي ملأ فيها الطمي الخندق ، فكانت حافة من اليابسة تمهد طريقا إلى المدينة ، وفي الساعة الثالثة من صباح السادس والعشرين من يناير استيقظت المدينة على صراخ أهوج عند خطوط الدفاع وضجيج طلقات البنادق والمدافع.

واندفع جند الإسلام صائحين : (إلى الكنيسة ، إلى السراي) ثم ساد الهرج كل شيء ، ويبدو أن القوات المهاجمة لم تعط المدينة أية فرصة للمقاومة ، فإن المفاجأة المباغتة قد شلت الحامية عن فعل أي شيء على الإطلاق ، فقبل تنظيم أية مقاومة كانت الشوارع قد امتلأت بسيل من القوات الإسلامية المهللة المكبرة فاكتسحت من طريقها كل من فكر في مقاومتها.

وكان بين السراي والثغرة التي اندفع منها المسلمون أقل من ثلاثة أميال ، وقبل أن يظهر نور النهار اندفعت الطليعة المؤمنة إلى فناء السراي فاستيقظ غوردون الذي لم ينم أكثر من ساعتين أو ثلاث على أصوات المعركة ، فأسرع على السطح بثياب النوم لاستجلاء الأمر ، فشرع من فوره - في ضوء الفجر - يطلق المدفع على آلاف المسلمين المتدافعين إلى السراي ، حتى عجز عن إمالة المدفع إلى زاوية تمكنه من صد المهاجمين عن المبنى ، عندها هبط إلى حجرته ، وارتدى بزته الرسمية البيضاء ، وتناول مسدسا وسيفا ، فوقف على رأس السلم ، ويسراه على مقبض سيفه ، وفي تلك الأثناء كان الجنود مترددين خشية أن تكون السرايا ملغمة ، فقد أشرنا أن الجنرال فكر في الانتحار ، وبث الألغام فعلا ، ولكن عدل عن الفكرة ، وكانت القوات الإسلامية على علم - فيما يبدو - بتلك المحاولة.

ولكن أربعة من أجرأ الجنود ما لبثوا أن اندفعوا ، فإذا الكل في أثرهم ،

وانطلق بعضهم إلى حراس السراي فذبحوهم عن آخرهم ، وأسرع البعض الآخر يصعدون إلى غوردون الذي صاح فيهم (أين محمد أحمد ؟!) وكان الرد (يا معلمون حان يومك) وقذف أحد المهاجمين بحربته لتستقر في صدر الجنرال غوردون ، فيسقط القائد الذي لا يقهر مضرجا بدمائه على سلم القصر ، وقبل أن تشرق الشمس غادرت الروح الخرطوم إلى مثواها الأخير.

وقد أسف المهدي لهلاك الجنرال إذ كان يأمل له الهداية باعتناق الإسلام ، أو يفتدى به أحمد عرابي باشا ، فقد أصدر الأوامر بالمحافظة على حياته ، ولكن يبدو أن الجنرال كان شديد العناد ، فلم يعط فرصة للقوات المهاجمة أن تأسره حيا.

واستمرت معركة اقتحام الخرطوم ست ساعات ، بدأت قبل الفجر ، وانتهت في الضحى ، وبلغ عدد القتلى أربعة آلاف تقريبا ، وقتل القنصل النمسوي في داره.

وكانت الغنائم تودع كالعادة بيت مال المسلمين ، وفقا لأحكام الشرع ، لتقسم على المقاتلين وفقا لبلائهم في القتال ومكانتهم ، وأقيمت مآدب الانتصار والحفلات طيلة اليوم ، ولم تنقطع حركة نقل الغنائم والأسرى إلى أم درمان.

وقبل أن يمر يومان على فتح المدينة أعيد فتح الورش ، وأخليت الشوارع ، ورفعت آثار القتال ، وبدأت الخرطوم تتحول مرة أخرى إلى معسكر مسلح ، وقد حلت القوات الإسلامية محل جنود الحكومة على الخنادق والمدافع.

وبدا النظام يسود العاصمة ، فبعد أن انجلت المعارك أعيدت الترسانة النهرية للعمل ثانية ، وانتشلت السفن الصغيرة من أسطول غوردون الصغير وأصلحت ، كما عاودت ترسانة الأسلحة في صنع الخرطوش والرصاص ، وأصلحت مطبعة الحجر ، وبدأت دار سك النقود تطبع صورة المهدي على قطع جديدة من

الذهب والفضة ، كما طرحت للتداول القروش المصرية ، والجنيهات الذهبية التي غنمها المهدي ، ومنها مبلغ ٥٥,٠٠٠ من بربر وحدها.

وحرمت الحكومة الإسلامية تزييف العملة ، فقد كان الإعدام عقوبة هذه الجريمة ، أما غوردون فقد طبع عملة ورقية مزيفة حين احتاج للنقود أثناء الحصار وهذا هو الفارق بين القيادة الإسلامية التي ترفض التزييف وتعاقب عليه وبين القيادة الجاهلية التي تقوم بنفسها بعملية التزييف ، فارق واحد هنا بين الإسلام والجاهلية ، ولكنه فارق شديد الأهمية.

وأنشأت الحكومة الإسلامية أيضا مخازن هائلة للبضائع على ضفتي النهر ، وأقيمت الأسواق لبيع الغلال والماشية التي أصبحت تجلب مرة أخرى من الريف المجاور.

وسيق المجرمون للعدالة الإسلامية ، وظل جهاز الاستخبارات يعمل بدأب ونشاط حتى بعد الانتصار المبين والفتح العظيم ، وأهلّ على الخرطوم وأم درمان المسلمون السودانيون من جميع مناطق السودان ليشهدوا انتصار الإسلام في أحد معاركه التاريخية المهمه.

وصفوة القول أن الحياة الطبيعية عادت سريعا للمدينتين ، وبدأ الإعمار والبناء الدءوب على الفور ، هي طبيعة الإسلام وروحه ، لا تعلو كلمته وتقوم دولته حتى تنطلق الطاقات من عقالها وأغلالها التي تفرضها الجاهلية ، فيعشش في ظل الأغلال الخراب والدمار والفقر الشديد ، ولعل نظرة واحدة إلى كثير من الشعوب المسلمة وما ترزح تحته من نير الفقر والتخلف والديون الثقيلة المهولة ، برغم الإمكانيات البشرية والمادية الهائلة ، نظرة واحدة فقط تؤكد أن الجاهلية حين تتحكم

بالشعوب وبخاصة المسلمة منها فإنها لا تجلب إلا المآسي والمصائب والخزي والعار ، من الانهيار الاقتصادي والفساد الأخلاقي والهزائم العسكرية والسياسية في كل معركة تجرجر إليها الشعوب.

ونعود مرة أخرى إلى حملة ولسلي فنجد تشالز ويلسون الذي تولى القيادة بعد هلاك بيرناني وستيورات قد ظهر بأسطوله الصغير أمام الخرطوم بعد يومين من المعركة ، أي في عيد الميلاد الثاني والخمسين للجنرال غوردون فقوبل ولسون بنيران كثيفة من المدفعية ، حتى إذا أصبح على مرمى البصر من دار الحكومة لم ير علما يرفرف ، وكانت بعض البنايات المهدمة والحرائق ودخانها والطلقات المتواصلة أوضح الأدلة على سقوط الخرطوم ، فهرول هاربا إلى الشمال في ارتباك.

ولكن الباخرتين جنحتا في الطريق فغادرهما ركابهما ، وبينما كان البريطانيون يحاولون الخروج من هذا المأزق أرسل المهدي إلى ويلسون : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وبحمده الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله من العبد المستعين بالله ، والمتوكل عليه محمد المهدي بن عبد الله ، إلى الضباط البريطانية والشايقية وأتباعهم ـ هداهم الله إلى الحق ـ سلموا تسلموا ، فقد أصبحتم بقية ضئيلة كالقشة في قبضتنا ، ونخيركم بين أمرين ، إما أن ترسلوا رسولا لتتبينوا أن الخرطوم قد سقطت وبأن غوردون مات ، ثم تستسلموا ، وإما أن تحاولوا القتال فيكون نصيبكم موتا ، لا مفر منه ، وعذابا في الآخرة).

وقرر ويلسون أن يواصل انسحابه ، فاستطاع أخيرا أن يصل إلى متمة بمعونة السفن التي كان غوردون قد أرسلها ، وقد بدا لولسلي حين سمع الأخبار المفجعة أن السبيل الوحيدة الممكنة هي السعي إلى بربر ، وإعداد قواته لهجوم

مضاد في الخريف ، ولكن إنجلترا رفضت وأمرته بالعودة إلى مصر ، فرجعت الحملة في كثير من الارتباك.

ولكن ما خبر الكتيبة الثانية التي أرسلها ولسلي بقيادة الجنرال إرل عن طريق النيل مباشرة إلى الخرطوم ، لتحاول إنقاذ غوردون أيضا ؟ لقد حاول إرل عدم الدخول في أية معارك مع القوات الإسلامية التزاما بالأوامر الصادرة إلى الجنرال ولسلي نفسه ، هي :

(إن الغرض الأساس من الحملة إنما هو إنقاذ الجنرال غوردون والعقيد ستيوارت من الخرطوم ، فمتى تم هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية أيا كانت ، والحكومة تعتمد عليكم في أنكم لا تتقدمون جنوبا ، إلا بقدر ما يلزم لإدراك هذا الغرض).

وطبقا لنصائح الجنرال غوردون فقد تكونت حملة ولسلي من الجنود الإنجليز ، تعاونهم قوة مصرية ، كما سيأتي ، يقول غوردون في خطابه إلى ولسلي : (لا تدعوا العساكر المصرية تأتي إلى هنا استلموا قيادة القاطرات منهم ، وأخرجوهم منها ، فإنه لا فائدة منهم).

على أية حال فقد سار الجنرال إرل من كورتي يقود نحو ثلاثة آلاف من الجنود الإنجليز ، ومعهم نحو خمسمائة قارب تقل الجنود المشاة ، أما الفرسان والمدفعية فقد ساروا حيال القوارب على الضفة الغربية للنيل ، سارت القوة المصرية بقيادة أحمد سليمان على الضفة الشرقية ، وتقدمت الحملة على هذا النحو مسيرة ثمانية أيام ، حتى بلغت كربكان ، أحد المعاقل الإسلامية ، بالقرب من أبي حمد ، فانضمت القوة المصرية إلى الانجليزية ، ودارت المعركة في العاشر من

فبراير ١٨٨٥م ، واستولت القوة المشتركة على المعقل ، ولكن بعد أن فقدت قائدها إرل ، فقد كان المسلمون مغرمين بقتل القادة لفتح شهيتهم إلى القتال.

ويبدو أن القوة الإسلامية كانت صغيرة مما مكن الإنجليز ومن والاهم من المصريين من التغلب عليها ، بعد ثمن باهظ ، وهو مصرع الجنرال إرل ، وقد أبلى أحمد سليمان والجنود المصريون بلاء بينا في هذه المعركة ضد إخوانهم المسلمين !!

وبقيت القوة الإنجليزية معسكرة في كربكان أسبوعين ، ثم رجعت إلى دنقلة إثر قرار الحكومة البريطانية بانسحاب الحملة كلها بعد سقوط الخرطوم ومقتل ستيوارت وغوردون ، فارتدت الحملة جميعها إلى كورتي ، ثم إلى دنقلة ، ورجعت إلى مصر في يونيه ١٨٨٥م ، وعلى إثر هذه الحملة الفاشلة استقال الجنرال إفلين ور [1] سردار الجيش المصري ، وعين الجنرال فرنسيس غرنفل سرادارا للجيش المصري في ١٩ أبريل ١٨٨٥م.

(١) القائد العام.

أم درمان والخرطوم :

تمكنت الخلافة الإسلامية بقيادة المهدي من فتح العاصمة الخرطوم ، وكان المنتظر أن تبقى العاصمة كما هي ، ولكن الحكومة اتخذت أم درمان حاضرة لها ، فما السر في ذلك ؟.

إن سيد الخلق محمد (ﷺ) حين فتح مكة المكرمة ، أحب بلاد الله إليه ، التي تضم أول بيت وضع للناس ، هل اتخذها عاصمة له ؟ كلا ، لقد بقي في المدينة المنورة حيث أنصاره الذين منعوه مما يمنعون منه نساءهم ، فما فعله المهدي إذن إتباع لسكة رسول الله (ﷺ) كما يعبر دائما ، أي طريقه ومنهجه.

وقد سار على هذا المنهج أيضا من السلف الصالح الإمام عثمان بن فودي (ت١٨١٧هـ) حين فتح العاصمة القاضاوا ، لكنه هجرها ، وبنى عاصمة جديدة هي مدينة سوكوتو التي لا تزال حتى الآن.

ويبدو أن كل نظام جديد يتخذ لنفسه عاصمة مختلفة عن عاصمة النظام السابق ، وبخاصة إذا كان معاديا له ، ولدينا في الجانب الإسلامي بعض الأمثلة ، إضافة إلى ما فعل الرسول (ﷺ).

ترك أمير المؤمنين ، عليّ بن أبي طالب المدينة إلى معقل شيعته في الكوفة واتخذ الأمويون دمشق بدلا من الكوفة والمدينة ، وجاء العباسيون فتركوا المدن الثلاث إلى بغداد ، ومن ينقب في التاريخ فيسجد بالتأكد أمثلة أخر.

وفي الجانب الإسلامي أجد مثالا لبقاء العاصمة كما هي ، ولكن بعد تغيير

اسمها ، وقد فعل هذا محمد الفاتح ـ رضوان الله عليه ـ حين غير اسم القسطنطينية [١] إلى استنبول أو الآستانة ، ولعل هناك أمثلة أخرى من هذا القبيل.

وفي الجانب غير الإسلامي أذكر مثالين ، هو ما فعله أتاتورك حين استبدل أنقرة بعاصمة الخلافة التي قوضها ، وما فعله الإنجليز بعد القضاء على الخلافة الإسلامية التي أسسها ابن فودي ، إذ اتخذوا من لاغوس بدلا من سوكوتو عاصمة لنيجيريا ـ التي ضم شمالها الجزء الأكبر من دولة الخلافة ، بما فيه العاصمة برغم أن هذه اللاغوس في أقصى الجنوب من البلاد ، ولكنها بعيدة عن الثقل الإسلامي في الشمال ، ولذا عارضت الدول المستكبرة بشدة بناء العاصمة الجديدة (أبوجا) التي تقع وسط الشمال المسلم.

إذن فالنظام الذي يأتي على أنقاض سابقة غالبا ما يتخذ عاصمة جديدة ، كما رأينا في الجانب الإسلامي وغيره ، ويكون السبب أن العاصمة الجديدة في موقع حصين أو تحظى بتواجد أكبر لأنصار النظام الجديد ، كما حدث مع الرسول الأكرم (ﷺ)إضافة إلى أن العاصمة الجديدة إشعار للجميع باختلاف عهد عن عهد ، وإيذانا بالتخلص من رموز العهد السابق ومعاقله ، وعلى رأسها العاصمة.

ولم يكن المهدي بدعا في ذلك حين ترك الخرطوم ، ولكننا نتساءل : لماذا يتخذ من جبل قدير الذي هاجر إليه عاصمة له ؟ كما اتخذ حبيبه رسول الله المدينة عاصمة له ؟ إن الأمر مختلف بعض الشيء هنا ، لقد كان يشق على أنصار رسول الله أن يتركوه بعد أن أعزه الله ، بل إنهم ذكروا ذلك صراحة عند بيعة العقبة الثانية يقول ابن هشام :

---

(١) ومن أسف أن بعض المسلمين أو المحسوبين عليهم لا يزال يستخدم هذا الاسم القديم ، كما يفعل الأوروبيون كأنهم لا يعترفون بالحقائق التاريخية ولا يقرونها إلا إذا كانت معادية للإسلام والمسلمين.

أخذ البراء بن معرور بيده - أي الرسول - ثم قال : (نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر) فاعترض القول - والبراء يتكلم مع رسول الله - أبو الهيثم الشيهان فقال : (يا رسول الله وبيننا وبين الرجال عهود - يعني اليهود - وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا) فتبسم رسول الله (ﷺ) ثم قال : (بل الدم الدم ، والهدم الهدم [1] ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم).

وهكذا أخذ الأنصار العهد على رسول الله ألا يتركهم في المدينة إلى قومه (ﷺ) ؟ ولو كان يعلم عدم صلاحية المدينة المنورة لمقامه لما أجاب القوم إلى ما طلبوا.

ولقد كان المهدي يعلم عدم صلاحية جبل قدير لمقامه ، فهو يبعد عن الخرطوم بأكثر من مائتي ميل ، مما يجعله أكثر بعدا عن مكمن الخطر ورأس الحربة ضد الخلافة الإسلامية الجديدة ، ألا وهو مصر ، إضافة إلى أن المهدي لم يشارط أنصاره على المقام في جبل قدير الذي هاجر إليه بعد إعلان الثورة ، كما حدث مع النبي الأكرم (ﷺ).

وقد فعل المهدي ما فعله سلفه ابن فودي حين بنى عاصمة جديدة قريبة من السابقة التي فتحها ، دون أن يتخذ قرية دغل في مملكة كبي المجاورة التي هاجر إليها عاصمة ، أو يبني قريبا منها ، ذلك أن موقعها لم يكن مناسبا ، غذ كانت تقع على أطراف الصحراء ، بعيدا عن العمران ، كانت جيدة - مثل جبل قدير - كمكان تهاجر إليه الجماعة ، لكنها لا تصلح - من ناحية الموقع - كعاصمة.

(١) ذمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم.

أما اختيار أم درمان ـ بالذات ـ فلأنها موقع حصين ، يختلف عن الخرطوم التي يحيطها النيل من الشمال والغرب ، فهي تقع بين فكي الأسد ، وبخاصة إذا عرفنا تفوق إنجلترا في التسليح النهري والحرب في البحر ، وسهولة استخدام النهر كوسيلة جيدة للاتصال ، في حين إن أم درمان [1] تقع على النيل أيضا ، لكنها لا يحاصرها ، مثل الخرطوم ، بل تحميها الصحراء التي يمكن أن تكون ميدانا جيدا للقتال عند المسلمين ، وهي نقطة ضعف عند القوات المعادية ، ومن ثم تعطى أم درمان فرصة للكر والفر في أرض معروفة جيدا للمسلمين ، ويجهلها الكفار.

صدى مصرع غوردون في إنجلترا :

قبل فتح الخرطوم ببضعة أشهر كان اسم غوردون قد بات يتردد في كل بيت لا في إنجلترا وحدها ، بل في بقية العالم ، فيثير أقصى مشاعر الإشفاق والإعجاب ، وراح الرأي العام في طول بريطانيا وعرضها يتتبع زحف ولسلي في لهفة وتحمس ويناقش فرص الجنرال في الصمود ، وكانت الآمال قد انتعشت أواخر يناير ١٨٨٥م واستبقت مجلة بانش الحملة ، إذ نشرت أوائل فبراير رسما ساخرا ملء الصفحة يبين الجنرال عند أبواب الخرطوم يرحب بالحملة ، وكتبت تحت الرسم (أخيرا) ولكنها في الأسبوع التالي اضطرت إلى نكسة أليمة مهينة ، فنشرت رسما آخر ، يبين بريطانيا ملتاعة ، وذراعها على عينيها ، والمهدي يدخل المدينة ، والأسرى بين يديه وكتبت تحته : (بعد فوات الأوان) ثم سميت حملة ولسلي بهذه العبارة ، أي حملة بعد فوات الأوان.

أما مشاعر الملكة فقد صورها سكرتيرها : (كانت الملكة في حالة فظيعة بسبب سقوط الخرطوم ، مما أدى إلى مرضها ، كانت تهم بالخروج حين تلقت

---

(١) يلاحظ أنها كانت في الأصل حصنا يسمى بهذا الاسم.

البرقية ، فأرسلت تستدعيني ، ثم خرجت إلى مسكني ، على مسافة ربع ميل ، وسارت إلى حجرتي شاحبة ترجف ، وقالت لزوجتي التي جزعت لمرآها : (فات الأوان).

وتلقت أخت غوردون الرسالة التالية بخط الملكة (كيف أكتب إليك ، أو كيف أحاول التعبير عما أشعر به إذ أفكر في عدم نجاة أخيك العزيز ، النبيل البطل الذي خدم بلاده وملكته ، بكل هذا التفاني ، وبتضحية للذات ، تعلي شأنه في العالم !! إن حزني ليجل عن الوصف لعدم الوفاء بوعود المساعدة ، وما أكثر ما كنت أتعجل - دون انقطاع - أولئك الذين سألوه أن يذهب ، الحق أن الفاجعة أسقمتني ، فهلا أعربت لشقيقتيك وأخيك الأكبر عن عطفي الصادق ، وشعوري البالغ باللوعة والوصمة التي لحقت بإنجلترا ، من جراء المصير القاسي - برغم بطوليته - الذي لقيه أخوك العزيز).

على أنه كانت ثمة أصوات عاقلة ، وإن كانت تبدو نشاذا وسط هذا الهياج المحموم ، كان ولفريد سكاوين بلنت (ت١٩٢٢) على رأس فريق صغير يكره فكرة العدوان البريطاني في السودان برمتها ، كان يؤمن أن المهدي كعرابي في مصر زعيم لانتفاضة شعبية ، وأن السودان يجب أن يترك ليقرر مصيره بنفسه ، فكان خطأ من البداية أن أوفد غوردون ، وكان خطأ هذا الأخير أن بقي في الخرطوم ، وكان خطأ إجراميا من الحكومة إرسال حملة حربية.

وكان بلنت وأصدقاؤه - حتى ديسمبر ١٨٨٤م - يصفون ولسلي ورجاله بالجزارين ، وكانوا يهيجون الخواطر للمطالبة بمفاوضات صلح مع المهدي ، لقد وصل نبأ سقوط الخرطوم إلى لندن في الخامس من فبراير ١٨٨٥م فسجل بلنت الحدث بهذه العبارات : (نبأ سقوط الخرطوم المجيد غير المتوقع ... لم أتمالك أن

رحت أغني في القطار طيلة الوقت إلى الريف).

وكان بلنت ومن لف لفه على حق تماما في مفاوضات صلح مع المهدي ، لقد كان الرجل تواقا لفداء عرابي ، وكان من الممكن أن تأخذ انجلترا جنرالها الغالي مقابل عرابي ، إلا أن معظم معاصري بلنت كانوا يعارضونه معارضة مطلقة وحارة ، برغم اتزان آرائه في القضية ومنطقتها.

وكان الرأي العام في بريطانيا ـ الذي ضللته وسائل الإعلام المهيجة ـ يشعر مثل الملكة بحزن عميق ، وانتاب الناس نوبة هستيرية ، دامت حوالي ثلاثة أسابيع وكانت تجتذب الجموع كل يوم إلى مقر رئيس الوزراء على أمل أن تتاح لهم فرصة الصفير والسخرية من رئيس الوزراء.

ومنحت أسرة غوردون عشرين ألف جنيه ، وإن بدا للرأي العام أن موت الجنرال لا يعوضه مال ، وكانت وصمة انجلترا لطخة لا تمحى ، ومن غير رئيس الوزراء كان يلام على التردد والتلكؤ ؟! أين ذهب حديثه المطمئن عن غوردون ، وأنه في الحفظ والصون ، ولا داعي للانزعاج ، كما كان جنود الحملة وقائدها ويلسون هدفا لغضب الشعب أيضا ، إذ لم يصلوا في الوقت المناسب.

وأحيل كرومر إلى المعاش واستطاع الدفاع عن نفسه قائلا : (إن غوردون تناسى في الخرطوم كل التعليمات ، وأجبر ببقائه هناك الحكومة على إيفاد حملة لنجدته ، كان متطرف العناد مندفعا متهورا ، منساقا لانفعالاته ، عرضا لنوبات من السورات الجامحة ، يتخذ آراء سريعة ، ونادرا ما يصمد طويلا على رأي ، ويبدو أنه كان خلوا من موهبة عظيمة القيمة للموظف العام في دولة نائية ، وهي أن يكون بروحه في مكان آخر ، كان حياله يجمح فعلا ، ليست لديه أية صفة تؤهله

للاضطلاع بالمهمة الصعبة التي تولاها ، عدا شجاعة شخصية ، وخصب وافر في الحيل الحربية ، ونفور محتدم - كان يسيء توجيهه أحيانا - من الظلم والخسة بكل أوصافها ، ومقدرة على اكتساب النفوذ لدى من يتصل بهم).

ولا حاجة إلى مناقشة ما ذكره كرومر عن الجنرال غوردون ، ولكن من المؤكد تماما أنه تناسى كل تعليمات حكومته ، مما أجبرها على إرسال حملة بعد فوات الأوان ، ويخلص كرومر إلى : (أن ثم خطأين كبيرين ، هم موافقته على ذهاب الجنرال إلى الخرطوم ، وعدم إيفاد الحملة مبكرا) نعم كان إرسال غوردون خطأ ، أما الحملة فإن إرسالها مبكرا أو متأخرا سواء ، فإنها لو وصلت قبل سقوط الخرطوم فإنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا ، والدليل على ذلك ، أن تلك الحملة فقدت ثلاثة من قوادها ، برغم أن القوات الإسلامية الضاربة كانت محاصرة للخرطوم ، ولم تصادف غير قوات قليلة متناثرة ، وفي كل موقع من المواقع الثلاثة التي واجهت تلك القوات الحملة أهلكت واحدا من قوادها.

وهكذا ثأر المسلمون في السودان لأحمد عرابي من ولسلي نفسه قائد معركة التل الكبير في مصر ، والذي بقي مكانه لم يستطع مواجهة القوات الإسلامية في أية معركة خشية أن يكون أول الهلكى ، وكانت انجلترا على حق حين أمرته بعدم التقدم للقاء المهدي ، وأن يبقى في مؤخرة الحملة ، ثم يهرول راجعا إلى الحدود المصرية.

دوي المهدية في العالم الإسلامي :

أحدثت ثورة المهدي وانتصاراته دويا هائلا في العالم الإسلامي ، وأصيب الاستكبار العالمي ، وعلى رأسه انجلترا بالهلع والفزع ، ونستطيع أن نرصد بعض

هذا الدوي بشكل عام ، ثم بشكل محدود عند بعض الحركات الجهادية ، مثل السنوسية وثورة الملا في الصومال ، وثورة ابن فودي في غرب إفريقية ، وإن كان الموضوع يحتاج إلى دراسة موسعة نأمل أن تكون إن شاء الله.

لقد انتفض المسلمون في بخارى عندما سمعوا بانتصارات المهدي ، وظهر فيهم من يدعو إلى قتال من ينهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم ، وانفجر في أفغانستان بركان حقد عظيم وعداء ضد الغرب ، وفي وسط آسيا ظهرت الطريقة النقشبندية ، وامتدت شرقا حتى وصلت الصين ، فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى كما اشتعلت الثورة في جزائر الهند الشرقية التي كانت تحتلها هولندا.

وزحف بركان الثورة إلى الهند ، فهب المسلمون يشقون عصا الطاعة على الانجليز ، وبخاصة بعد هزيمة هيكس ، مما دفع الانجليز إلى التحذير من مغبة الدعوة المهدية ، ونشروا في أرجاء الهند مئات الألوف من الفتاوى لعلماء السوء المنكرين لها ، ولكن دون جدوى حتى إن أحد المسلمين في لاهور قال : (إن المهدي لو كان دجالا لأوجبت الضرورة أن نعتقده مهديا ، ولا نفرط في شيء مما يؤيده) ولذا فكرت انجلترا في منع المسلمين من الحج ، حتى لا تنتقل إليهم أخبار ثورة المهدي ، وتورط الإنجليز في مقاومته.

هذا عن دوي المهدية في العالم الإسلامي ونتحدث عن الفودية والسنوسية وحركة الملا بشيء من التفصيل :

أولا : الفودوية :

ظهر الإمام عثمان بن فودي بجهاده كمجدد عام ١٨٠٤م فاعتقد الناس بأنه المهدي فألف كتابه : (تحذير الإخوان من ادعاء المهدية آخر الزمان) نفى فيه أنه

المهدي قائلا : (إن المهدي سيظهر في الشرق ، وبالتحديد في النيل ، وإذا لم أكن حيا فأرجو من المسلمين تأييده والهجرة إليه) ثم كتب كثير من العلماء عن المهدي ، وبخاصة السلطان محمد بللو بن الإمام عثمان ، وأخوه أحمد الرفاعي ، بل رسم خط سيرهم ، الذي بدأه من سوكوتو العاصمة وختمه بالنيل ، ثم قال : (إذا جاء ذلك الوقت لا يخفى على أحد ، بل هو كنار على علم).

وكما توقع العلماء هنا ظهر المهدي في النيل ، وبالتحديد في جزيرة آبا ، على النيل الأبيض ، وقد أدت التوقعات إلى هجرات جماعية من خلافة سوكوتو في غرب إفريقية إلى الشرق بحثا عن المهدي ، وكان على رأس المهاجرين الشيخ حياة ابن سعيد بن محمد بللو ، الذي استقر في بلده ـ التي تقع الآن في الكاميرون ـ قبل ثورة المهدي بخمسة عشر عاما ، وأسس مركزه الإسلامي بانتظار المهدي ، ويستنتج أحد الباحثين أن الرجلين كانا على اتصال ببعضهما قبل الثورة ، وهاك بعض الرسائل المتبادلة بينهما.

(بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على محمد مع التسليم ، وبعد ، فمن محمد بن أحمد بن السيد عبد الله ، إلى الشيخ حياة بن سعيد بن أمير المؤمنين محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودي ...) الرسالة التي برهن فيها على أنه حمل الأمانة لإعادة المسلمين إلى منهج الرسول (ﷺ) إلى أن قال : (وإني كاتبكم لظن الخير فيكم ...) ثم استطرد في إخباره بحقيقة دعوته إلى أن قال : (إذا فهمتم ما ذكر فاتركوا ما أنتم عليه ، وأجيبوا داعي الله ورسوله بالتوجه إلينا بالهجرة ، حيث أمر بها سيد الوجود محمد (ﷺ) فهي واجبة كتابا وسنة ...) إلى أن قال : (كونوا أنصار الله ...) إلى آخر الرسالة.

ورد الشيخ حياة : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه الكريم ،

وصحبه وحزبه الصميم ، وعلى كل تابع لهم بإحسان إلى يوم النعيم المقيم ، وبعد فمن عبيد الله ، حياة بن سعيد بن محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودي- رحمة الله - للجميع ، إلى سيدنا وقدوتنا ووسيلتنا إلى ربنا خليفة رب العالمين ، ونجل سيد الأولين والآخرين.

الله ، الله ، والبشارة للمؤمنين ، وحجة واضحة على المنكرين ، وسيفه المسلول على الكافرين ، وناشر الحق والعدل بأقصى البلاد بالرغم من أنوف الظالمين ، الذين انتظروه انتظار شوال للصائمين ، وتحية وسلاما ممزوجاتين بغاية الرضى وأعلى الكرم فقد وصلنا خطابك ... إلى أن قال : (لقد جئتنا بالحق ، وأزهقت الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ... فقد أتيتنا بما سيجعل الله به كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، فآمنا برسالتك الإسلامية ، منقادين لك ظاهرا وباطنا.

وبايعناك على كتاب الله وسنة رسوله ... فلقد رأينا الكرامات وصدقنا ووقفنا على الحكايات والأحاديث ، واعتبرنا وأطعنا الأمر ، وقبلنا النصيحة ، وحمدنا الله ، وحمدناك لتسميتك لنا بالأحباب ، فها نحن سيدي مهاجرون إلى الله ورسوله وإليك ؛ آملين أن نكون أنصار الله ورسوله وأنصارك).

ثم أرسل المهدي رسالة أخرى إلى الشيخ حياة عينه فيها خليفة له وللأنصار في الغروب ، أي غرب إفريقية ، فكان خير عون للمهدي وأنصاره ، واستمر ذلك العون بعد وفاة المهدي ، مواصلا إمداد عبد الله محمد آدم التعايشي ، خليفة المهدي بالجيش والعتاد ، وواصل جهاده إلى أن استشهد هو وأبناؤه عام ١٨٩٨ م ، عدا واحد منهم واصل جهاده إلى أن اعتقله الإنجليز عام ١٩٢٣م.

وقد نظم الشيخ حياة قصيدة باللغة الفلانية تناول فيها كل ما يتعلق بالمهدي والمهدية مركزا على أهداف الثورة المهدية ، وهي :

١- إخراج المستعمر من العالم الإسلامي عامة ، والسودان خاصة ليسهل الإصلاح في هذه المجتمعات المجتمعات.

٢- ضرورة إعادة مفهوم الشهادتين إلى دورهما العملي والحركي ، كما فهمها الرسول (ﷺ).

٣- ضرورة وحدة السودان تحت نظام منطلق من الإسلام كوسيلة لوحدة المسلمين.

٤- توحيد المذاهب والفرق في منهج واحد.

٥- تنفيذ الجوانب العملية بقصد :

(أ) بناء الفرد المسلم القوي.

(ب) لكي يسهم ذلك الفرد في بناء الجماعة المؤمنة القوية.

(ج) لتسهم الجماعة في امتداد الدعوة الإسلامية إلى الأمام حتى يعم الإسلام العالم كله.

(د) للفوز بسعادة الدارين.

٦- الجهاد فريضة من الفرائض الإسلامية المهمة ، ولابد من أدائها كفرض عين على كل مسلم في حالة الخطر الخارجي ، أو الداخلي المتمثل في الشرك.

ثانيا : السنوسية :

كان المهدي يعرف الكثير عن هذه الحركة بحكم انتشارها في السودان وإفريقية بشكل عام ، ولذا أرسل إلى المهدي السنوسي يعينه خليفة له ويخيره بين الهجرة ، أو محاولة فتح مصر من جهة الغرب ، وهاك الرسالة :

من عبد ربه الفقير إليه ، محمد المهدي بن السيد عبد الله ، إلى حبيبه في الله الخليفة محمد المهدي بن الولي السنوسي ، كان الله في عونه آمين ، فيا أيها الحبيب القريب ، الواقف على سنة النبي ... لا يخفى عليكم تغير الزمن ، وترك السنن ، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن ، بل يترك لذلك الأهل والوطن ، لإقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك لأن غيْرة المؤمن على الإسلام تجبره.

واعلم يا حبيبي ، قد كنا ننتظرك ومن معنا من الأعوان ، ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل ، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعوتك إلى الله على السنة النبوية ، وتأهبك لإحياء الدين ، بأن نصير إليك ونجتمع معك ، ولم تردّ لنا المكاتبة ، وأظن ذلك من عدم وصولها إليكم ، ، حتى أني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء فأبوا ذلك ، لهوان الدين عندهم ، وتمكن حب الوطن والحياة من قلوبهم وقلة توحيدهم ، حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما يطلب رب العالمين.

وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا ، لما يرون للدين من الممات ، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب المشتهى يزدادون ، وفيما عند الله يرغبون ... ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه والمال النفاق فلا يصدقون ولا ينقادون للحق حرصا على جاههم ، قال (ﷺ) : (الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب ، كما ينبت المال البقل).

ولما حصل لي يا حبيبي من الله ورسوله أمر الخلافة [1] الكبرى ، أمرني سيد الوجود (ﷺ) بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له قدير وأمرني أن أكاتب بها جميع

(١) وكان المهدي يعتبر نفسه خليفة لرسول الله (ﷺ) ويبدو أنه كان يحس بدنو أجله فعين أربعة خلفاء له عبد الله التعايشي خليفة عن أبي بكر ، وعليّ حلو خليفة عن عمر ، ومحمد شريف ابن عمه عن عليّ ، أما مقامُ عثمان فقد خص به المهدي السنوسي ، رحمة الله عليهم أجمعين.

المكلفين أمرا عاما ، فكاتبت الأمراء والمشايخ فأنكر الأشقياء ، وصدق الصديقون ، الذين لم يبالوا بما لقوه من المكروه ، وما فاتهم من المحبوب المشتهى ، بل ناظرون إلى وعده (ﷻ) بقوله : (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ [1] لِلمُتَّقِينَ) مع أن أولئك المنكرين يزعمون أنهم يعلمون أن الأمر لله.

ولا يزال التأييد يزداد من الله ورسوله ، وأنت منا على بال ، حتى جاءتنا الأخبار فيك من الوزراء لي ، ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر بأحوالكم وما أنتم عليه (ثم ذكر له أنه سيكون خليفته الرابع ، كما كان أمير المؤمنين عليّ الخليفة الرابع للرسول (ﷺ).

وأخبرك أن الله فتح على يدنا كثيرا من البلاد ، وانقاد لنا كثير من العباد ممن كانوا تحت الحكومة ، فإذا بلغك جوابي هذا فإما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا ، وإما أن تهاجر إلينا ، ولكن الهجرة أحب إلينا ، كما علمت فضل الهجرة ، من زيادة الثواب ، والمقابلة إن تيسرت ، وعلى كل حال ترد إلينا منك الإفادة بما يصير إليه عزمك من جهاد أو هجرة ومثلك تكفيه الإشارة ، والسلام.

حركة الملا :

كانت ثورة الملا [2] محمد بن عبد الله حسن (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م) في الصومال من أهم الثورات التي زلزلت أركان الاستكبار العالمي ربع قرن من الزمان لقد خاض المجاهد العظيم الملا مئات المعارك ضد الأحباش والانجليز والفرنسيين والإيطاليين

---

(١) ٨٣ ، القصص.
(٢) أنظر مثلا مهدي الصومال للدكتور محمد المعتصم سيد ، ثائر من الصومال للدكتور عبد الصبور مرزوق ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، القاهرة.

ومن والاهم من الصوماليين ، وظل غصة في حلق الاستكبار العالمي وعلى رأسه بريطانيا التي لم تستطع القضاء على الثورة برغم استخدام الطائرات.

ثم ارتكبت تلك البريطانيا جريمة من أبشع الجرائم في التاريخ ، لقد سممت الآبار في الصومال فمات الثوار جميعا ، وعلى رأسهم قائدهم ، ولست أدري لماذا ينسى المسلمون أمثال تلك الجرائم البشعة التي قل نظيرها في التاريخ !! ولعلنا نشير بشيء من التفصيل إلى هذه الجريمة في خاتمة كتابنا ، على أمل أن نخصص للملا الصومالي كتابا مستقلا.

وقد تعرف العالم المجاهد الملا على ثورة المهدي عن طريق الشيخ محمد صالح السوداني ، شيخ الطريقة الصالحية ، الذي نقل إليه أخبار المهدي وانتصاراته مما جعل الملا نارا تتأجج ضد الظالمين المستعمرين ، وإن كانت الصلة بين الثائر الصومالي وبين الثورة المهدية بحاجة إلى دراسة تكشف جوانبها وآثارها.

منجزات المهدي :

إن أهم المنجزات التي حققها المهدي وحدة الكلمة في السودان ، ووحدة القيادة ، فتلك أولى خطوات الانتصار ، ولذا حاول القضاء على التعصب للطرق الصوفية والمذاهب الفقهية ، ليكون المسلمون صفا واحد ضد أعدائهم ، وهو ما ينبغي أن يعيه الرساليون في كل زمان ومكان ، أما الفرقة والتشرذم فنتيجتها معروفة ، الهزائم والتخبط ، وضياع المجهودات والطاقات.

وبهذه الوحدة استطاع المهدي أن يقيم خلافة إسلامية ، على منهاج النبوة ، وهو ما شهد به الأعداء قبل غيرهم ، يقول ألان مورهيد : (كان حكما دينيا لا يستهان به ، فقد كان بوسع المسلمين أن يفخروا بأنهم قتلوا خمسة من الضباط

البريطانيين الكبار ، وهزموا حملتين كبيرتين ، وعجزت أحدث الأسلحة الأوربية عن صدهم ، فشعروا بأنهم منيعون ، وما كانوا ليلاموا على اعتقادهم بأن العناية الإلهية كانت وراء كل ذلك هذا).

وبعد أن أقام المهدي دولته العظمى ، ماذا أخذ لنفسه ، هل لبس الرقاق واقام في القصور وركب الخيول المطهمة ؟؟ كلا ، لقد بقي كما كان منذ بدأ ثورته المظفرة ، يركب الحمار ، ويذهب إلى السوق ، ويحمل حاجته بنفسه ، ويجلس على الأرض ، ويأكل مع خادمه ، أخلاق رسول الله (ﷺ) وصحابته الكرام.

قال يزيد بن أبي سفيان ـ شقيق معاوية ـ لعمر بن الخطاب : (يا أمير المؤمنين إن الثياب والدواب عندنا كثيرة ، والعيش عندنا رفيع ، والسعر رخيص ، وحال المسلمين كما تحب ، فلو أنك لبست من هذا الثياب البيض ، وركبت من هذه الدواب وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير ، كان أبعد في الصيت ، وأزين لك في الأمر وأعظم في الأعاجم) فماذا قال له عمر ؟ قال : (يا يزيد ، لا والله لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبي) فلم يزل عمر ـ رحمه الله ـ على الأمر الأول الذي كان عليه في حياة رسول الله (ﷺ) وحياة أبي بكر (رضي الله عنه).

ولنتذكر ما كتبه المهدي إلى غوردون : (ولا أريد ملكا ، ولا مالا ، ولا جاها وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتفخر السلاطين ، لما جلبوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ... واعلم أنه ـ كما كتبنا لك ـ لا نرغب في متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب).

وهكذا أقام الرجل حكم الله في السودان كمقدمة ونواة للخلافة العالمية الكبرى ، دون أن يدنس نفسه بشيء من متاع المترفين ، ناظرا إلى ما عند الله من

نعيم مقيم ، لم يورث الحكم لبنيه أو أقاربه ، كما يفعل طلاب الدنيا ، بل سمى خلفاءه الأربعة ، ليس منهم قريب له ، اللهم إلا ابن عمه محمد الشريف ، الذي كان الخليفة الرابع له ، وكان الرجل في قمة الوعي والفهم حين اقام السنوسي خليفة له ، برغم أنه لم يكن من أهل السودان ، ذلك أن الإسلام لا يعترف بتلك الحدود الضيقة التي يتعصب لها الناس.

ونزيد هنا أن المهدي كان شديد الموضوعية مع الجميع ، الأقارب وغيرهم إنهَ يطبق شرع الله دون مجاملة لأحد ، وقد أدان ـ وهو على فراش الموت ـ بعض أقاربه بسبب تصرفاتهم ، وقد حدث بعد وصول حملة ولسلي إلى دنقلة أن قبض الانجليز على جماعة من أقارب المهدي ، وقالوا لهم : (اكتبوا من عندكم كتابا إلى المهدي ليرسل لنا أهالينا المأسورين عنده ، ونحن نطلقكم بعد حضور أهلينا) فأرسل المهدي إلى أقاربه :

(ليس لنا بكم حاجة ، لأنكم ظلمتم أنفسكم ، فلا فرق بينكم وبين الإنجليز عندنا ، ومعاذ الله أن نرتكب ما لا ينبغي لنا بعد قوله تعالى : (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ [1] عَشِيرَتَهُمْ) وإن كان نظركم إلى القرابة فهذه الآية تكفيكم فاصلا عنا ، وفيما حكاه عن نوح وابنه ، وإبراهيم وأبيه ، مقتنع لأولى الألباب ، وحاصل الأمر أننا لا نجيبكم لما طلبتم ، ولا نشفق عليكم من الكفار ، وقد كنا سابقا كاتبناكم بالهجرة إلينا فما هاجرتم ، ورغبتم في مناولة الجيف ، ومن أراد أن يأخذ من الجيف فليصبر على عض الكلاب).

---

(١) ٢٢ ، المجادلة.

إن المهدي هنا يطبق قول المولى (ﷻ) : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ [1] بَصِيرٌ).

والآن نأخذ في سرد بعض منجزات المهدي بشيء من التفصيل والإيضاح :

١- لقد كان أساس ثورة الرجل أن يعيد الدين إلى ما كان عليه أول الإسلام ، لذا منع الناس من تقديس الأضرحة ، وأبطل الرتب والألقاب الجاهلية ، لأن من أراد الآخرة صدقا ، لا يتميز عن الأقران في الدنيا ، لأن الله يكره العبد المتميز عن أخيه المؤمن ، ومنع التبذير والإسراف في الأفراح والأعراس ، ودعا إلى عدم التغالي في المهور ، وأبطل الرقص والغناء والسحر والشعوذة ، وحرم شرب الدخان ومضغه ، وشرب الحشيش والخمور.

٢- دعا المسلمين إلى الامتناع عن الملاهي ، من موسيقى وغيرها ، يقول : (امتنعوا عن الملاهي ، فإنه بذكر الله تطيب الدنيا ، لا بالملاهي والمعازيف والطبول ، والنحاس لا يضرب إلا وقت الحاجة إليه في استدعاء الجيش للقتال الجهاد ، ولإسماع البعيد ليحضر ، وكل ما يؤدي إلى التشبه بالكفرة اتركوه ، وكل الذي يكون من علاماتهم فاتركوه ، فإن هذه الأيام أيام التزود إلى لقاء الله فلا تضيعوا ذلك في لهو ، ولا في سماع لهو).

٣- إقامة بيت مال المسلمين ، يقول مورهيد : (كانت ثروة الدولة كلها تجمع في بيت المال ، ثم فعل الشيء نفسه مع مرافئ السفن على النيل ، وكانت من قبل

(١) ٧٢ ، الأنفال.

تؤجر للناس مقابل مبلغ سنوي يدفع إلى بيت المال).

٤- وقد علل المهدي تأميم المرافئ بقوله : (ولكون هذا الزمن ليس فيه أحد يبذل ماله لتجهيز الغزوات والسرايا ، وكذلك كل من وجد ماله ، واستأثر به واستغله وسعى في زيادته ، وبعض الناس مع كثرة الهلع يدخر ماله ويعد نفسه مسكينا وذلك من شدة الشره ، وانسداد نور الإيمان ، ولما كان الصحابة (ﷺ) ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ويجهزون بها الغزوات والسرايا ، وما رأينا في زماننا مثل هذا ، فكل من كان له مال استبد به لنفسه ، ولا يجهز به غزوة أو سرية ، فلذلك استصوب عند نافع المشورة أن نكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المشارع - المرافئ - ولا يستخدمون الدنيا ، كما كانوا يستخدمونها سابقا ، وأن يكون همهم العمل لما عند الله ، وإعانة المجاهدين ، وإقامة الدين).

٥- إقامة الحدود الشرعية ، مثل قطع يد السارق ورجم الزاني المحصن ، وجلد الزاني غير المحصن ، وشارب الخمر ... الخ ومن نافلة القول أن الحدود ليس هي كل شيء في الدولة الإسلامية ، ولكنها ركن ركين حصين لإقامة الإسلام ، ومن ناحية أخرى فإن هذا التطبيق برء من تمسح بعض الأنظمة بالحدود التي تطبقها بصورة ناقصة مشوهة مبتورة ، وتحادّ الله ورسوله في باقي الأمور كلها.

٦- قلنا إن المهدي ألغى الرتب والألقاب الجاهلية ، ونضيف أنه ألغى أيضا بعض الألقاب التي تسخر من المؤمنين ، مثل لقب درويش ، فقد هدد كل من يستعمله بمائة جلدة ، يقول : (لأن من نفذ قلبه إلى ما عند الله من الخير ، وترك ما في الدنيا من ضير ، لا يسمى درويشا ، وإنما يسمى عاقلا ومدركا وبصيرا) وقد درج من كتب عن المهدي أن يصف أنصاره بالدراويش ، وهو ما تحاشيناه في هذا الكتاب.

لقد كان المهدي يعتبر هذه التسمية سخرية وتنابزا بالألقاب ، وهو ما حرمه ربنا في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ [1] الظَّالِمُونَ).

كذلك كان المهدي يصحح الأسماء التي تبدو مخالفة للشرع ، ففي إحدى الغزوات التقى برجل اسمه عبد النبي ، فسماه عبد الباري ، فخير الأسماء ما حُمّد وما عُبّد ، أي عبد فيه الله ، ليس رسوله (ﷺ).

وفاة المهدي :

حقق الثائر العظيم ، خليفة رسول الله (ﷺ) المهدي بفتح الخرطوم قمة الانتصار على الإنجليز ومن والاهم ، واستمرت نشوة هذا الانتصار عالقة بجو العاصمة أم درمان طيلة شهور القيظ ، من مارس حتى يونيه ، وظل الرسل يأتون بأنباء التراجع البريطاني في الشمال ، والضعف المتزايد التي حل بآخر معقلين للمصريين في كسلا إلى الشرق ، وسنار في الجنوب الشرقي.

وبات شيوخ القبائل ورجالها الذين كانوا يحصون ثرواتهم - قبل عام - بقطعان الماعز يحلمون بقيادة الجيوش إلى حومة الوغى ، وفرض سيطرتهم على مديريات بأكملها ، تماما كما حدث في الجزيرة العربية حين منّ الله عليها بالنبي الخاتم ، فقد تحول البدو إلى قادة للحروب وحكام للدنيا ، فلا غرو إذا منّ الله على السودان بهذا القائد العظيم ليخلف حبيبه رسول الله (ﷺ) أن يتطلع رجاله إلى القيادة والرياسة.

---

(١) ١١ ، الحجرات.

ووسط هذه المثيرات صعدت الروح الطاهرة إلى ربها ، بعد أن قدمت حكما إسلاميا عظيما وخلافة عن النبي الخاتم ، وهناك روايات عديدة متباينة هنا أقربها إلى التصديق أنه مات مسموما رحمه الله ، يقول مورهيد : (إن امرأة كان قد اغتصبها دست له السم ، وقيل إنه ظل يعاني آلام الاحتضار أسبوعا قبل أن يموت) انظر يا ابن أخي إلى هذا الافتراء الصراح !! هل نتصور هذا الرجل يغتصب امرأة ؟! وهل ضاقت سبل النساء حتى يلجأ المهدي - رحمه الله - إلى الاغتصاب !! إننا نستطيع ترجمة عبارة هذا المؤرخ البريطاني إلى الآتي : (إن الأفعى - أي انجلترا - حين أعيتها الحيل مع الثائر العظيم ، أغرت إحدى جواريه بأن تضع له السم ، ثم ادعت أنه اغتصبها) ولابد أن يكون للمنافق سلاطين وغيره من الذين تظاهروا بالإسلام دور في هذه المؤامرة.

والأفعى لا تتورع عن استخدام أي سلاح ضد الإسلام والمسلمين ، مهما بلغت خسته وحقارته وإجرامه ، إذا كانت قد وضعت السم في مياه الآبار لقتل الملا في الصومال وقتل رجاله ، فهل تتورع أن تفعل ما فعلت مع المهدي ، رحمة الله عليه وعلى المسلمين جميعا !! وأنى لأدعو أنصار المهدي ورجاله إلى مزيد من التحقيق لهذه القضية وغيرها ، لكي نقدم للعالم كله لائحة اتهام وثبت بالجرائم التي ارتكبتها الأفعى ضد المسلمين لنحذر منها ومن أمثالها.

على أية حال فقد مات محمد أحمد المهدي في التاسع من رمضان ١٣٠٢ - ٢٢ يونيه ١٨٨٥م ، أي قبل ما يقل قليلا عن قرن ونصف من الزمان ، وقد مات عن إحدى وأربعين سنة فقط ، وعاش مع ثورته أربعة أعوام ، وأرغم فيها أنف الاستكبار العالمي وأذنابه ، وأنزل بالكفار ومن والاهم أقسى الهزائم وأشدها مرارة في حلوقهم وتاريخهم.

وقفة مع الرجل :

لاشك أن ما سبق من الحديث عن المهدي وانتصاراته يكفي لإعطاء حكم موضوعي عن الثائر العظيم ، فنقول إنه عالم مجاهد ، أي من ورثة الأنبياء ، كما أنه من أقرب الناس درجة إلى النبوة ، يقول الحبيب (ﷺ) : (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به والرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل) ولقد جمع المهدي - كما رأينا ـ بين العلم والجهاد.

ولقد أسس هذا العالم المجاهد خلافة راشدة على منهاج النبوة ، فهو إذن : (خليفة راشد مهدي) وقد اقتبسنا هذه الاصطلاحات الثلاثة من حديث رسول الله : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي) وقد استخدم سعيد بن المسيب (رضي الله عنه) المصطلح الأخير للمهدي ، يصف به عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) وهو أمير على المدينة المنورة ، قبل أن تأتيه الخلافة.

أما أنه أسس خلافة راشدة مهدية فإنه قد أقام حكما إسلاميا ودولة قامت على الكتاب والسنة ، وفي نفس الوقت لم يكن فيها فصل بين القيادة السياسية والدينية ، ولم تكن وراثية ، كما كان العهد في دولتي الأمويين والعباسيين مثلا ، فقد كان المهدي ـ رحمه الله ـ كما كان رسول الله وحلفاؤه الخمسة من بعده ، يقودون الناس في الصلاة والجهاد ، دون أن يكون ثم فصل بين الدين والسياسة.

ومن ناحية أخرى فإن المهدي لم يعين أحدا من أبنائه خليفة له ، وكان الخلفاء الأربعة الذين اختارهم من بعده من غير أقاربه ، باستثناء ابن عمه محمد الشريف الذي كان رابع الخلفاء ، كما تولى الخلافة بعد وفاة المهدي عبد الله التعايشي ، وهو ليس من أقاربه أو حتى من قبيلته.

ونؤكد هنا مرة أخرى أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله (ﷺ) كانوا خمسة وليسوا أربعة كما يشيع بين كثير من الناس ، الذين يتجاهلون خلافة الحسن بن عليّ (ﷺ) ، والتي دامت سبعة أشهر قبل أن يسلم الأمر حقنا لدماء المسلمين.

كما نؤكد على أمر آخر ، وهو أن الخلافة الراشدة المهدية ليس المقصود بها تلك الفترة الزمنية التي حكم فيها الخلفاء الخمسة بعد الرسول (ﷺ) فقط بل هي نظام حكم ، إن قام بشروطه ودعائمه أطلق عليه ما ذكر من أوصاف ، فإذا أقام ابن فودي أو المهدي أو غيرهما حكما إسلاميا على منهاج النبوة والراشدين الخمسة ، فإن هذا الحكم يوصف بأنه خلافة راشدة مهدية.

وإذا قام حكم إسلامي ولكنه فصل بين الدين والسياسة ، وبخاصة في التطبيق أو كان وراثيا فهو دولة إسلامية ، أو كما أسماه الرسول (ﷺ) الملك ، وابرز مثال عليه ، حكم الأمويين والعباسيين ، وهو ما تنبأ به الرسول ، فقال : (الخلافة ثلاثون عاما ، ثم يكون بعد ذلك الملك) رواه أحمد بن حنبل.

على أية حال فإن الخلافة هنا هي خلافة عن رسول الله (ﷺ) في قيادة المسلمين في كل مناحي حياتهم ، دون فصل بين جانب وآخر ، دون فصل بين قيادة سياسية وقيادة دينية ، أو روحية.

ولقد حظي خليفة رسول الله الراشد المهدي ، محمد أحمد بكتابات كثيرة ، وحظي أيضا بافتراءات أكثر ، ولعلنا تعرضنا لبعضها ، ولكننا سوف نخصص عملا مستقلا لمناقشتها عندما نقوم بتقديم منشورات [1] المهدي وتحقيقها ، وهو أمل ندعو الله أن يعين على تحقيقه.

---

(١) قدم الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم منشورات المهدي في ثلاثة مجلدات ، ولكنها بحاجة إلى عناية أكبر من المسلمين.

عرابي والمهدي :

أعلن المهدي - رحمه الله - ثورته العظيمة في ٢٩ يونيه ١٨٨١م وفي نفس العام قام أحمد عرابي بحركته في الثامن من سبتمبر ، ولذا فالرأي أنه لا تأثير بين المهدية والعرابية ، وإن كان يمكن القول بأن الحركتين كانتا في السياق العام لانتفاضة العالم الإسلامي ضد مستعمريه المستكبرين والمستعبدين.

ولكن الملاحظ أن المهدي نجح في سحق إنجلترا ، وجرعها الهزائم المنكرة التي لم تذق مثلها في التاريخ ، في حين إن عرابيا - رحمه الله - هزم في المعركة الأولى مع الأفعى ، في التل الكبير ؟ فما السر ؟؟.

السر هو الفارق بين الرجلين ، كان المهدي - رحمه الله - من العلماء الرساليين ، ولم يكن أحمد عرابي كذلك ، برغم ما نظن من إخلاصه ، ونقاء سريرته مما جعل الاستكبار العالمي يتمكن بسهولة من الانتصار عليه.

ويتجسد الفارق بين العالم الرسالي وغيره في ثلاثة أمور مهمة :

١- إن العالم الرسالي لا ينادي بمطالب جزئية محدودة ، في حين يترك مكمن الداء وأسّه كما هو ، إنه يطالب باجتثاث جذور الشر والفساد ، لذا فإن المهدي أطاح بالحكم العفن المنتن في السودان مباشرة دون المطالبة بإسقاط وزارة وإقامة أخرى ، كما فعل عرابي ، إذ سمي مطلبين ، هما : إسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس النواب على النسق الأوروبي !! وافرحتاه ، ماذا نستفيد من إسقاط وزارة وإقامة أخرى !! وما قيمة مجلس النواب ، وعلى النسق الأوروبي !! إن العالم الإسلامي يزخر بمجالس النواب على هذا النسق يا أخي ، ولكنها أداة طيعة للحكومات ، ومطية ذلول لكل راكب من الحكام !! فما قيمة كل ذلك يا سيدي ؟؟

لقد كان على عرابي أن يعالج أساس المشكلة ، أو قل مشكلة المشكلات ، وهي النظام الآسن العفن الذي كان يتحكم برقاب شعبه ، وعلى رأس هذا النظام هذا الخديوي ، اللعبة السهلة في يد المستعمرين.

وهذا الدرس يجب أن يعيه كل المجاهدين ، إن الدماء الإسلامية لا تراق من أجل مطالب جزئية ، لا تلبث أن تتلاشى في ضجيج النظام الجاهل ، إن الجهاد ينطلق لتحطيم النظام الجاهلي ، وإقامة النظام الإسلامي على أنقاضه ، كما فعل النبي الخاتم (ﷺ) ومن تبعه على سنته ، وعلى سكته ومنهجه.

٢- يترتب على ما سبق أن العالم الرسالي لا يقبل أنصاف الحلول ، يتسم بالصلابة الشديدة ، لا يلين أمام جبروت الجاهلية وإرهابها ، قتله شهادة ، سجنه خلوة ، تركه سياحة في سبيل الله ، إذا قتل أعداءه فهو في الجنة ، وإذا قتله أعداؤه فهو في الجنة ، إذا هزم الأعداء فهو في الجنة ، وإن هزموه فهو في الجنة ، فلم يخاف إذن ؟؟

وقد يكون الزعيم مخلصا لبلده وشعبه ، ولكن الجاهلية يمكن أن تركعه وتخضعه بترغيبها أو ترهيبها ، ولا أدل على ذلك من رجال مثل مصدق ويني صدر - سابقا - إن الاستكبار العالمي يمكن أن يلوي ذراعهم ، أما العالم الرسالي المجاهد فإنه على العكس من ذلك يقف شديد الصلابة ، قاطعا كالسيف الماضي الحاد ، كالطور الشامخ الثابت أمام أعتى العواصف والأعاصير.

ولا يرجع هذا الموقف إلى تعنت أو عناد أو صلف أو غرور أو عدم بصر بعواقب الأمور ، إنما يرجع إلى سبب بسيط شديد البساطة ، إن العالم يضع أمامه الحكم الشرعي ، يراه واجب التنفيذ ، ويرى في تنفيذه - برغم الصعاب - طريق الانتصار

الذي لا يأتي إلا نتيجة لإتباع المنهج الرباني الذي وضعه الله لعباده ، وقام النبي الخاتم (ﷺ) بتنفيذه بكل حذافيره وبنوده.

لقد كان بني صدر مثلا يرى أن الحرب مع العراق قد استنفدت كثيرا من جهود الشعب الإيراني وثرواته ، وأراقت دماء عشرات الألوف من خيرة أبنائه ، في حين إن العلماء كانوا يرون أن هذه الحرب - مهما بلغت التضحيات - لابد أن تنتهي باجتثاث الخطر من جذوره ، فإنك إن أقمت صلحا مع هذا العدو فإنه لن يلبث - بعد أن يستعيد قوته - أن يهاجمك مرة أخرى ، بغية القضاء عليك ، وفي النهاية رجح رأي العلماء ، وهرب رئيس الجمهورية في زي امرأة إلى إحدى زعيمات الكفر ، إلى فرنسا !!

٣- إن العالم الرسالي يتمتع بنور البصيرة ، التي تتيح له أن يقيّم الأمور والرجال تقييما صحيحا ، ويأتي نور البصيرة من أربعة أشياء هي صفات ملازمة للعالم : (تقوى الله - قراءة القرآن الكريم - مطالعة حديث المصطفى - الإلمام بسيرة السلف الصالح) فتقوى الله (ﷻ) تقود إلى هدايته وعلمه ، (وَاتَّقُوا اللَّهَ (١) وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ (٢) لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

أما كتاب الله وسنة نبينا فيضمان منهج الله الذي أنزله لعباده ، هذا المنهج الذي يفهمه العالم جيدا ، ويعرف كيف يطبقه ، كما أنهما يضمان - إلى جانب سيرة السلف الصالح - معينا لا ينضب من قصص الصراع بين الحق والباطل ، بين الجاهلية والإسلام ، منذ آدم (عليه السلام) والأسلحة المستخدمة في هذا الصراع مما يعطي

(١) ٢٨٣ ، البقرة.
(٢) ٢٠٠ ، آل عمران.

العالم الرسالي ذخيرة لا تنفد من التجارب التي يستفيد منها في صراعه ضد أعدائه ، وهزيمتهم في النهاية.

فسيرة السالف الصالح مثلا ليست قصصا يحكى للإثارة والاستمتاع ، والاطمئنان بأن السلف قد قام نيابة عنا بالجهاد وإقامة الدين ، كلا ، إنما هي تجارب غنية ثرية نافعة يستفيد منها القادة الرساليون ، بلا شك ، وتكون سببا من أسباب تنوير بصائرهم ، ونؤكد على أنه ليس المقصود من السلف الصالح الصحابة ومن رآهم وسمع عنهم فقط ، بل سلفنا الصالح هم إضافة إلى الأنبياء (عليهم السلام) والنبي الخاتم بصفة خاصة - كل من تبعهم على سنتهم وهداهم إلى يوم الدين ، ومن هذا المنطق كان كتابي عن ابن فودي والمهدي - رحمهما الله - وما قاما به كتجارب يمكن أن تضيء للمسلمين طريقهم.

وإذا ما قارنا بين المهدي وعرابي - رحمة الله عليهما - وجدنا الأول يفهم تماما بنور بصيرته كل تحركات العدو ونواياه ، كما اهتم بالاستطلاع لمعرفة كل شيء عن محاربيه ، يحاول تطبيق المنهج الإلهي والسير على سكة حبيبه المصطفى (ﷺ) في كل خطوة من خطواته ، أما أحمد عرابي فإنه صدق ديليسبس الفرنسي حين تعهد له بعدم السماح للسفن البريطانية باستخدام قناة السويس ، فكانت الخديعة ، والحرب خدعة ، لقد قام الإنجليز باصطناع معركة وهمية في كفر الدوار قريبا من الإسكندرية في حين أنهم كانوا يعدون للمعركة الفاصلة هناك في أقصى الشرق ، عند التل الكبير ، ولم يستطع عرابي أن يتحرك بجيشه بالسرعة المطلوبة لمنازلة ولسلي الذي جاءه من طريق قناة السويس.

لقد كان عرابي ينظر إلى ديليسبس وحكومته الفرنسية على أنهم قوم محايدون منافسون لانجلترا ، ولم يضع القضية في إطارها الشرعي الصحيح ، لقد

كانت مواجهة بين الإسلام والكفر ، بين المسلمين في مصر وبين النصارى الكفر في إنجلترا ، ولا فرق بين الإنجليز والفرنسيين ، فكلهم في الكفر والعداء للإسلام سواء وإن كان لكلٍ أسلوبه في الكيد لديننا ، ولذا كان من الخطأ الفادح أن يعتمد عرابي في حربه مع الكفار على وعد من كافر مثل ديليسبس ، وما الفرق يا ابن العم بين ولسلي وهذا الديليسبس ؟؟.

ولقد كان قيام تحالف بين المهدي وعرابي - رحمهما الله - أمرا مفيدا ونافعا للجانبين ، ولكن الرجلين كانا يكنان لبعضهما التقدير والاحترام ، فقط أوصى المهدي جنده قبل اقتحام الخرطوم : (الغوردون - يا إخوتنا - لا تقتلوه ، بل اقبضوا عليه حيا واحضروه إلينا ، لأنه فيه فائدة عظيمة ، فإنا نريد أن نفتدي به رجلين عظيمين ، هما الزبير وعرابي).

وفي سيلان ، منفى أحمد عرابي دار هذا الحوار بينه وبين وزير خارجية إنجلترا روزبيري :

- الوزير : ما رأيكم في دعوة محمد أحمد المهدي ؟
- عرابي : وما يعنيكم من أمره.
- الوزير : إن أمره يهمنا كثيرا ، فإن لنا في الهند ستين مليونا من المسلمين وكلهم يعتقد أن المهدي يجمع شمل المسلمين.
- عرابي : إن هذا الاعتقاد يعتقده كل مسلم.
- الوزير : إذن ليس هو بمهدي.
- عرابي : كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدي.
- الوزير : إن الحكومة المصرية أرسلت جيشا من عشرين [1] ألفا لقتاله بقيادة

---

(١) يظهر أن هذا الحوار كان قبل كارثة شيكان وإبادة جيش هيكس.

رجل انجليزي اسمه هيكس ، فهل ترون أن هذا الجيش يكفي للتغلب على المهدي.

- عرابي : نحن نرى أن وجود قائد إنجليزي على رأس جيش مصري ، يكون من صالح المهدي ، فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون إخوانهم المسلمين تحت قيادة نصرانية ، ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة ، وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته كان قويا يخشى جانبه.
- الوزير : أي علاج في نظركم لإطفاء ثروته.
- عرابي : إننا نرى أنه قائم بدعوة دينية ، وعلاجها أن يرسل إليه وفد من أجلاء العلماء يحاجونه بالبرهان ، ويقنعونه بالحسنى فيما جاء بدعوته.

الخليفة عبد الله التعايشي

مات المهدي - رحمه الله - فعمت الكفار فرحة عارمة إذ أيقنوا أن الثورة سوق تنتهي حتما بوفاة قائدها ومفجرها ، وأن الاضطراب والفوضى سوف تسود العاصمة أم درمان ، ثم ينتهي كل شيء ، ولكن الفرحة لم تتم إذ اجتمع الخلفاء الذين اختارهم المهدي وقرروا بالإجماع مبايعة عبد الله التعايشي : (فكما أن النبي (ﷺ) لما انتقل قام بالأمر بعده خلفاؤه الكرام وأصحابه ، فكذلك خليفته المهدي ، فإن له به أسوة ، فلذا يقوم بأمر الدين بعده خلفاؤه وأصحابه ، حتى ينصر الله دينه ، ويفتح على أيديهم من المدائن ، ما لم يفتحه الله زمن المهدي).

وكان الخليفة عبد الله من قبيلة التعايشة ، البقارة - أي رعاة البقر - من أفقر القبائل الرحل في غرب السودان ، كان طويلا مهيب المنظر ، ذا لون أسمر داكن ، تتناثر في وجهه آثار الجدري ، ذا أنف طويل أشم ، ولحية قصيرة دب فيها الشيب ، شديد الحياء ، وكان متأثرا بجرح رصاصة في فخذه ، يتشوف دائما إلى أخبار الغزوات والبطولات.

ويجمع الأوربيون أنه كان يتسم بالدهاء والطاقة المتفجرة ، ويقال إنه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وقد سأل المنافق سلاطين مرة عما إذا كانت فرنسا [1] قبيلة !! على أنه من ذلك النوع الذي كان يشق طريقه في السياسة بالفطنة والإدراك الفطري كان جنديا ممتازا في حرب العصابات.

---

(١) هذه رواية آلان مورهيد في النيل الأبيض ، وهي إن صحت لا تضير الرجل ، وقد قال الله : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) فالناس إما قبائل وإما شعوب ، وإن كان العلماء قد ذكروا أن القبائل للعرب والشعوب للعجم ، أما أنه كان لا يقرأ ولا يكتب فهذا لا يعيبه فقد كان النبي (ﷺ) لا يقرأ ولا يكتب ، وكان العرب في جزيرتهم أميين ولكن الإسلام رفعهم إلى زعامة العالم وقيادته.

أما أنه كان شجاعا فأمر لا يحتاج إلى كلام ، إذ كان أنصار المهدي جميعا ذوي شجاعة فائقة ، كان الخليفة يقنع بالإقامة في بيت من طابقين ، في أم درمان العاصمة ، يحف به حرسه الخاص ورجاله ، كما ظل يرتدي الجبة المرقعة ، ويحرص على الذهاب إلى المسجد في الفرائض الخمس ليؤم المسلمين في الصلاة.

وقد انضم إلى المهدي رحمه الله ، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبا حين قدم نفسه للثائر العظيم قائلا : (أنا عبد الله بن محمد ... وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب ، فجئت لآخذ الطريقة عنك ، وكان لي أب صالح ، قال لي قبل وفاته : إنك ستقابل المهدي ، وتكون وزيره ، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته ، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها ، فابتهج قلبي برؤية مهدي الله وخليفة رسوله).

وقد أثبت منذ تلك اللحظة أنه من أشد الناس إخلاصا للثائر العظيم ، ثم عزز مكانته بالزواج من إحدى بنات [1] المهدي ، الذي رشحه لخلافته منذ حصار الخرطوم ، وكان شديد الوفاء للمهدي - رحمه الله - يسعى لإعلاء اسمه ومكانته ، حتى إن الشهرة التي أقامها الرجل لنفسه في حياته لم تكن تقاس بتلك التي استطاع خليفته أن يقيمها له بعد وفاته.

وقد دفن المهدي في أم درمان ، فلم يمض وقت طويل حتى توافد المسلمون من شتى الأصقاع ، حتى من بخارى وسمرقند ، ومن مكة نفسها ، لك الله يا بخارى وسمرقند !! يبقى نبض الإسلام يعبق في جنباتكما بعد اثنى عشر قرنا من الزمن أو يزيد ، رحم الله الفاتح الشجاع قتيبة بن مسلم ورجاله ، ولكن أين أنتما الآن يا بخارى ويا سمرقند !! ابتلعكما طوفان الأسر الذي أغرق مدائن الإسلام العظيمة في

(١) كما زوج النبي (ﷺ) عليا وذا النورين ، وتزوج بنتي الصديق وعمر (ﷺ) جميعا.

الشرق والغرب.

ويجوار قبر المهدي أعدت أرض فضاء لتكون مسجدا ، وكان لها سقف من حصر كبيرة ، أقيمت على أغصان متشعبة الأطراف ، فبدا المكان كأنه غابة ، يقول مورهيد : (وهناك كان الأنصار يجتمعون كل يوم بالآلاف ، فيجلسون على الأرض معقودي الساقين ، منكسي الأبصار لينصتوا إلى الخليفة ، ولم يكن أي أمير أو شيخ ذي مكانة يجسر على التغيب عن هذه الاجتماعات ، إذ كان عليهم أن يكونوا جميعا تحت بصر الخليفة ، وكان حضور الصلاة دليلا على الولاء).

وكان يعيش في أم درمان حوالي ثمانين من الأوروبيين ، ومن على شاكلتهم إضافة إلى المنصر أورفالدر ، والمنصرات الأربع اللاتي نجون من بعثته وكثير منهم من اليونانيين الذين أسروا من الباخرة عباس ، عندما قتل ستيوارت ، وكان بعضهم - أي الأوروبيين - مثل مارتن هانسال نجل القنصل النمسوي قد أسر في الخرطوم ، في حين كان غيرهم مثل تشارلز نيوفيلد الألماني من الذين جاءوا بأمل الاتجار في السودان.

وقد تظاهر كثير من هؤلاء الأوربيين باعتناق الإسلام ، إنقاذا لحياتهم ، فسمح لهم بأن يكسبوا عيشهم بصناعة بعض السلع التجارية البسيطة ، وبيعها في السوق وعمل لبتون حاكم بحر الغزال سابقا - في ترسانة السفن ، ثم مات ١٨٨٨م.

أما سلاطين فقد أصبح مترجما للخليفة وياورانا ، ينام خارج خيمته ، ويجرى بجوار جواده في الاستعراضات العسكرية ، يجلس أمام الخليفة معقود الساقين خلال الاجتماعات المهمة وغير المهمة ، وكان هذا المنافق شديد الخطورة على دولة الخلافة في أم درمان ، حيث عرف كل أسرارها ، ثم هرب ، كما سنعرف.

أما المنصرات صواحب القسيس أورفالدر فقد كن أشرف وأشجع من الرجال الذين نافقوا ، فقد رفضن اعتناق الإسلام ، مصرات على طريق واحد واضح نحو جهنم ، وقد سمح لهن بأن يعشن مع الجالية اليونانية ، وأن يتكسبن بحياكة الجبب ، وكان كل أوروبي يحلم بالهرب ، ولكن مئات الأميال في الصحراء كانت تفصلهم عن الحدود المصرية ، تحتاج إلى الإبل والأدلاء ، وهو ما لا سبيل إليه.

وكان من الخطأ أن تترك دولة الخلافة هذه الجالية من نصارى أوروبا ، وبخاصة من اعتنقوا الإسلام نفاقا ، كان من الخطأ الفادح تركهم يعيشون في العاصمة ، وبجوار الخليفة ، فقد هرب مترجم الخليفة وياورانه سلاطين وتبعه المنصر أورفالدر ، وأعطيا الانجليز أسرارا ثمينة.

على أية حال فقد اتسعت أم درمان عقب فتح الخرطوم ، فأصبحت مدينة كبيرة ، تمتد ستة أميال على ضفة النيل ، وتتألف من عدد كبير من الأكواخ ، يسكنها حوالي مائة وخمسين ألفا أو أكثر ، وكانت الحركة دائبة في المدينة ، ففي شوارعها يختلط الناس من خمسين قبيلة ، والقوافل لا تنفك تصل على الطريقين التجاريين ، من كردفان في الغرب ، وبربر في الشمال.

كذلك كانت ثمة تجارة غير منتظمة لنقل البضائع عبر الصحراء إلى البحر الأحمر والحدود الجنوبية لمصر ، أما خطوط البرق فقد أتلفت خلال المعارك عدا الخط الممتد تحت النهر من الخرطوم إلى أم درمان ، فكانت الرسائل تنقل على ظهور الإبل.

وفي أبريل ١٨٨٦م زار أورفالدر الخرطوم فوجد أن معظم الأبنية المهدمة قد أصلحت ، وأقام بالمدينة بعض الأمراء والتجار ، ولذا اضطر الخليفة إلى إخلائها

وهدمها عدا قصر غوردون ، ليبقى عظة وعبرة ، وكنيسة الإرسالية النمسوية ، لأن الإسلام يحرم هدم الكنائس القائمة ، وإن كان يحرم ترميمها وإصلاحها ، كما يمنع إقامة الكنائس الجديدة ، كما أبقيت الترسانة النهرية ، ومصنع الذخيرة.

وكان الغرض من هذا الإجراء فيما يبدو تثبيت دعائم الدولة الجديدة بالقضاء على رموز النظام البائد ، وأهمها العاصمة ، وأن تبقى أم درمان - دون غيرها - حاضرة الدولة ، فلعل الخليفة خشي أن يترك القوم أم درمان وجوارها إلى الخرطوم ، ويصبح وحده [1] في عاصمته.

ولم يكن الخليفة يفارق أم درمان ، حيث يجلس وسط نسيجه السياسي ، يحف به رجال دولته ، وكانت له شبكة من الاستخبارات منتشرة من العاصمة إلى أقصى المديريات تمده بالأنباء ، وباتت أيامه متشابهة ، يستيقظ في الفجر فيسعى إلى الصلاة في المسجد ، ثم يعود إلى داره ، وبعد أن يجتمع بأركان دولته كان ينطلق يتفقد جنوده في أطراف المدينة ، يتقدمه علمه الأسود الكبير.

وكان يوم الجمعة ذا نظام خاص ، ينطلق فيه فرسان يصل عددهم إلى خمسين ألفا ، راكضين نحو العلم ، شاهرين سيوفهم ، يطلقون بنادقهم في الهواء ، ويتلو ذلك الإفطار ، وبعد الجمعة كان الخليفة يعقد مجلسه العبادي السياسي ، حتى إذا فرغ عاد إلى داره ، أو جلس يصرف الأمور في بيت المال ، وبعد صلاة المغرب كان يدلي بمزيد من الأحاديث والتصريحات ، وبعد تناول العشاء كان يذهب ليؤم المسلمين في الصلاة الأخيرة - صلاة العشاء - ثم يأوي الخليفة إلى فراشه ، فلا يشاهد إلا في فجر اليوم التالي.

---

(١) أو لعله خشي من أن تتخذ الخرطوم وكرا للمؤامرات ضد دولته.

أما حرس الخليفة فقد بلغ خمسمائة رجل من الفرسان ، يركبون خلفه ، فقد كان المسلمون يولونه من الإجلال والتوقير ما كانوا يولونه للمهدي ، رحمه الله.

ولقد كان بوسع الخليفة بعد فتح الخرطوم بسنتين أن يطمئن إلى استقرار دولته ، فإن الحاميتين المصريتين في كسلا وسنار باتتا في حكم العدم ، من جراء الجوع والموت ، وبرغم استماتة البريطانيين في الاحتفاظ بميناء سواكن ، إلا أن بقية الساحل السوداني بأكمله حتى مصوع تقريبا كان في قبضة عثمان دنقة.

وكان عبد الله النجومي في الشمال ينفذ مع جيش من عشرة آلاف رجل إلى داخل مصر ، عند تخوم وادي حلفا ، وأصبح الخليفة يسيطر على دولة أكبر من تلك التي كانت في عهد المهدي ، ولقد اتسعت دولة الخلافة حتى أصبحت نصف حجم أوروبا ، وقد أرسل إلى الملكة فيكتوريا خطابا يدعوها إلى الإسلام ، كما أرسل خطابين إلى السلطان عبد الحميد وإلى الخديوي.

وقد حمل هذه الرسائل الثلاثة أربعة من المسلمين ، استقبلهم الخديوي في القاهرة ، وبعد إمهالهم فترة ، أو قل إهمالهم ، ردت إليهم الرسائل مع جواب شفهي بأن أحدا من العواهل الثلاثة ما كان ليتنازل بالرد ، فعاد الوفد إلى السودان.

وكان هذا الرد من القاهرة آية واضحة على أنها لا تملك من أمر نفسها شيئا بل إن الأمر كله في يد لندن التي تقرر ما تشاء ، وما الخديوي وأضرابه في عاصمة المصر الجليل إلا قطع خشبية تحركها الأصابع الصليبية في عواصم الكفر الأوروبية ولا شك أن وفد الخليفة قد أمهل فترة ليستشير القوم ساداتهم الانجليز قبل أن يردوا على رسائل الخليفة الذي تواضع فأرسل إلى أمثال الخديوي الألعوبة ، وفيكتوريا الكافرة.

وبرغم هذا فقد كان هناك خوف حقيقي من اجتياح القوات الإسلامية لدلتا مصر ، فإن النجومي استطاع فعلا أن يتقدم ثمانين ميلا ، داخل الأراضي المصرية حتى سنة ١٨٨٨م ، ليس هذا فحسب ، بل إن الخليفة كان بعد العدة للزحف جنوبا ، بعد أن أخضع قبائل الشلوك والدنكة جنوب الخرطوم.

وغزا مديرية خط الاستواء ، فتقهقر المنافق شنيتزر - آخر من بقوا من جوقة غوردون الصليبية التي زرعها في قلب السودان - جنوب النيل الأبيض حتى بحيرة ألبرت ، وقرر الخليفة أن يسحق المنافق ، فأرسل في يونيه ١٨٨٨م ثلاثة بواخر ، وصفا من المقطورات تحمل أربعة آلاف مقاتل من الخرطوم ، ليجتازوا الشلالات حتى دوفيلة ، ثم يستمروا في التقدم حتى منبع النهر في أوغندة.

وقد سار الخليفة على نهج المهدي - رحمه الله - بتطبيق الحدود الشرعية بحزم شديد ، يقول مورهيد : (ولم يكن من ملاذ من هذه العقوبات - يقصد الحدود - إلا بالالتجاء إلى الخليفة ، الذي كان كثيرا ما يأبى التدخل) فلا شفاعة لأحد - ولو كان الخليفة - في حد من حدود الله ، ويضيف مورهيد : (وقد ظل الخليفة يفرض الشريعة الإسلامية في أقصى مظاهر التقوى).

ووسط ضجيج العداء ضد الإسلام ، وضد خليفة المسلمين نستطيع العثور على تقييم موضوعي للخلافة المهدية ، يقول مورهيد :

(لا سبيل إلى الإنكار أن المهديين كانوا بمعاييرنا [(١)] بدائيين وقساة ومتعصبين إلى حد يفوق التصور ، ولكن الواجب الإقرار بأن الخليفة التعايشي نجح في إقامة دولة أكثر تماسكا بكثير مما كان معاصروه النصارى مستعدين للاعتراف به ، فلو أن دولته كانت تحكم بالجشع وعداء الإنسانية والمشاعر الفجة فقط لما استطاعت أن

---

(١) المعايير الأوروبية الصليبية.

تبقى المدة الطويلة التي استمرتها ، كما كان الشعب - في مجموعه - لا يصرخ مطالبا بالتحرر ، كما يحلو للأوروبيين أن يتصوروا ، وفي أواخر عهد الخليفة لم تكن ثمة هجرة جماعية من السودان ، ولا يقارن الحال بما كان عليه تحت حكم المصريين ، ولو لم يتدخل الأوربيون في السودان لكان من المؤكد أن يستمر الشعب في تقبل حكم الخليفة).

سواكن :

بعد فتح الخرطوم سقط شرق السودان بأكمله في يد القوات الإسلامية ، وأصبح تحت سيطرة عثمان دنقة ، عدا سواكن التي بقيت بأيدي القوات الحكومية.

وقد أمكن بفضل تعاون الأحباش - طبقا لمعاهدة عدوة - انسحاب حامية القلابات فوصلت مصوع في مايو ١٨٨٥م مع حامية المتمة التي احتلتها القوات الإسلامية بقيادة محمد رباب الخامس من مارس ١٨٨٥م.

ثم انسحبت حامية عمديت ، ووصلت مصوع في ١٠ أبريل ١٨٨٥م ، كذلك أخليت سنهيت ووصلت حاميتها إلى مصوع أيضا في نفس الوقت ، أما حامية الجيرة فقد انسحبت في ٨ يولية ١٨٨٥م.

واستسلمت كسلا في يوليو من نفس العام بعد صراع دام أكثر من عام ، بعد أن نفدت فيها الأقوات ، على الرغم من الخدمات التي قدمتها قبيلتا الحلانجة وبني عامر المجاورتان في الدفاع عن المدينة ضد الزحف الإسلامي ، وقتل مدير كسلا أحمد عفت وجميع معاونيه.

أما الأحباش فقد تسلموا مقاطعة باغوص في ١٢ سبتمبر ١٨٨٥م طبقا لنصوص معاهدة عدوة ، وكانت القضارف قد سلمت في أبريل ١٨٨٤م ، وهكذا

أصبح عثمان دنقة يسيطر على كل المنطقة المجاورة لسواكن ، وبات من الضروري أن يضع الخليفة يده على هذا الميناء ، لأنه يمكن أن يكون نقطة وثوب على دولته وبرغم أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه ، إلا أنه أصبح يسيطر على شرق السودان بعد فشل حملتي بيكر وغراهام في التصدي لعثمان دنقة.

وقد حظيت الحملتان بانتقادات كثيرة ، وبخاصة الأخيرة ، التي اكتفت بالتهويش ، ثم هرولت متراجعة إلى سواكن ، دون أن تحقق الغرض من إرسالها ، فقد بقي عثمان دنقة يتمتع بحرية الحركة ، ومن ذا يستطيع أن يقيد حركته يا ابن العم ؟ ولم يتم إنقاذ سواكن وتأمين مصر من الغزو عن طريق الصحراء وساحل البحر الأحمر إلا بسبب بعض القبائل العميلة ، التي بقيت على ولائها للحكم العفن المنتن.

ولم يفتح طريق سواكن بربر ، ولم يمتد الخط الحديدي سوى مسافة قصيرة خلاصة القول أن الأغراض التي نصح ولسلي من أجلها بإرسال حملة غراهام إلى شرق السودان لم يتحقق منها شيء.

وقد تسلم هندرسون مقاليد الأمور من غراهام في سواكن ، وبانسحاب الأخير عثمان دنقة إلى طماي مرة أخرى ، واشتدت سيطرته على شرق السودان.

كان هذا الموقف عندما تسلم التعايشي زمام الأمور في أم درمان ، وما لبث عثمان دنقة أن انتقل إلى كسلا بعد استسلامها ، وبعد أن التفت حوله قبائل الامرار والهدندوة ، وفي ١٩ أغسطس ١٨٨٥م استسلمت حامية سنار.

وفي نهاية عام ١٨٨٦م كانت أعمال الدفاع حول سواكن قد أخذت شكلها النهائي ، بعد أن تمكن المحافظ الجديد العقيد كِتشنر من إقامة خطي دفاع ، أحدهما

خارجي مكون من هاتين وهندوب والمنصورة وطماي ، والآخر داخلي لحماية موارد المياه ، وبرغم هذا تمكن عثمان دنقة من إحكام قبضته على سواكن ، وحصر القوات المصرية داخل الأسوار ، ولم يكن أحد يجرؤ على الابتعاد عن أسوار المدينة ، ولو لبضع خطوات ، فكان نفوذ المحافظ يقتصر على الميناء وعدد من الجزر والموانى الصغيرة على طول الساحل ، وعسكرت القوات الإسلامية في هندوب ، على مرمى النيران من سواكن ، واتخذ عثمان دنقة من طوكر مركزا للقيادة.

وعندما يئس كتشنر من الحصار أراد القيام بمغامرة أسطورية فقرر مهاجمة القوات الإسلامية لأسر هذا الدنقة الذي لا يهزم ، وفي صلاة فجر السابع عشر من يناير ١٨٨٨م فاجأ كتشنر المسلمين في هندوب وهم يؤدون الصلاة ، فترك القوم مناجاة ربهم لملاقاة عدوهم ، وعلي ضوء الفجر المتزايد انكشف العدو ، ولقي درسا جديدا ، فكانت علقة ساخنة ، أصيب فيها كتشنر ، ولكنه هرب بجلده ، وفشلت خطته الطموح في أسر دنقة.

وفي مارس حصلت القوات الإسلامية على تعزيزات جديدة ، وأصبح من الواضح أنها تخطط لهجوم أخير للاستيلاء على سواكن ، فشددت الحصار على المدينة ، وفي سبتمبر اقتربت الحشود الإسلامية من الأسوار ولم يعد يفصلها عنها غير أقل من كيلو ونصف ، ولولا مدافع الأسطول ، ووصل الإمدادات عن طريق البحر لاستطاع المسلمون اقتحام المدينة.

ومع هذا صمم عثمان دنقة على الاستيلاء على سواكن ، وتمكن من قطع كل اتصال بين المدينة والداخل فاضطرت القاهرة العامرة دائما بالعقول التي كانت دائبة على حرب الإسلام والمسلمين ، اضطرت إلى إرسال تعزيزات سريعة إلى كتشنر ، وحضر السردار غرانقيل ـ قائد الجيش المصري ـ ليقود بنفسه العمليات ضد دنقة.

وفي ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨م كان الهجوم المرتقب على القوات الإسلامية في معركة الجميزة ، التي تأكد فيها هذا الغرافيل مَنْ عثمان دنقة الذي فشل في التغلب عليهَ ثلاثة من القادة الإنجليز بيكر وغراهام وكتشنر ؟ وتقول المراجع المصرية : (إن عثمان دنقة هزم في هذه المعركة ، ولكن غرانفيل أوقف المعارك ، باعتبار أن المعركة دفاعية في المقام الأول) ولا أفهم كيف يوقف المنتصر المعارك ، وقد جاء للقضاء على القائد الموهوب ، عثمان دنقة ؟؟

وهنا أرادت الحكومة المصرية أن تفاوض هذا القائد الموهوب لتخفيف الضغط على سواكن ، ولكن إنجلترا رأت أنها غير مجدية ، وكان كرومر يرى أنه ليس لدى القاهرة الشروط التي يمكن أن يقبلها عثمان دنقة أساسا للتفاوض ، وكان الرجل على حق ، فالمجاهدون لا يفاوضون ، ولا يقبلون أنصاف الحلول ، ولا يعرفون موائد المفاوضات عند اشتداد المعارك.

نهاية المنافق شنيتزر:

ذكرنا أن هذا الرجل غير اسمه إلى محمد أمين متظاهرا بالإسلام ، وقد ظل متشبثا بمديرية خط الاستواء حتى أرسلت إليه مصر وإنجلترا بأن غوردون قد مات وأن الحكومة قررت إخلاء السودان ، وقد صدرت إليه التعليمات بأن ينسحب بحاميته إلى الساحل الشرقي ، لأن مصر لم تعد قادرة على عمل شيء لهم.

وكان القرار صائبا ، ولكن شينتزر أصر على البقاء ، وعدم مغادرة مديريته فقاد ستانلي حملة من القاهرة حيث اقتاده ومن معه من الحامية المصرية ، وفي ١٦ يناير ١٨٩٠م عادت الحملة المشئومة إلى القاهرة ، وقد مات نصف رجالها ، وترك

شنيتزر في باجا [1] مويو مهشم الجمجمة ، أما الحامية المصرية فلم يعد من رجالها العشرة آلاف سوى مائتين وستين رجلا !!.

وعندما شفي المنافق دخل في خدمة الحكومة الألمانية ، فرأس حملة ألمانية وصل بها قريبا من نهر الكنغو ، وهناك هجم عليه جماعة من الناس فذبحوه في خيمته في أكتوبر ١٨٩٢ ، فمات عن اثنين وخمسين عاما ، ودفعت له الحكومة المصرية ، أو قل لأسرته مبلغ ٥٢٠٠ ج ، لقاء عمله في مديرية خط الاستواء !! كم أنت كريمة يا مصر ، ولكن مع الأعداء فقط !! أحيانا.

استدراج العثمانيين :

كانت انجلترا تميل إلى إشراك العثمانيين في قمع الثورة في السودان ، فعهدت إلى هنري دزموند بمهمة الاتفاق مع الباب العالي للاستعانة به في إيجاد حل للمشكلات التي نشأت في مصر والسودان ، وكانت تعليمات لندن إلى هنري تؤكد رغبة إنجلترا في الاستعانة بمركز السلطان ، باعتباره صاحب السيادة الشرعية ـ أو قل الاسمية ـ في مصر ، بموجب المعاهدات.

وأشارت التعليمات أيضا إلى أن الغرض من الحصول على تأييد السلطان هو أن يسهم نفوذ الخليفة السياسي والديني على المسلمين في تهدئة الثورة ، وهددت التعليمات أنه إذا رفض الخليفة التعاون فسوف تلجأ الحكومة البريطانية إلى وسائل من أجل الدفاع عن تأسيس حكومة وطنية في السودان من غير المهديين ، تكون موالية للانجليز ، أو الاستعانة بدولة أجنبية ، وهو ما سيضعف الرابطة التي تربط بين مصر والباب العالي.

---

(١) على سواحل زنجبار.

وفي ٢٢ أغسطس ١٨٨٥م وصل الهنري المبعوث إلى استنبول ، وبعد مفاوضات استمرت شهرين ، وقع مع وزير الخارجية العثمانية اتفاقا في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥م ، تقرر بمقتضاه أن ترسل كل من الحكومتين مندوبا ساميا إلى مصر ، على أن يقوم المندوبان بالاتفاق مع الخديوي على إعادة تنظيم الجيش المصري ، والنظر في جميع مصالح الإدارة ، وإدخال الإصلاحات التي يرونها ضرورية ، ونصت المادة الحادية عشرة من هذا الاتفاق على أن يقوم المندوب العثماني بالتشاور مع الخديوي في أفضل الوسائل لإعادة الهدوء والسكينة إلى السودان بالطرق السلمية.

وتنفيذا لهذا الاتفاق اختارت الخلافة العثمانية أحمد مختار مندوبا عنها ، ومثل هنري انجلترا ، وكان كل هذا محاولة لاستدراج السلطان العثماني كي يأخذ على عاتقه تحطيم الخلافة الإسلامية في أم درمان ، والقضاء على الخليفة عبد الله التعايشي.

وتقابل المندوبان الساميان في القاهرة في ديسمبر ١٨٨٥م ، وعكفا على بحث الأمور التي نصت عليها الاتفاقية ، ومنها الوضع في السودان ، حيث اتضح أنه ليس للباب العالي أي نفوذ ديني في البلاد ، يمكن للمندوب العثماني أن يعتمد عليه ، أو يساعد في حل المسألة.

يقول كرومر : (لقد كان من الصعب على أحمد مختار وغيره من العثمانيين أن يعترفوا بأن هناك مسلمين يرفضون الاعتراف بالسلطان خليفة عليهم ، ولكن كل شخص في مصر كان يعلم تماما أن المهدي قد ساوى بين النصارى وبين الأتراك ، وأن استخدام اسم السلطان في السودان يُعدّ وهْما).

على أية حال فقد فشلت محاولة استدراج الدولة العلية إلى الصراع ضد

الخلافة في أم درمان ، فقد كانت وجهات النظر مختلفة منذ البداية ، كانت إنجلترا ترى الاحتفاظ بموقف دفاعي في مصر ضد أي هجوم محتمل من قبل القوات الإسلامية ، سواء بالاشتراك مع الدولة العلية ، أو عن طريق إقامة حكومة وطنية ، موالية للانجليز في السودان ، من عناصر مسلمة معتدلة.

وكانت وجهة نظر كرومر التي بعث بها إلى رئيس الوزراء في لندن هي أن الصعوبات التي تواجه الحكومة المصرية من جراء وجود المهديين على حدودها ليست جديدة ، فقد سبق للحكومة البريطانية أن عالجتها في الهند ، مؤكدا - أي كرومر - أنه ليس في وسع الحكومة إلا أحد أمرين :

١- الدفاع عن حلفا وسواكن.
٢- إتباع خطة هجومية شاملة ، تؤدي في النهاية إلى إعادة احتلال السودان ، الأمر الذي يتطلب نفقات باهظة تنوء بها الخزانة المصرية ، لذا رأى التزام سياسة الدفاع.

أما المندوب العثماني فقد كان يرى ضرورة احتلال دنقلة لتكون قاعدة للعمليات العسكرية ضد المهديين ، على أن يضطلع بهذا العبء جيش مصري خالص وكان المندوب العثماني قد فشل في الوصول إلى اتفاق مع المهديين حين أوفد في مايو ١٨٨٦م في محاولة للتفاوض تنفيذا لاتفاق ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥م ، الذي نص على وجوب إعادة الهدوء إلى السودان بالطرق السلمية.

وكان هذا الأمر طبيعيا ، فإن منطق المهديين الجهادي لم يكن ليقبل بالحلول الوسط ، أو الحلول السياسية ، يقول كرومر : (كان لابد من بذل المحاولة لإقناع الذين يأملون في نجاح المفاوضات بعقم هذه الجهود ، فقد كان واضحا لكل من يقف

على حقيقة الحركة المهدية أن بعثة يوسف [1] شهدي مصيرها الإخفاق) وكان من المؤسف أيضا ألا يستطيع الطرفان المسلمان - وقد التقيا وجها لوجه - أن يتفاهما ، لقد شوش عليكم الأعداء يا مسلمون ، فوا أسفاه ، وواحسرتاه !!.

محاولة فتح مصر:

منذ أن استقر المهدي - رحمه الله - في أم درمان - وهو لا يفتأ يردد اعتزامه فتح مصر والعالم ، وكخطوة أولى في هذا الاتجاه أوفد قوة كبيرة من الفرسان لتعقب ولسلي شمالا حتى وادي حلفا ، كما سنفصل فيما بعد ، ولقد كان الثائر العظيم على حق تماما في ضرورة فتح مصر لحماية الدولة الإسلامية ، وإلا فإنها ستبقى رأس حربة ، ونقطة وثوب على الحكومة الجديدة في أم درمان ، وهو ما أثبتته وقائع التاريخ ، كما سنعرف في موضعه.

ولكن الثائر العظيم - رحمه الله - أرسل إلى الخديوي قبل أن يتحرك إلى مصر بل قبل أن يبارح الخرطوم ويستقر في عاصمته الجديدة ، وكان هذا تواضعا شديدا منه وحسن ظن بهذا النوع من المتحكمين برقاب الشعب المصري ، وهاك الرسالة :

من العبد المعتصم بالله ، محمد المهدي بن عبد الله ، إلى والي مصر ، لا يخفى على من نوّر الله بصيرته ، وشرح صدره أن الدين الذي يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو دين الإسلام ، الذي جاءنا به نبينا محمد (ﷺ) ونزل به القرآن من الملك العلام ، قال تعالى : (إنَّ الدِّينَ عِندَ اللـهِ [2] الإِسْلَامُ) وقال تعالى : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ [3] مِنْهُ) وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه

---

(١) المندوب العثماني الذي ذهب لمفاوضة المهديين.
(٢) ١٩ : آل عمران.
(٣) ٨٥ ، آل عمران.

الشيطان حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

ومن منحه الله عقلا يوازن به بين الخبيث والطيب لا ينبغي له أن يصرفه إلا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الأقدام ، ويشيب الطفل ، ويشتد الزحام ، وإلا كان أسوأ حالا من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه ، ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه ، وإحياء سنة نبيه وأمته ، وإماتة ما حدث من البدع والضلال ، والإنابة إليه ـ تعالى ـ في كل الأحوال ، وقد تأكد ذلك في كل هذا الزمان ، الذي عم الفساد فيه سائر البلدان ، فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام وضلالاتهم بقين ، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الإسلام ، واشتد الكرب على أهل الإسلام والإيمان ، فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان.

فعند ذلك أظهرني الله ـ طبق الوعد الصادق ـ رحمة لعباده ، لأنقذهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وأدلهم إلى الله ، على هدى منه وتبيان ... وما كنت أترقب هذا لنفسي ، ولا سألت الله إياه ، بل كنت أسأله أن يجعلني معينا لمن يقوم به ، فلما أراد الله ... قمت بأعباء هذه الحالة ، واعتصمت بالله ، وتوكلت عليه ، وأخبرت الحكمدارية ... وقد كان بها محمد رءوف ، وما تركت لأهلها في إيضاح هذا الأمر شيئا ... فما كان منهم إلا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحا ، وطووا عن قبوله كشحا ، وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت في هذا الأمر الديني الذي جئتهم به من خير البرية ، فأيدني الله عليهم ، كما وعدني.

وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة ، وأقدم لهم الإنذارات ولا تنفعهم ، والله يؤيدني وينصرني عليهم ـ كما وعدني ـ ويقطع دابرهم ، إلى أن قلت حيلتك ، وتلاشى أمرك ، فسلمت أمر أمة محمد (ﷺ) لأعداء الله الانجليز ، وأحللت لهم

دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الإنجليز بكبرهم وخيلائهم ، واعتمادهم على غير الله ، فلما سول الشيطان لهم ، واستولى على إدراك غوردونهم بالخرطوم ، وأيست من هداية أهله ، وعلمت أن تكرار الإنذارات لا تنفعهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله (ﷻ) في شأنهم : (وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ [1] أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) عجّل الله بفتحه ، وإهلاك من فيه ، وأحرقت النار أجسادهم عيانا كالذين من قبلهم إظهارا للحقيقة ، وتعجيلا للعقوبة ، وصدق عليهم قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ [2] بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً).

ثم أنذرت الانجليز فلووا رءوسهم ، فوجهت إليهم طائفة من الأنصار ، فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين ، بعد أن أهلك الله منهم من أهلكه ، وشتت شملهم ، وهذا كله غير خاف عليك ، ولا زال حزب الله مقتفيا أثر باقيهم ، وعن قريب يحل الله من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر ، وإن المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ، ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذي مآله إلى الزوال ، وعظيم النكال ، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال في دار الكرامة والأفضال ، فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر ، ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت - أو عزل - من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك.

وحيث كان الأمر كذلك ، فلا ينبغي لك إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ، ولو كان الدنيا بحذافيرها ، فدقق النظر ، واجمع عليك فكرك ، وتدارك نفسك ، واسع فيما عند ربك إذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك ، وسلم الأمر إليه تسلم.

---

(١) ٦ ، البقرة.
(٢) ٤٤ ، الأنعام.

وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد (ﷺ) !! ألم تسمع قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [1]) وقوله تعالى : (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ [2] أَبْنَاءهُمْ ...) وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ [3] أَوْلِيَاء - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم [4] بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ).

فإن كنت ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته ، فاعتبر بذلك ، وبادر إلى النجاة والسلامة المعتبرة ، وهي سلامة الإيمان ، ونزه نفسك من أن تكون في أسر أعداء الله دائما ، ولا تهلك من كان معك من أمة محمد (ﷺ) واغسل ما جرى منك بدموع الندم ، ولا تكترث بجاه الدنيا الفاني ، ولا بملكها الزائل ، فإن لله دارا خيرا منها ، وقد أعدها لعباده المتواضعين ، وإياك والركون إلى علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال ، حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكون ، كما أهلكوا من قبلك ، ولا تغتر بقوة حصن بلدك ، وكثرة أسلحتك ، وعددك الظاهرية ، ومظاهرة دول الكفر لك ، فإنها لن تغني عنك من الله شيئا ، وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة ، ومن هو أشد قوة وأكثر جمعا ، لما بغوا وعتوا في الأرض مفسدين.

وليكن في علمك أن أمرنا هذا ديني ، مبني على هدى من الله ، ونور من رسول الله (ﷺ) ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرة وباطنة ، وما قصدنا منه إلى إحياء

---

(١) ٥١ ، المائدة.
(٢) ٢٢ ، المجادلة.
(٣) ١ ، الممتحنة.
(٤) ١٠٠ ، آل عمران.

الدين ، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ، ولا نريد مع ذلك ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا فإن نور الله بصيرتك ، وخالفت النفس الأمارة بالسوء ، وقبلت هدينا هذا ، وأنبت إلى الله بنية خالصة إلى المحبة الخالصة لوجهه تعالى ، ونكون جميعا يدا واحدة على إقامة الدين ، وإخراج أعداء الله من المسلمين وقطع دابرهم واستئصالهم إلى أن ينيبوا ويسلموا.

وقد حررت لك هذا الكتاب - وأنا بالخرطوم - شفقة عليك ، وحرصا على هدايتك ، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله ، ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين ، وها أنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب - إن شاء الله - فإن أمر السودان قد انتهى ، فإن بادرتني بالتسليم لأمر المهدية ، والإنابة إلى الله رب البرية ، فقد حزت السعادة الأبدية ، وأمنت على نفسك ومالك وعرضك ، أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك ، وأن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد ، فإنما عليك إثمك وإثم من معك ، ولابد من وقوعك في قبضتنا ، ولو كنت في بروج مشيدة وهذا إنذار مني إليك ، وفيه الكفاية لمن أدركته العناية ، والسلام على من اتبع الهدى.

هذا هو نص رسالة المهدي - رحمه الله - إلى الخديوي ، فهي تلقى ردا عليها ؟ أو قل هل قرأها هذا الخديوي ؟؟ ولكنها على أية حال إنذار أخير عملا بقوله تعالى : (فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى [1] سَوَاءٍ) وبالطبع لم يكن بين الرجلين عهد ولا ميثاق ، ولكن الإمام المهدي - رحمه الله - أراد أن يؤكد لهذه اللعبة الجالسة على العرش أنه قادم لفتح مصر ، لا محالة ولنعد إلى مطاردة القوات الإسلامية لحملة ولسلي فنعطي بعض تفاصيلها ، كما يلي :

---

(١) ٥٨ ، الأنفال.

في شهر مايو ١٨٨٥م علم المهدي - رحمه الله - أن الإنجليز سيخلون دنقلة فأسند أمر تعقبهم إلى أمير بربر الذي لم يكد يصل إلى مروى حتى مات الإمام المهدي في ٢٢ يونيه ، فتوقفت الاستعدادات مؤقتا ، ثم ما لبثت مقدمة القوات الإسلامية أن دخلت دنقلة في ٢٦ أغسطس ، وفي نهاية أكتوبر وصل أمير بربر إلى دنقلة ، وعقب وصوله أمر القائد عبد المساجد أن يتقدم ومعه القوة الضاربة لمناوشة الجيش المصري على الحدود ، وأخذ أمير بربر يستعد للحاق به.

وفي أوائل ديسمبر ١٨٨٥م تمكنت القوات الإسلامية من احتلال كوشة وجنس ، وكذلك المنطقة الغربية من النيل تجاه جنس ، وفي ٣٠ ديسمبر قامت القوات المصرية والانجليزية بحركة (تهويش) يائسة فهاجمت المواقع الإسلامية في كوشة وجنس ، فأخلى المسلمون الموقعين ن وقد أبلى الجنود والضباط المصريون بلاء واضحا في هذه المعركة ، وقد أشادت الأوامر العسكرية بالعقيدين حسن رضوان من المدفعية ، وأحمد فهمي من أركان الحرب !!.

وعلى الرغم من معركة التهويش هذه ، والانتصار المزعوم ، والبلاء الواضح الذي أبلاه الجنود والضباط المصريون في التصدي للزحف الإسلامي القادم لتخليص مصر من الاحتلال المهين ، برغم هذا كله فقد قررت الحكومة المصرية الانسحاب من بطن الحجر ، وجعلت نهاية الحدود عند وادي حلفا ، فوصلها آخر الجنود المنسحبين في ١٣ أبريل ١٨٨٦م ، وهنا حاولت إنجلترا التفاوض مع القوات الإسلامية بإشراك الخلافة العثمانية ، إلا أن هذه المفاوضات فشلت ، كما فصلنا في موضعه ، فقد كان تحرير مصر - في نظر المسلمين - واجبا إسلاميا جهاديا ، لا سبيل إلى التفاوض حوله.

وفي مايو ١٨٨٦م قيل بأن عبد الله النجومي أحرق بيته ، وأقسم ألا يعود

إلا بعد فتح مصر ، وجمع الخليفة عبد الله التعايشي القادة والأمراء الذين سيشتركون في الجيش القادم إلى أرض الكنانة ، وهلل القوم وكبروا وارتفعت صيحات الله أكبر تشق عناء السماء ، ونصح الخليفة رجاله بألا يخشوا الحرب في سبيل مصر ، لأنهم سوف يقاسون كثيرا في معركة أسوان ، فعليهم التذرع بالصبر.

وفي نوفمبر ١٨٨٦م وصل النجومي إلى دنقلة قادما من بربر في طريقه إلى حدود مصر ، ومن دنقلة أرسل مقدمة جيشه إلى سرس ، فوصلها في آخر نوفمبر ، ثم نشبت معركة سرس في ٢٨ أبريل ١٨٨٧م التي استشهد فيها القائد المسلم ، وعليه فقد احتل المصريون سرس مرة أخرى ، وما أن علم النجومي بذلك حتى أرسل جيشا استردها في يونيه١٨٨٧م ، وفي ديسمبر وصلها - أي سرس - النجومي ، على رأس بقية جيشه ، فاتخذ منها قاعدة للعمليات ضد المواقع المصرية حول وادي حلفا.

وفي أوائل عام ١٨٨٩م كان الخليفة قد انتصر على الأحباش في موقعة القلابات فطلب من أمير بربر السابق محمد الخير وعليّ سعد شيخ الجعليين جمع الجيوش واللحاق بالنجومي ، كما أرسل الخليفة تعزيزات أخرى وقبل أن يبدأ النجومي زحفه ذكرت بعض المراجع أن القلق والتوتر كانا يسودان معسكره بسبب الخلافات بين القادة ، وكان بعضهم قد أبلغ النجومي باستحالة الهجوم على مصر ، والاستيلاء على حلفا ، بسبب قلة المياه ، وصعوبة الطرق الصحراوية ، وكانت مياه النيل تحت سيطرة الزوارق الحربية ، التي كانت تقوم بدوريات مستمرة ، مما يمثل عقبة حقيقية في طريق الزحف بمحاذاة النيل.

وقبل أن تبدأ القوات الإسلامية الضاربة زحفها شمالا أرسل الخليفة أربعة رسل يحملون رسائل لكل من الخديوي توفيق والملكة فيكتوريا والمعتمد البريطاني

في القاهرة والسلطان عبد الحميد وهاك طرفا من هذه الرسائل :

١- إلى السلطان عبد الحميد :

وما كان الظن بك أن تحيد عن طريق الصواب ، وترغب عن اتباع الكتاب والسنة ، فالعجب كل العجب من إعراضك عن إجابة داعي المهدي ، واتباعك لشهواتك إلى الردى ، وتمكينك للأعداء من بلاد المسلمين ، وأنت تزعم أنك ولي المسلمين ، والذاب عن حرم الله ، وتركن إلى مودتهم ومتابعتهم ، وما هذه الطاعة لأعداء الله ومتابعتهم ؟!.

فتذكر ذلك ، وانتشل نفسك من أوحالك ، فأجب علينا داعينا بتسليم الأمر لنا والمبادرة إلى فعل أحد الأمرين ، إما جهاد الكافرين ، وإخراجهم من بلاد الإسلام كمصر وغيرها صاغرين ، وإما السعي للاجتماع بنا لنقوم جميعا بنصرة الدين ، وقطع دابر الكافرين).

ويبدو أن الخليفة كان يعتقد أن السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله ـ لا يختلف عن الخديوي في مصر ، لذا خاطبه بالطريقة التي رأيناها والواقع أن الرجل وقف وحده ينافح عن المسلمين ويذب عنهم في عشرات الجبهات ومئات المعارك ، وكثرة من الأعداء المتنمرين المتربصين بالسلطان وإمبراطوريته ، وبذل ما في وسعه لإخراج المسلمين من محنتهم ، وإخراج الكافرين من الديار ، وكان يسره يا أمير المؤمنين في أم درمان ويسعد المسلمين المخلصين أن يلتقي بك لتوحيد الكلمة ، وقطع دابر القوم الكافرين ، ولكن من يدرينا أن هذا النداء قد وصله ، أو حتى علم به ؟؟ لقد كان الإنجليز يتربعون على عرش مصر وما نظنهم يتركون هذه الكلمات المخلصات تصل إلى سيدنا ، خليفة المسلمين في استنبول ، ومن أسف أنه لم يكن له أدنى سلطان على مصر ، وكان الأمر كله في يد المحتلين الانجليز.

٢- إلى عزيزة قومها فيكتوريا ، ملكة بريطانيا :

(سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فاعلمي أن الله (ﷻ) هو ملك الملوك القادر المقتدر ، الذي لا يعجزه شيء ، ولو أراد أن يهلك أعدائه في أقل من خاطرة بال لكان جديرا بحصول مراده ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وإني أدعوك إلى الإسلام ، فإن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واتبعت المهدي (عليه السلام) وأذعنت لحكمي ، فإني سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير ، وتكونين آمنة مطمئنة ، لك ما لنا ، وعليك ما علينا ، ويغفر لك الله ما فرط منك في زمن الكفر ، وإن أبيت إلا الجحود اعتمادا على ما عندك من الاستعدادات والجنود ، فاعلمي أنك في غرور كبير ، وبعد عن السداد والتدبير.

وإن كنت تظنين توهما أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمد عرابي ، الذي أدخلت عليه الغش بالدنيا حتى مكنوك من الاستحصال على البر المصري ، فهذا توهم فاسد ، وغرور كاسد.

ثم مما يقضي عليك أن ... سولت لك نفسك أن فيك الكفاية لحرب المهدي (عليه السلام) والاستيلاء عليه ، فبادرت إلى إرسال أحد رجالك المشاهير المدعو هيكس ، ومعه جيش عرمرم ، مؤلف من أجناس شتى ، وعدد منوعة ، توهما منك أنك ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب ، فلما حضر ذلك الجيش ، ما لبث أمام حزب الله إلا نصف ساعة ، بل قضى الله عليه بالبوار والدمار عن آخره ، وكان هلاك ذلك الرجل المدبر الشجاع ، بسبب سوء تدبيرك ، وكثرة غرورك ، ولم تغن عنه كثرة العدد ، ولا قوة العدد ، بل صار إلى النار وغضب الجبار.

وما اعتبرت بذلك ، بل صرت تجهزين عساكرك جردة [1] بعد جردة ، لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة بسواكن ، وتارة بدنقلة ، وتارة بوادي قمر ، حتى أهلكت بسوء صنيعك من رجالك ما ينوف على الألوف بسبب ذلك ، هلك كثير من رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير كالجنرال ستيوارت الثاني هلك بوادي قمر ، وفلان وفلان ، ومع كثرة دعواك التقدم في مجالات الحروب ، وتفوهك بقوة البأس والشجاعة ، فما بال عساكرك رجعت من السودان القهقرى بالخيبة والهزيمة ؟؟

وكل هذا من سوء تدبيرك واستبدادك برأيك عن باقي الدول ، ولو عملت بالتشاور معهم ، لأرشدوك إلى ما يسكن روعك ، وكانوا إما أن يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله ، أو يمدوك بالرجال والأسلحة ، وحينئذ لا يتوجه عليك العار وحدك ، عند حصول الهزيمة ، بل يكون ذلك بالاشتراك).

أما عبد الله النجومي فإنه خرج في ٣ مايو ١٨٨٩م من دنقلة ، بعد أن أتم استعداداته ، ووصل سرس، التي زحف منها بالجيش كله على معتوقة ، التي وصلها في ٢٨ يونيه ، وعند أورجين شمال وادي حلفا نشبت معركة استمرت من الضحى إلى الغروب تقريبا ، جرح فيها النجومي ، ولكنه استطاع الانسحاب إلى بلاجة ، التي وصلها في العاشر من يوليه ، بعد أن تعقبته زوارق المدفعية المصرية ، ومكث هناك ينتظر النجدات التي علم أنها في الطريق إليه ، والتي وصلت بقيادة عليّ سعد.

وفي ١٥ يوليه وصل غرانفيل سردار الجيش المصري ، ليقود العمليات بنفسه ضد النجومي ، ووجد هذا السردار عنده من الوقاحة ما يكفي لأن يرسل إلى النجومي يطلب منه التسليم وبعده بالأمان !! أي أمان يا ابن الأفعى سَتَمنّ به على

---

(١) حملة بعد حملة.

المسلمين !! إذ استسلم الرجل هل تعطيه الأمان !! نعم ، تعطيه أمان الحيات ، صواحب السم الزعاف ، الذي تسقون منه الشعوب المستسلمة في كل عصر وأوان.

ويرفض القائد عبد الله النجومي ، فلا تنطلي عليه أحابيل هذا الغرانفيل ، ويرد عليه بأنه يريد مصر بأكملها ، يحررها ممن دنسوها ، يطهرها من رجسهم ، ويحذره مصير هيكس وغوردون ، ويطلب منه التسليم ، ويدعوه إلى اعتناق الإسلام.

وفي ٢٨ يوليه بدأ النجومي زحفه ثانية نحو الشمال ، برغم بعض الظروف الصعبة التي أشرنا إليها ، ووصل إلى نقطة ، تبعد خمسة أميال في الصحراء جنوب طوشكى ، ليلة الثاني من أغسطس ١٨٨٩م ، وكانت التعزيزات المصرية والإنجليزية قد أرسلت من القاهرة.

وكان السردار غرانفيل قد اجتمع لديه قرابة أربعة آلاف مقاتل ، إضافة إلى ثمانين مدفعا [١] مع أطقمها.

وفي صباح الثالث من أغسطس ـ ٦ ذي الحجة ١٣٠٦ هـ ـ دارت المعركة التي استمرت خمس ساعات ، انتهت بهزيمة عبد الله النجومي ، ولكنه فاز بالشهادة رحمه الله.

وقد ابتلي المصريون بلاء واضحا في تلك المعركة ، وممن يذكر منهم على وجه الخصوص العقيد على حيدر ، وحسن رضوان من ضباط المدفعية ومصطفى رمزي من أركان الحرب ، جزاهم الله خيرا في الحفاظ على أسر بلادهم ، وحماية محتليها.

---

(١) يبدو أن تأثير هذه المدافع الثمانين كان حاسما ، وبخاصة أن المعركة دارت نهارا ، كما أن النجومي لم يتمكن من تحقيق عنصر المفاجأة والمباغتة ، الذي كان من أهم أسباب انتصار القوات الإسلامية في معاركها السابقة.

وكان من نتائج هذه المعركة امتداد الحدود المصرية جنوبا إلى سرس ، التي احتلها القوات المصرية في ١١ أغسطس ، وقام الجنود المصريين بترميم الخط الحديدي بين سرس وبين وادي حلفا ، وتراجعت حدود الخلافة إلى سوردة على بعد مائة ميل جنوب سرس ، وبقيت كذلك حتى سنة ١٨٩٦م.

وكانت هذه المعركة شديدة الأهمية ، لأن الخليفة لم يفكر بعدها في أية عمليات لفتح مصر ، وظلت الأوضاع متجمدة في جبهة الشمال ، على العكس من جبهة الشرق التي ظلت مشتعلة ، متوهجة بنور الجهاد ، بفضل العبقرية العسكرية ، المسماة بعثمان دنقة.

وكتب وينجت معلقا على المعركة : (ربما كانت هذه أقسى ضربة نزلت بالمهديين ، فإن المهدي ومن بعده خليفته كانا يتطلعان إلى مصر ، كهدف يبذل من أجله أقصى الجهود ، ولكن بعد سنين طويلة من الاستعداد ووضع الخطط ، صادف ذلك الجهد الكبير كارثة تامة ، إذ قتل أشجع القواد ، وأكثرهم تعصبا للدعوة المهدية وهو الرجل الذي قام بدور مهم في الإيقاع بهيكس وفتح الخرطوم).

ولقد كان إهمال جبهة الشمال وتجميدها ثاني الأخطاء القاتلة التي وقع فيها الخليفة التعايشي ، وكانت أهم الأسباب التي أدت في النهاية إلى إسقاط الخلافة الإسلامية في أم درمان ، وقد تقدم تبريرات كثيرة منها انشغال القوات الإسلامية بحرب الأحباش والطليان والمصريين والانجليز في الجبهة الشرقية ، إلا أنها مرفوضة رفضا باتا.

وهزيمة الدولة في معركة لا يعني أن الأمر قد انتهى ، إن الحرب كر وفر ، وإقبال وإدبار ، ونصر وهزيمة ، وإذا هزمت قوات الخليفة في طوشكى فليدخل

معركة ثانية وثالثة ورابعة ... إلى أن يأذن الله بفتح مصر ، ولكن ، رحمة الله عليك يا سيدنا المهدي ، ويا جنود مصر وضباطها الميامين هنيئا لكم احتلال الانجليز الذي دافعتم عنه ، وحاربتم تحت رايته.

إسقاط الخلافة

فشلت إنجلترا ـ كما رأينا ـ في استدراج الخلافة العثمانية إلى العمل ضد الخليفة عبد الله التعايشي ، وما كان السلطان عبد الحميد ـ عليه سحائب الرحمة والرضوان ـ ليقبل أو يرضى بتوريط دولته في الحرب ضد إخوته المسلمين ، ولكن مما يؤسف له أن المندوب العثماني لم يستطع تفهم وجهة نظر المهديين وموقفهم الجهادي ، وليكن هذا ـ يا إخوتي ـ درس لنا جميعا ، إن القوى المستكبرة الكافرة قد تتمكن من زرع الفرقة بين الموحدين ، ودق الأسافين ، حتى بين المخلصين ، فلا حول ولا قوة إلا بك يا رب !!.

وكان مما يؤخذ على المندوب العثماني أنه شارك الانجليز الرأي في كيفية غزو السودان ، أو قل دلهم على مدخل عسكري لتحطيم الحكومة الإسلامية في أم درمان ، فقد اقترح : (احتلال دنقلة لتكون قاعدة للعمليات العسكرية ضد المهديين ، على أن يضطلع بهذا العمل جيش مصري خالص) وقد كان هذا ما فعله الانجليز تقريبا ، كما سيأتي تفصيله.

ولعل كثيرا من المتفائلين كان يأمل أن تنهار الخلافة الإسلامية من الداخل ، ولكن كرومر [1] كان يرفض هذا الرأي بشدة ، لقد كانت دولة قوية لديها جيوش جرارة ، تواقة للشهادة في سبيل الله ، وقد حاولت الحكومة المصرية إثارة القبائل [2] السودانية الكافرة والمنافقة ، وشراء الذمم والضمائر من البائعين لأي دافع ، ولو

---

(1) جاء كرومر إلى مصر يوم ١١ سبتمبر ١٨٨٣م ، وبقي جاثما على قلب الكنانة ثلاثة وعشرين عاما ، ولعله جاء خصيصا للإشراف على الصراع ضد المسلمين في السودان.

(2) انظر تفاصيل هذه المحاولات في السياسة البريطانية واسترداد السودان ، على محمد بركات ، الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة.

كان الثمن بخسا ، ولكن الدولة المهدية بقيت قوية منيعة ، ولذا تقرر الأخذ باقتراح احتلال دنقلة ثم الوثوب منها على باقي الأراضي الإسلامية.

وقبل أن نفصل الحديث عن تنفيذ هذا الاقتراح نتحدث عن موضوعين مهمين ، هما : سياسة التجارة وجبهة الثالوث أي سواكن والأحباش والإيطاليين الذين وقفوا جميعا ضد صقر الخلافة عثمان دنقة.

أولا : سياسة التجارة :

ثار جدل كبير في انجلترا ومصر حول التجارة مع أم درمان ، عن طريق سواكن ووادي حلفا ، وذلك خوفا من تهريب الغلال والمواد الحربية إلى المهديين ، أي استغلال هذه التجارة لصالح المسلمين وبعد أخذ ورد ، وافقت انجلترا على استئناف [1] التجارة مع السودان في نهاية سنة ١٨٨٦م ؛ إذ في ذلك فوائد جمة لصالح الانجليز ، منها :

١- انشغال المسلمين بالتجارة عن الجهاد.

٢- رواج السلع الانجليزية.

٣- إحداث الخلل والاضطراب في اقتصاد الدولة المهدية يحول دون استعدادها للحرب.

٤- اجتذاب العناصر التي سوف تستفيد من فتح باب التجارة.

٥- ولا تنسوا يا سادة يا كرام - أنار الله بصائرنا وبصائركم - أن التجارة تتيح أبوابا من المعلومات عن الخلافة وشئونها في الداخل ، من القادمين للبيع والشراء ،

(١) اشترك في هذه المداولات كرومر ونوبار رئيس الوزراء المصري ، وعبد القادر حلمي الحاكم السابق للسودان.

سواء بحسن نية أو سوء نية طوية ، وفي نفس الوقت فإن التجارة ستار جيد للعملاء والجواسيس ليجوسوا خلال الديار ، يجمعون المال والأخبار.

ومن هنا كان قرار استئناف التجارة صائبا من وجهة النظر الانجليزية ، إذ كان في المقام الأول سلاح ضد حكومة الخليفة ، فماذا كانت النتيجة ؟ في سواكن أغمض المسئولون أعينهم عن تجارة الأسلحة على أمل أن يتسرب السلاح إلى القبائل ، مما يجعلها تثور على عثمان دنقة ، ولكن الصقر رد السلاح إلى نحور أعدائه ، فقد عمل على الحصول على هذه الأسلحة المصدرة ، بل والمراد المساعدة على صنعها.

وعلى هذا فقد طالبت السلطات بوقف تجارة الغلال والأسلحة عن طريق سواكن ، لأنها تعين عثمان دنقة على غزو مصر ، وتم فعلا إغلاق ميناء ترنكات في وجه التجارة في أغسطس ١٨٩٠م ، وبعد ذلك بأيام تقرر خروج الغلال من سواكن وبرغم أن القوات الإسلامية عانت من نقص الأقوات والكوليرا إلا أنها بقيت قوية.

ولكن الخليفة عبد الله التعايشي أدرك في النهاية اللعبة الاستعمارية فأمر في أوائل عام ١٨٩٦م بوقف التجارة بين بربر وبين كل من سواكن وحدود مصر الجنوبية.

ومن هنا يجب على الدولة الإسلامية أن تكون على حذر شديد من التجارة مع أعدائها وغيرهم ، إذ يمكن أن تحقق لهم هذه التجارة مكاسب جمة ، لا يمكن أن يحلموا بها ، وعليها أيضا أن تدقق في كل سلعة تستوردها من الخارج ، فقد تكون بعض هذه السلع معاول ماضية لتخريب الاقتصاد الإسلامي ولإفساد المجتمع من الداخل.

ثانيا : جبهة الثالوث :

ظلت الحرب سجالا بين القوات الإسلامية وبين الانجليز في سواكن ، وقد ظل الصقر دنقة غصة في الحلوق ، وخطرا لا يمكن القضاء عليه ، وفي ١٩ فبراير ١٨٨٩م غادر هذا الصقر هندوب ـ بعد استئذان الخليفة في أم درمان ـ ليتخذ من طوكر مقرا لقيادة العمليات العسكرية.

وفي بداية سنة ١٨٩١م خرج القائد لتأديب قبائل الحباب ، وترك في طوكر قوة صغيرة ، وعندها استأذن هولد سميث [1] من السلطان في القاهرة في الهجوم على هندوب فأذن له السردار ، ومن ثم استولى عليها سميث في ٢٤ يناير ١٨٩١م واستولى على طماي في الثاني من فبراير.

وفي ٧ فبراير وافق رئيس الوزراء البريطاني على الهجوم على طوكر ، مقر قيادة الصقر ، وتحرك الجيش المصري بقيادة سميث من ترنكات قاصدا طوكر ، وكان عثمان دنقة ممتنعا بجيشه في مكان حصين يسمى العفافيت ، فاشتبك مع جيش هولد سميث ، وكانت معركة شديدة استبسل فيها المصريون استبسالا ، وأبدوا من الشجاعة ما نوه به الكفار وأشادوا ، فهزموا دنقة الذي انسحب إلى العطبرة ، ثم اتخذ من أدرامة مقرا لقيادته.

وقد ظل الصقر على يقظته ونشاطه ، يلقن الانجليز ومن والاهم الدروس تلو الدروس ، ويعلمهم كيف تكون الدروس والحروب ، ويقينا أن هؤلاء قد أفادوا كثيرا من حروبهم مع عثمان دنقة ـ وغيره من المسلمين ـ مما مكنهم من الوقوف أمام ألمانيا في الحربين العالميتين.

---

(١) محافظ سواكن.

وفي سنة ١٨٩٦م عندما استنفرت القوات المصرية في سواكن للانضمام إلى حملة دنقلة بقيادة كتشنر ، أراد دنقة أن ينتهز هذه الفرصة لاسترداد طوكر ، فظهر أمام أركويت ، لذا أصدر السردار أمره على كل من لويد محافظ سواكن ، وسيدني قائد منطقة طوكر بأن يلتقيا بقوتهما عند خور ونتري على بعد ٢٢ ميلا من سواكن لطرد عثمان دنقة الذي أفشل الخطة ، فقد أسرع إلى الاشتباك مع سيدني الذي وصل إلى الخور وحده في أبريل سنة ١٨٩٦ ، وحاصره الصقر من كل جانب ، والباقي معروف ، ثم استدار على جيش لويد فأوقع به الهزيمة.

وفي النهاية التقى سيدني بصاحبه لويد ، ولكن بعد أن عاد الصقر إلى مقر قيادته ، ورجع لويد على سواكن ، حيث وصل إليهما اللواء الهندي ليحل محل القوات المصرية التي انضمت إلى جبهة الشمال مع كتشنر.

وإني لأهيب بالمختصين بالعلوم العسكرية أن يدرسوا معارك الخلافة بشكل عام ، ومعارك عثمان دنقة بشكل خاص ، أو ترجمة ما يكون قد كتب باللغات الأجنبية عن هذه المعارك ، إذ فيها دروس نافعات للمسلمين في تاريخهم الجهادي ، إن شاء الله.

وأعتقد أن القوات الإسلامية في شرق السودان كان يمكن أن تنتزع سواكن من الانجليز لو تفرغت لهم ، إذ كان عليها أن تواجه الحبشة ، وهي قوة لا يستهان بها ، مما دفع المسلمين إلى الهجوم على جوندر في فبراير ١٨٨٨م ، كما هاجموا الحدود الغربية الحبشية ، فالخطة تختلف كثيرا عنها في جبهة الشمال مع مصر حيث بقيت تلك الجبهة باردة ، دفاعية حتى بعد تحرك القوات المصرية الانجليزية المشتركة لاحتلال السودان ، والقضاء على الخلافة.

وقد توجت الجبهة جهودها الدائبة بمعركة القلابات في مارس ١٨٨٩م مع يوحنا الرابع إمبراطور الحبشة ، الذي لقي مصرعه في المعركة ، ثم خلفه الإمبراطور منليك ، الذي لم يكن صديقا لدولة الخلافة في أم درمان ، أو محبا لها ، كما صوره بعض الباحثين ، وكل ما في الأمر أنه عرف وتأكد ـ بعد مصرع سلفه ـ ألا قبل له بمحاربة المسلمين ، فلزم حدوده ، كما سيرى القارئ.

وعندما هزم الأحباش تنمر الإيطاليون ، ودخلوا حلية الصراع مع المسلمين وشرعوا في الزحف على شرق السودان ، ولذا أرسل الخليفة في سنة ١٨٩٣م القائد أحمد عليّ لوقف زحف الإيطاليين على كسلا.

وفي ١٤ ديسمبر ١٨٩٣م زحف المهديون من القلابات في قوة كبيرة ، وحشد الإيطاليون قواتهم في قلعة أجوردات ، وبدأت المعركة التي استمرت ثلاثة ساعات ونصف ، انتهت باستشهاد أحمد عليّ ، انسحب المسلمون إلى كسلا ، وكان من أهداف الهجوم الحصول على أحد الطرق التجارية على البحر الأحمر.

وحين عرف الإيطاليين أنه لا قبل لهم وحدهم بمواجهة المسلمين ، أرادوا إشراك الإنجليز معهم في عمل موحد ضد القوات الإسلامية ، ولكن الانجليز لم يكونوا يثقون في قدرات الإيطاليين الحربية ، لذا أعلنت إنجلترا أن ما يمكن عمله هو أن يقوم كل جانب بإبلاغ الآخر عما يعلمه من تحركات المسلمين ونواياهم ، وأنه يحسن أن يستقل كل جانب في العمل عن الآخر.

وعندما يئس الايطاليون من إشراك القوات الانجليزية في سواكن معهم قرروا من جانبهم العمل ضد القوات الإسلامية في كسلا واحتلالها.

أما الخليفة فقد أرسل جيشا بقيادة أحمد فضيل إلى القضارف لتعزيز حاميتها

وعلى هذا قرر الإيطاليون الاشتباك مع هذه القوات الجديدة ، وحشدوا قواتهم في قلعة أجوردات مرة أخرى بقيادة العقيد بارتيري الذي زحف على سيدرات ، شرقي كسلا ، وباغت المدينة في هجوم مفاجئ فاحتلها - أي كسلا - في ١٧ يولية ١٨٩٤م وانسحب المهديون على الضفة الغربية لنهر عطبرة ثم القضارف ، وما لبث الإيطاليون أن توغلوا في الأراضي الإسلامية حتى أصبح لنهر عطبرة فاصلا بينهم وبين المسلمين ، لتتفرغ إيطاليا للأحباش.

وفي صباح الأول من مارس دارت معركة عدوة التي أبيد فيها الجيش الإيطالي على أيدي الأحباش ، ولم ينج من الجيش العرمرم غير قليل من الفرقة التي كانت تحرس [1] المؤخرة ، مما دفع المسلمين إلى إعادة الكرة على الإيطاليين.

كما يتضح فيما يلي :

في الخامس من يناير ١٨٩٦م نما إلى علم السفير الإيطالي في روسيا أن هناك تحالفا بين منليك وبين الخليفة للقيام بعمل مشترك ضد الإيطاليين ، وبرغم أن رئيس الوزراء البريطاني كان غير متأكد من هذه الأخبار ، إلا أنه لم يستبعد هذا التحالف.

ولكن رئيس الوزراء سأل كرومر عن العمل المناسب إذا تعرض الإيطاليون لهجوم مركز من جانب القوات الإسلامية يرغمهم من الانسحاب من كسلا ، وكان الرأي أن أنسب طريقة لمساعدة الإيطاليين هي إرسال قوة من سواكن لتحتل بعض المواقع في شرق السودان ، التي تقيم بها القبائل الموالية الصديقة ، مما يمهد لعمليات حربية تجاه كسلا ، ولكن لندن فضلت التريث ، إلا أن الموقف تغير بعد هزيمة عدوة ، إذ وصلت أنباء بأن المسلمين أصبحوا أمام كسلا.

(١) بلغت خسائر الإيطاليين ستة آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير ، وقتل اثنان من قادة الجيش وأسر الثالث.

وفي ١٠ مارس ١٨٩٦م قطعت المواصلات بين أسمرة وكسلا ، وباتت القوات الإسلامية تهدد كسلا ، وتطوقها من كل جانب ، وهنا طلبت إيطاليا من انجلترا أن يقوم الجيش المصري بعمليات عسكرية لتخفيف الضغط عن الحامية الإيطالية المحاصرة في كسلا.

وعليه استفسرت الحكومة البريطانية من كرومر عما إذا كان القيام بمظاهرة عسكرية في جبهة وادي حلفا مفيدا في تحويل أنظار المسلمين عن كسلا ؟ فكان الرأي أن ذلك مجرد مناورة ، وأن التقدم الذي يعقبه تراجع ، سوف يزيد من روح المسلمين المعنوية ، وأن مجرد المناورة لن تفيد الإيطاليين ، وأن أية أرض يمكن احتلالها يجب ألا تعود إلى المهديين.

وأضاف كرومر إلى الرأي السابق أن أية عمليات يجب أن تتم عن أحد الطريقين ، إما عن طريق النيل حتى دنقلة ، أو من سواكن حتى فيلك أو العطبرة ، وهذا الطريق الأخير يتيح للإيطاليين الاشتراك من قاعدتهم في كسلا مع الجيش الزاحف ، ولكن رئيس الوزراء فضل التريث حتى يتضح ما يدل على أن المهديين يزحفون فعلا على كسلا.

وعندما تقدمت حملة دنقلة من الشمال زال الخطر مؤقتا عن كسلا فعقد الإيطاليون اتفاقا للصلح مع الأحباش في ٢٦ أكتوبر ١٨٩٦م ، أنهى حالة الحرب بين البلدين ، وأعاد العلاقات الودية الطبيعية بين البلدين.

غير أن القوات الإسلامية ما لبثت في العام التالي أن هددت كسلا مما أجبر حكومة روما على التنازل عن المدينة للحكومة المصرية حتى تتفرغ للدفاع عن أرتيريا ، أو قل حتى تتمكن من سحق مسلميها ، وقد رحبت لندن بهذا العرض ،

ولكنها طلبت مهلة لإرسال بعض القوات المصرية التي ستحل محل القوات الصليبية الإيطالية.

وفي نوفمبر ١٨٩٧م خرج العقيد تشارلز بارسونز محافظ سواكن والبحر الأحمر على رأس قوة وصلت إلى كسلا في ٢٠ ديسمبر ، وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر تسلمت القوات المصرية قلعة كسلا ، ووقعت وثيقة التنازل بين الجانبين المصري والإيطالي ، ومن ثم عادت كسلا مرة أخرى إلى الإدارة المصرية السابقة ، وقد مكثت في يد الإيطاليين أكثر من سنتين ، لم يصمدوا فيها أمام القوات الإسلامية برغم الخطر القادم إليها من الشمال ، من أرض الكنانة يا سادة !!.

التحالف الإنجليزي الحبشي : كثيرا ما راجت شائعات عن قيام تحالف بين الأحباش والمهديين عقب معركة القلابات ، ومصرع الإمبراطور يوحنا الرابع ، وقيل إن الإمبراطور منليك حاول في أبريل ١٨٩٥م الاتفاق مع الخليفة على عمل مشترك ضد الإيطاليين ، ولما كان المهديون يرغبون في الانتقام من القوات الإيطالية عقب احتلال كسلا عام ١٨٩٤م فقد رحب الخليفة بفكرة التعاون مع الأحباش ، يقول بعض الباحثين المصريين : (من الثابت أن نوعا من التفاهم قد تم بين الخليفة والإمبراطور).

على أية حال فقد خشي الانجليز من وقوف الأحباش مع المسلمين في صدامهم المنتظر مع الإنجليز ، بتهريب السلاح والذخيرة إلى القوات الإسلامية عبر الأراضي الحبشية ، إلى جانب الحيلولة دون قيام أي تعاون بين منليك وبين الخليفة عبد الله التعايشي.

وفي فبراير ١٨٩٧م أصدرت إنجلترا تعليماتها على رينيل رود أحد رجال

المخابرات البريطانية في القاهرة ، وأحد معاوني كرومر بالذهاب على رأس بعثة إلى الحبشة ، وكان من أهم أعضائها الكونت جينجت من قسم المخابرات بوزارة الحربية البريطانية ، والعقيد وينجت رئيس المخابرات العسكرية في الجيش المصري.

وكان على البعثة أن توضح للإمبراطور أن الغرض من العمليات العسكرية في السودان هو استرجاع مديريات مصر السابقة !! وانه ليست هناك نيات عدوانية تجاه الحبشة ، وأن الحكومة البريطانية لا تعارض في تخطيط الحدود الحبشية مع السودان لصالح الإمبراطور ، إذا ما كان ذلك ضروريا للحصول على معونة منليك ضد المسلمين.

وقال رئيس البعثة إن الغرض من حضوره هو التأكد من أن الإمبراطور لن يتعاون مع الخليفة ، وكان من أغراض البعثة أيضا الحصول على معلومات دقيقة عن الحالة الداخلية في الحبشة.

وفي ٢٨ ابريل ١٨٩٧م وصلت البعثة إلي أديس أبابا ، وهناك علم أن الخليفة عبد الله أوفد بعثتين إلى منليك ، وبرغم أن البعثة لم تستطع الحصول على معلومات وافية عن هاتين البعثتين ، فقد كان من الواضح أن الغرض منها كان إنشاء علاقات ودية بين الجارين الأفريقيين ، نظرا للتهديد الإنجليزي القادم من الشمال.

وعلمت البعثة أيضا أن وفد الخليفة قد حددت إقامته في منزل أحد المطارنة الأقباط بأديس أبابا ، ولم يسمح لأحد من أعضائه بالاتصال مع أحد ، أما البعثة الثانية فقد حملت رسالة إلى الإمبراطور من الخليفة التي اشترط فيها لقيام السلام بينهما أن يمنع الإمبراطور جميع الأوربيين من الدخول إلى بلاده.

وفي أول مقابلة مع منليك أبلغه رئيس البعثة أن ملكة بريطانيا انتهزت فرصة مرور ستين عاما على اعتلائها العرش ، فأوفدته ليحمل إلى الإمبراطور رسالة الصداقة وتأكيد نوايا بلاده السامية ، ثم سلم الإمبراطور رسائل الصداقة من الملكة فيكتوريا ومن الخديوي عباس ، ومن بطريرك الأقباط في مصر.

وفي ١٤ مايو ١٨٩٧م أمكن توقيع معاهدة بين الطرفين تتكون من ست مواد ، نص فيها على حرية الإقامة والاتجار لرعايا الدولتين ، على أن يمنع الإمبراطور من جانبه مرور الأسلحة والذخائر عبر أراضيه إلى الأنصار في السودان الذين وصفو في المادة السادسة بأنهم أعداء الإمبراطور ، في نظير أن تسمح إنجلترا بنقل المواد الحربية إلى الحبشة عبر الأراضي الخاضعة لها فيما يسمى بالصومال الإنجليزي.

وفي اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية غادرت البعثة أديس أبابا ، بعد أن نجحت في الحصول على تعهد الإمبراطور بعدم مساعدة المسلمين في السودان - أو الحياد على الأقل - في الصراع المنتظر مع الخلافة في أم درمان.

ولقد كان الإمبراطور وفيا لتعهداته ، شديد العداء لجيرانه المسلمين ، إذ لم يكتف بالوقوف على الحياد ، بل شارك القوات الصليبية الإنجليزية في الإجهاز على حكومة التعايشي ، فتقدم على النيل الأزرق منتهزا فرصة انشغال القوات الإسلامية بالخطر الصليبي الزاحف من الشمال.

حملة دنقلة :

تداعت على الدولة المهدية الأعداء من جميع جهاتها ، ومع ذلك بقيت صامدة ، تصارع الأمواج الصليبية المندفعة إليها من كل جانب ، يقول مورهيد :

(من الممكن اعتبار سنة ١٨٨٩م نقطة تحول ضد الخليفة ، ففي أغسطس قتل عبد الله النجومي مع كبار أمرائه في معركة طوشكى داخل الحدود المصرية ، وبهذا تلاشى الخطر المهدي على القاهرة ، وفي تلك الأثناء كان عثمان دنقة يتراجع عند البحر الأحمر أمام هجوم بريطاني جديد ، كما وقعت بالخليفة خسائر فادحة في حملة ثالثة ضد الأقباط في الحبشة ، وكان حريا بهذه الهزائم أن تودي بالخليفة لولا أنه كان محميا بصحارى السودان ...) ويخلص مورهيد إلى الحقيقة التالية :

إذا كان المسلمون قد استطاعوا البقاء بعد هذه
المصائب فهذه شهادة بقوة شخصية الخليفة
وبصلابة المسلمين أنفسهم

وكان من أهم أسباب صلابة المسلمين ذلك السياج المنيع الذي كان يحوط دولتهم وأسرارها التي لم يستطع أحد من الجواسيس النفوذ إليها ، وكانت هذه النقطة إحدى إنجازات الاستخبارات الإسلامية منذ قيام الدولة المهدية.

لقد تراجع ولسلي ورجاله إلى الحدود المصرية حيث حل جيشه ، وبعدها لم يعد يتسرب إلى العالم سوى النذر اليسير من أخبار أم درمان ، ومديريات السودان ، كما لم يقدر لغير فئة قليلة من جنود الحاميات - وكانوا فوق الثلاثين ألفا - أن تعود إلى مصر ، فقد رأينا أن حامية خط الاستواء التي بلغت عشرة آلاف لم يرجع منهم إلى المصر الجليل سوى مائتين وستين فقط ، لا غير.

وحاول وينجت رئيس المخابرات العسكرية المصرية جمع خيوط المعلومات - قدرا يستطيع - من تصريحات الأسرى الهاربين ، ومن الرسائل والمستندات التي كانت تصادر منهم ، إلا أنه لم يكن قد قدر لأحد ممن يعتد بشهادته أن يسلك طريقه عبر وادي حلفا.

وظلت المراكز الإسلامية الأمامية تقف حارسة يقظة ضد أي محاولة لاختراق دولة الخلافة ، أو التسلل إليها ، وقد راجت شائعات كثيرة ، من آن لآخر ، ولكن ما من شيء كان مؤكدا ، إذ كان داخل السودان نائبا معزولا ، صندوق مغلق مليء بالأسرار ، ولكن الأعداء لا يعرفون شيئا منها.

ولكن الخلافة أصيبت بنكسة خطيرة حين هرب المنصر النمساوي أورفالدر مع منصرتين أخريين من بعثته في نوفمبر ١٨٩١م ، وقدم تقريره إلى وينجت ، وقد نشر التقرير بعنوان : (عشر سنوات في أسر المهدية) وبعد أربع سنوات لحق به المنافق رودلف سلاطين ورفع تقريره إلى المخابرات المصرية ، والذي نشر بعنوان : (النار والسيف في السودان) وقد تسنى من أقوال هؤلاء الأربعة الإلمام بصورة دقيقة عن استحكامات الخليفة ، وثغراتها ونقاط ضعفها ، وبخاصة هذا المنافق الذي كان مترجما للخليفة ويناورانا له ، يلازمه في الاجتماعات المهمة ، وينام خارج خيمته.

وكان من أهم أخطاء الخليفة إتاحة الفرصة لهذا السلاطين ليعرف كل أسراره ، واسرار دولته ، وكذا تركه لهذا المنصر أورفالدر يعيش على أرض الخلافة ، ويبدو أنه كان يعامله هو وأفراد بعثته على أنهم رهبان ، لا يقتلون ، ولا يحاربون ، وما كان هذا المنصر وغيره إلا جواسيس ، بدليل أنه ما إن حط رحاله في مصر حتى قدم تقريره إلى رئيس المخابرات.

وكان على الخليفة طرد هؤلاء جميعا من بلاده ، أو إعدامهم ن فليس للجواسيس توبة ، وليس للمنصرين مكان في دولة إسلامية ، هذا إذا سلمنا جدلا أنهم ليسوا جواسيس ، وهو أمر بعيد المنال ، هذه شريعة الإسلام وسكة رسول الله (ﷺ) يقتل الأسير أو يطلق سراحه إلى بلاده ، ولكن تظاهر هذا المنافق بالإسلام خدع

الخليفة وأركان دولته ، فرحمة الله عليك يا سيدنا المهدي.

ولنترك السودان إلى أوروبا لنرى كيف كانت مشاعر القوم ضد الخلافة المهدية فنقول :

كان الاتجاه العام في القارة - وبخاصة انجلترا - هو اعتبار الدولة المهدية شرا لا سبيل إلى التخلص منه ، ولكن كراهيتها تزداد عمقا ، إذ لم تكن المسألة مجرد هزيمة لم يثأر لها ، جرحت الشعور بالقوة ، والاعتداد الذاتي لدى الانجليز في العصر الفيكتوري ، وإنما كان الشعور العام أن العقيدة النصرانية ذاتها قد تعرضت للتحدي ممن وصفوا بالتعصب وسفك الدماء.

وهنا لم تضيع جمعية مكافحة الرق فرصة لنشر كل خبر جديد ومخترع عن فظائع الخليفة وسط جو الحرب ، الذي تتعرض فيه كل الأمور للمبالغة وروح الدعاية ، فلم يكن بوسع أي إنسان - لاسيما إذا كان شخصية عامة - أن يتخذ رأيا منفصلا عن رأي الجماعة ، أو يجادل في القضية لصالح المسلمين ، فقد كان معنى ذلك أن يدفع - لا بأنه ليس تقدميا ولا واقعيا - وإنما بأنه خائن.

والواقع يا أحبائي أننا في حاجة ماسة إلى هذه الروح ، من يدافع عن المسلمين كان يوصم بالخيانة ، فبماذا يا سادة يا كرام نصف من يدافع عن الكفار ؟ فإن تحالف معهم ضد المسلمين ، فماذا يكون ؟ فإن حارب معهم إخوة العقيدة ؟؟ فإن حارب الموحدين نيابة عن الكافرين وبسلاحهم ؟؟ من يفعل شيئا مما سبق هل يبقى مسلما ؟ وهل يحق لمسلم طيب القلب حسن النية والطوية أن يجادل عنه ؟ اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

نعود إلى أوروبا فنقول : وكما يحدث زمن الحرب ، انقطعت المواصلات ،

وحال ضباب كثيف من الرقابة دون أن تنفذ الحقائق الموضوعية إلى الأوروبيين ، وبات الجهل مباءة راتعة لتفريخ الخيال والتصورات الخاطئة ، والحق أن سلاطين وأورفالدر حاولوا أن يقدموا روايات صحيحة عن تجاربهم ، وعما رأوه ، لعله من العسير عليهم كأسرى حرب وجواسيس أن يكتشفوا في آسريهم المسلمين أية فضيلة.

وعندما قدر لهذين الجاسوسين أن يؤلفوا كتبهم كانت ذكرى آلامهم بانتصار الإسلام ومرارة الهزيمة ، والحقد الصليبي ، كان كل ذلك حيا في نفوسهم ، ومن يكن ثمة مفر للمطلعين على الأمور من أمثال وينجت من التأثر بمشاعرهم ، فهو على شاكلتهم ، ومن بني جلدتهم.

كما أن المؤلفات الروائية التي صدرت في السنوات التالية ، مثل الريشات الأربع لميسون استمرت تروج الإيحاء بأن المهدية كانت محض همجية أو وحشية جامحة ، وكانت هذه الدعاية قوية جدا ، لم تخفف منها كثيرا - إلى اليوم - بحوث الأوروبيين الذين أتيح لهم - في السنوات الأخيرة - أن يطلعوا لأول مرة على السجلات والوثائق المحفوظة عن الحركة المهدية.

وقد آتت هذه الدعاية من جانب جمعية مكافحة [1] الرق ووسائل الإعلام المختلفة ... الخ ، آتت أكلها في انجلترا ، فأصبح فيها هياج متزايد للمطالبة بحملة أخرى إلى السودان ، من أول دوافعها الانتقام لمصرع غوردون وهيكس ، ولهزيمة

---

(١) وقد ورثت منظمات حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية والعالمية ... الخ جمعية مكافحة الرق حيث لا ترى ، ولا تبصر ، ولا تسمع شيئا من مصائب المسلمين ، ولا تكترث بها ، في حين أن فظائع الخميني ونظامه الإرهابي هي شغلها الشاغل ، فليس في إيران إلا الخراب الاقتصادي والسجون والتعذيب والإعدامات ومصادرة الحريات ، وسحق حقوق الإنسان ، أما البلاد الأخرى العميلة فهي فراديس وجنان ، ومن العجيب أن ينخدع بهذا الهراء بعض السذج من المسلمين ، ومن الجدير ذكره أن تلك المنظمات أوكار للتجسس وسُتُر جيدة له.

ولسلي ، إضافة إلى الخوف القديم من أن يجدد الخليفة هجومه على مصر وقناة السويس ، ومن ثم باتت الظروف مهيأة ـ محليا ودوليا ـ في كل مكان تقريبا من العالم المعادي للمسلمين لقيام حرب استعمارية جديدة.

وكأن صوت غوردون انبعث من الماضي ثانية : (يجب سحق المهدي... وتذكروا أنه إذا ما وقعت الخرطوم في يد المهدي فستزداد المهمة صعوبة بمراحل ، ولكنكم ستكونون مضطرين لتنفيذها من أجل سلامة [1] مصر ، ستضطرون لخوض مهمة أشد خطورة بكثير).

ولم تحن سنة ١٨٩٦م حتى كان البريطانيون مستعدين لخوض هذه المهمة الشديدة الخطورة ، ولكن من الفارس الذي سيأخذ على عاتقه سحق المسلمين في الجنوب ؟ لاشك أنه سردار الجيش المصري كتشنر ، هذا الاسم الذي ينبغي أن يحفظه كل مسلم ، ويضمه إلى الجاسوسين السابقين أورفالدر وسلاطين ، هؤلاء الثلاثة الذين كان لهم القدح المعلي في القضاء على الخلافة الإسلامية في السودان ، فما نعرف عن هذا الكتشنر ؟.

استقال غرانفيل في مارس ١٨٩٢م ليعود إلى الجيش الإنجليزي ، فخلفه كتشنر في منصب السردار ، الذي جاء مع حملة ولسلي لإنقاذ غوردون في الخرطوم ولعلة اشترك في الإيقاع بأحمد عرابي في التل الكبير.

وقد سبق أن غوردون اقترح على كتشنر أن يعين حاكما للسودان ، فقد كان أكثر العسكريين الإنجليز جدارة بمستقبل زاهر ، لا في حملة ولسلي فحسب ، بل في الجيش كله ، كان في الرابعة والثلاثين ، ذا عينين ثاقبتين ، ونظرات تشبه نظرات

(١) يقصد سلامة احتلال مصر ، أو سلامتها من الخطر الإسلامي القادم من الجنوب.

أتاتورك الذي تولى أمر الخلافة العثمانية ، أو نظرات ألكسندر هيج وزير خارجية أمريكا الذي سبق الوزير جورج شولتز.

وقد اكتسب بين الإنجليز سمعة طيبة ، لهدوء أعصابه وعزمه ودقته ، كما كان فارسا ماهرا ، شكل قوة من ألف وخمسمائة مرتزق على حدود السودان ، كان فيه لمحة من جرأة.

ولما كان صديقا للعقيد ستيوارت ، فقد ألح في أن يؤذن له بالاندفاع خلال المواقع الإسلامية ، ليقابل الباخرة عباس في بربر ، وثار غضبه حين كبحه ولسلي وكان الأخير على حق ، لأنه لو دخل إلى الأراضي الإسلامية لكان قد لحق بزملائه في الحملة - إرل وبرنابي وستيوارت الثاني - وقد عرف كضابط مجتهد ، مخلص في عمله ، يهوى التنقيب عن الآثار ، ويتكلم الفرنسية والعربية والتركية ، ولا يحفل بالنساء.

ولقد خاض أخطارا غير عادية في محاولة الاتصال بغوردون أثناء الحصار ، حتى جرؤ على التوغل في أراضي عدوه ، متنكرا أحيانا في لباس بدوي ، حاملا معه زجاجة سم لينتحر إذا ما أسر ، والواقع أنه لم يكن في حاجة إلى هذا السم ، لأنه كان سيقتل فورا إذا أسر ، إلا إذا جبن ، وفعل ما فعله المنافق سلاطين.

وعندما كشفت الصحف الإنجليزية مغامراته هذه في نوفمبر ١٨٨٤م تقريبا أحاطت به هالة من الدعاية ، والمجد الرمانتيكي ، وحظي بسمعة الجاسوس لورانس خادع العرب ، الذي يسمونه لورانس العرب.

ولكن الرجل يتمتع بمواهب وصفات أعظم مما سبق ، إنها الحقد المستعر ضد المسلمين ، والتعالي - الذي يصل إلى حد الغطرسة - على المصريين ، وأهم من

ذلك كله صلته بأغنياء اليهود كيف ؟ هاك التفصيل مقتبسا من أحد بني جلدته ، ألان مورهيد : (عرف كتشنر خلال إقامته بالقاهرة بالترفع ، كما كان يتردد على العائلات الكبيرة في أسفاره إلى انجلترا ينشد العون خلال حملته على الخلافة في السودان ، ولكنه كان يتجنب - في مصر - زيارة بيوت ضباطه ، ويؤثر عليها لقاء أغنياء اليهود والمصريين.

لم يكن ينفع المتزوجين من أعوانه بشيء ، بل كان قاسيا في الاقتطاع من مرتباتهم وعلاوتهم ، وما كان يقبل من مساعديه أي عذر - مهما كان صادقا - عن أتفه تقصير ، وكان عادة شرسا نكدا ، ليس لديه أدنى اهتمام بجنوده ، نادرا ما كان يكلمهم ، وبدافع الاقتصاد في النفقات لم يسمح إلا بعدد قليل من الأطباء أن يصحبوا حملته ، وكان مسلكه نحو جرحى المسلمين مسلك عدم الاكترات بأخف تعبير ، إذ كانوا يتركون في ساحة القتال ليموتوا) وهكذا - أخي القارئ - كان كتشنر جديرا بالمهمة التي أوكلت إليه.

وبعد العثور على الفارس الصليبي المناسب ، كانت المشكلة الثانية هي تمويل الحملة ، فمن يدفع ؟ كلا ، ما يصح هذا ، لابد أن يحارب الإسلام بأموال المسلمين ، ولكن الحكومة المصرية لا تملك ما تدفعه ، خزانتها خاوية الوفاض ، وأخيرا وجدت الأفعى الحل ، إذ أقرضت بريطانيا الحكومة المصرية مبلغ ثمانمائة ألف جنيه ، بفائدة ربوية ، رحيمة بالخزانة المصرية ، وهي ٢,٥% يا بلاش !! كرم الانجليز [(١)] ، فلا تعجبوا يا سادة ، وأخيرا تنازلت بريطانيا عن القرض ، بعد نجاح الحملة ، أو هكذا قيل ، والله أعلم بحقيقة الأحوال.

---

(١) ومن كرم الإنجليز أيضا أنهم كانوا يحملون مصر تكاليف جيش الاحتلال ، فهل يصح أن تدفع انجلترا ثمن حماية مصر من الخطر الإسلامي !! ما يليق ، ولا يصح !!.

وتشكلت هيئة القيادة كالآتي :

١- كرومر مسئولا عن العمليات.

٢- السردار كتشنر ، قائدا عاما للحملة ، وكان أثيرا لدى كرومر ، وقد بلغ من العمر ثمانية وأربعين عاما.

٣- العقيد راندل ، رئيسا لهيئة أركان الحرب.

٤- الرائد وينجت رئيسا للمخابرات ، لخبرته الكثيرة بالشئون الإفريقية.

٥- سلاطين المنافق ، الذي أصبح من كبار ضباط الجيش المصري ، معاونا لرئيس المخابرات إضافة إلى ديفيد بيتي من البحرية ، ثم العسكري الشاب ونستون تشرشل ، واقتصر دور السلطات العسكرية في لندن على إبداء النصح.

واستولى الإنجليز على أسطول شركة توماس كوك للرحلات النيلية ، وحشد حوالي عشرة آلاف جندي وضباطهم الانجليز ، وكان كرومر من المتحمسين لهذه الحملة ، لما رآه من فرص نجاحها.

وكانت المرحلة الأولى من الحملة هدفها عكاشة ، فتقدم إليها العقيد هنتر في ٢٠ مارس ١٨٩٦م ، ثم وصلها كتشنر ووينجت في ٢٩ مارس ، وبدأ في تحصين المواقع استعدادا للمرحلة التالية.

ولم يكن من شك أن الحرب ستكون منذ البداية حرب نقل وتموين ، ولذا عكف كتشنر على دراسة مشكلتي النقل والتموين من حلفا ، فتقرر مد خط حديد حلفا وسرس ، وكان كتشنر يرى التقدم على مراحل ، فتتقدم الطلائع إلى نقطة أمامية يتم تموينها عن طريق الإبل ، ثم يتبع ذلك مد الخط الحديدي على هذه النقطة وعليه تتوالى الإمدادات ، ويركز السردار قواته في هذه المراكز كنقطة وثوب للمرحلة التالية ، وهكذا.

وعندما وصلت أنباء الحملة إلى الخليفة بادر بإرسال الإمدادات إلى أمير دنقلة ، الذي سارع إلى إرسال التعزيزات إلى حمودة إدريس قائد الجبهة الشمالية الذي تقدم على الفور ، على رأس حامية سوردة فاستولى على كوشه في ٢ أبريل ١٨٩٦م ، ثم فركة في الثامن والعشرين من نفس الشهر.

وفي أول مايو خرج حمودة إدريس إلى الصحراء مستدرجا حامية عكاشة لمطاردته ليوقع بها فأرسل كتشنر قائد السواري برن مردوخ الذي التقى بحمولة في منتصف الطريق بين عكاشة وفركة ، فهزمه ، وتراجع حموده ليعزله الخليفة متهما إياه بالجبن ، ويبدو أن الخليفة لم يكن يدرك خطورة الحملة وقوتها.

وعين عثمان أزرق الذي بدأ يعد العدة للدفاع عن فركة ، وكان معنى هذا أنه يتخذ موقفا دفاعيا ، وكان هذا خطأ فادحا ، على عكس سابقه المعزول ، الذي هاجم على الفور ، ومن أسف أن الخط الدفاعي الخاطئ لم يتغير منذ طرقت هذه الحملة أبواب الخلافة في الشمال ، وهو ما كان من أهم أسباب نجاحها ، كما كان ثالث ثلاثة الأخطاء الفادحة التي أودت في النهاية بالدولة المهدية.

ونتيجة للسياسة الدفاعية التي اتبعها عثمان أزرق فقد تمكن الجيش الزاحف من مد الخط الحديدي إلى أمبقول في ٢١ مايو ، على بعد واحد وثلاثين ميلا إلى الجنوب من سرس ، وقد حاولت الدوريات والكمائن الإسلامية التي وصلت على الآبار أن تعطل العمل في الخط الحديدي ، فلم يجد كتشنر بدا من احتلال فركة ، وهو ما تم في ٦ يونية ١٨٩٦م ، وتراجع عثمان أزرق.

وبعد هذه المعركة كانت الحملة قد اجتازت منطقة بطن الحجر الصعبة ، وأصبح الطريق أمامها ممهدا وصالحا لتحرك القوات النظامية والأسلحة الحديثة ،

ونقل كتشنر معسكره إلى كوشة.

وبعد معركة فركة كانت فترة من الترقب والانتظار بسبب الحاجة إلى تأمين خطوط المواصلات وتقويتها قبل الزحف ، وقد وضع كتشنر خطته على أساس الاستفادة من النيل ، والطريق البري معا ، وبخاصة وقت الفيضان ، حيث يمكن للزوارق البحرية الحربية عبور الشلالات ، وقد كان في حلفا أربعة ، وطلب ثلاثة أخرى ، وكان عليه الانتظار لحين وصول الخط الحديدي إلى كوشة من ناحية ، وارتفاع النيل من ناحية أخرى ، وبذلك يستطيع أن يتخذ من كوشة قاعدة للزحف ، لأن النهر بينهما وبين كرما صالح للملاحة.

وبينما الجيش في انتظار وصول السكة الحديد إلى كوشة ، ظهرت الكوليرا ثم تلاها التيفود ، وبرغم الخسائر الكبيرة فقد وصل الخط الحديدي في أغسطس إلى عكاشة ، وكان الجيش بانتظار القاطرات حين هطلت أمطار غزيرة في الفترة من ٢٧ إلى ٣١ أغسطس جرفت سبعة عشر ميلا من الخط الحديدي ، وبات الموقف ينذر بالخطر ، فالنهر سوف ينخفض في مدى أسبوعين ، ولن تتمكن القاطرات النهرية من عبور النهر ، وأخيرا أصلح الخط الذي انحرف ، وهنا قرر كتشنر احتراق الصحراء مباشرة ، دون السير بمحاذاة النيل لتوفير نصف المسافة تقريبا.

وعندما كان كتشنر بين أبي صار وكرما في ١٥ سبتمبر وصلته أنباء بأن ود بشارة قرر أن يهاجم الجيش أثناء عبوره ، وفي صباح ١٩ سبتمبر وصلت الحملة إلى كرما فوجدتها خاوية ، فقد عسكرت القوات الإسلامية في الضفة المقابلة في مواقع حصينة ، وتغلب عليها روح معنوية عالية ، وقد تلقت مزيدا من التعزيزات ، وعليه فقد أشاع الانجليز عن طريق مخابراتهم أنهم سوف يهاجمون دنقلة مباشرة ، وأنهم سوف يستمرون في السير على الضفة الشرقية ، وصدرت

الأوامر للزوارق الحربية بالمرور متخطية المواقع الإسلامية ، وعليه فقد خشي المسلمون على أهليهم في دنقلة أن يهاجمهم الإنجليز من الخلف ، فأخلوا مراكزهم في الليل منسحبين إلى دنقلة.

ثم ما لبث العدو أن عبر النهر في اليومين التاليين ، بعد أن انخدع المهديون بإخلاء كرما ، وأسرعوا في تحصين دنقلة لأن المدينة لو سقطت لأصبح الطريق مفتوحا أمام العدو ، حيث كان من الممكن أن تتقدم القاطرات النهرية بعدها حتى مروي في وقت التحاريق ، وزحف الانجليز دون توقف ، وعندما وصلت الزوارق الحربية المعادية إلى دنقلة واصلت ضرب المدينة ، دون توقف لإرهاب المسلمين ، وعدم إعطائهم فرصة لتحصين المدينة.

وفي ٢٣ سبتمبر عقدت القيادة الإسلامية اجتماعا لمناقشة الموقف ، فكان رأي معظم القادة الانسحاب إلى الدابة ، حيث أنهم لا قبل لهم بمواجهة الجيش الزاحف ، برغم أن ود بشارة كان يرى الصمود بوجه العدو ، وأخيرا تقرر الانسحاب في الوقت الذي كان الانجليز يحيطون بالمدينة على شكل نصف دائرة ، والزوارق الحربية تواصل قصفها من البحر ، وأخليت دنقلة وتراجع ودبشارة وعثمان أزرق ، كان مسلسل الانسحابات من أفدح الأخطاء ، ويبدو أن عثمان أزرق كان وراء هذا المسلسل ، ولا أدرى ما السبب ؟.

وبعد إخلاء العاصمة دنقلة احتل الانجليز المديرية حتى مروي ، التي احتلتها الزوارق الحربية في ٢٦ سبتمبر ، بعد أن وضعت يدها على الدابة ، وفي بداية أكتوبر وصلت إمدادات مصرية للصليبيين الإنجليز ، فوزعت على مراكز العدو في الدابة والخندق وكورتي ومروي ، وقسمت المديرية إلى أحد عشر مركزا إداريا وعين هنتز قائدا للجيش ، وحاكما عسكريا للمديرية.

وبات واضحا أن الزحف لابد أن يستمر جنوبا حتى أم درمان لإسقاط الخلافة الإسلامية ، ولكن العدو بقى فترة لاستطلاع الموقف ، وتحصين مواقعه الجديدة التي احتلها.

استمرار الزحف :

وعقب احتلال دنقلة راودت المصريين الرغبة في التقدم أبعد من هذا ، إذ كانوا تواقين لعودة حكمهم إلى السودان ، ولكن الحكومة البريطانية طلبت مهلة قبل التقدم إلى ما وراء دنقلة ، وكانت المشكلة من يدفع ؟ فقد كان غزو السودان للقضاء على الخلافة يحتاج إلى مليوني جنيه ونصف المليون ، وفي ديسمبر ١٨٩٦م سويت الأمور نهائيا ، إذ أسهمت انجلترا مشكورة بمبلغ ثمانمائة ألف جنيه ، في حين تحملت مصر الباقي ، وهو مبلغ بسيط لم يجاوز المليون ونصفه !! فلا يجب أن يحارب الإسلام وأهله إلا بأموال إسلامية أيضا !!.

وتقرر استمرار الزحف بعد عودة كتشنر من لندن ليبدأ المرحلة التالية من الحملة على الخلافة ، وكان عليه مره أخرى مواجهة مشكلات النقل والتموين ، إذ كان لابد من مد الخط الحديدي لتموين الجيش المتقدم وتعزيزه ، وقد تم إنجاز الخط حتى كرما في ٤ مايو ١٨٩٧م عقب الاستيلاء على دنقلة ، وكان انجاز باقي الخط يقتضي الاستيلاء على المدن الكبرى في الطريق.

وكان كرومر يرى أن قوات الخليفة الرئيسة لازالت كما هي ، ولابد من الالتحام معها عاجلا أو آجلا ، وأنه لابد من الاعتماد أكثر على المساعدة البريطانية إذا هزم الأنصار الجيش المتقدم ، وأنه برغم النتائج السريعة التي حققها في حملة دنقلة ، فإن من المشكوك فيه الاعتماد المطلق على القوات المصرية في العمليات

القادمة ، وكان على الجيش الزاحف أن يكون دائم الترقب ، مع مرونة الحركة ، وقدرة سريعة على مواجهة كافة الاحتمالات ، لأن التقارير الواردة عن القوات الإسلامية كانت مضطربة ، ولا يمكن الاعتماد عليها ، وكانت المرحلة التالية تقتضي الاستيلاء على أبي أحمد ، واتخاذها قاعدة قبل الشروع في أي زحف أبعد منها ، حتى يمكن تنفيذ باقي الخط الحديدي ، الذي بدأ من حلفا عبر صحراء النوبة ، وكان هذا يتطلب قوة كبيرة ، ولذا كان على كتشنر احتلال المدينة أثناء ارتفاع النيل عن طريق الزوارق الحربية ، وعندما اقترب الخط الحديدي من أبي أحمد احتلها هنتر ، قائد المشاة المصرية ، في ٧ أغسطس ١٨٩٧م.

ولكن القوة المصرية التي احتلتها كانت صغيرة نسبيا ، فواجهت لحظات عصيبة بعد أن أصبحت منعزلة عن القوة الرئيسة للجيش المصري ، ولو استطاع الخليفة إرسال قوة من حامية بربر أو من الجنوب لكان من الممكن القضاء على هذه القوات أو عزلها.

ولكن الخليفة كان يعتقد أن كتشنر سوف يكرر خطة ولسلي ، فيرسل فرق الصحراء إلى متمة ، ولذا فلا حاجة إلى حامية بربر ، وعليه فقد احتل الانجليز المدينة دون قتال في ٣١ أغسطس ، وأصبح الطريق بينها وبين سواكن مفتوحا ، ولذا كان إخلاء بربر والانسحاب منها خطأ آخر مكن الإنجليز من مواصلة الزحف نحو عاصمة الخلافة.

ولعل الخليفة كان يعتقد أن الجيش القادم مهما كانت قوته سوف يلقى مصير جيش هيكس وولسلي ، حيث الصحراء ، وطول المسافات ، وقطع الفيافي والقفاز ، ولكن الأمر كان مختلفا هذه المرة ، إنه تقدم ببطيء خطر ، ليس اختراقا متهورا ، يودي بأصحابه في النهاية ، وتبتلعهم الصحراء ، وكان مد الخط الحديدي أكبر شاهد

على خطر هذا التقدم وفعاليته ، وان على الخليفة أن يدرك هذا كله ، ولكن يبدو أن الاستخبارات الإسلامية لم تتمكن من التعرف على خطط العدو ونواياه.

ويكفي أن نعرف أن تكاليف الخط الحديدي بلغت مليونا ومائتي ألف جنيه ، في حين أن النفقات العسكرية كلها لم تجاوز المليون جنيه ، مما يدل على الأهمية القصوى للخط الحديدي الذي مكن العدو من حل مشكلتي النقل والتموين ، وكانتا مشكلتي المشكلات من قبل.

وفي نوفمبر ١٨٩٧م أصبح لدى السلطات العسكرية في القاهرة يقين أن القوات الإسلامية سوف تركز مقاومتها ، وأن عملية تجميع هائلة للقوات المهدية تجري دون توقف ، وبدا الموقف مقلقا ، ولقد وضع احتلال بربر القوتين المتصارعتين وجها لوجه ، وأصبح من المحتمل أن تقوم القوات الإسلامية بهجوم مفاجئ ، وأن الجيش المصري إذا كان قادرا على صد أي هجوم ، إلا أنه من الصعب أن يقوم بعمل مركز ضد المسلمين ، بسبب المساحات الكبيرة التي تفصل وحداته الموزعة على المواقع التي تم احتلالها.

وما كان يقلق كرومر في ذلك الحين هو أن تقوم وحدات خفيفة من الجيش الإسلامي بالالتفاف حول خطوط الجيش المصري ، وتهدد الخط الحديدي في الشمال وهو ما كان يمكن أن يؤدي إلى قطع خطوط التموين ، وعليه فقد أرسل كرومر إلى كتشنر يعبر عن قلقه بخصوص الوضع العسكري في السودان ، ويخبره أن عليه أن يطلب القوات اللازمة إذا احتاج.

<u>في أم درمان</u> : عندما وصلت الأنباء إلى الخليفة بسقوط دنقلة أدرك أن احتلال المدينة مقدمة لغزو الدولة المهدية ، وعندما تم احتلال أبي أحمد في

أغسطس ١٨٩٧م ، اعتقد الخليفة أن كتشنر سوف يكرر خطط ولسلي ، كما سبق أن أشرنا ، أي أن فرق المشاة سوف تزحف عن طريق الصحراء إلى المتمة رأسا ، بعد احتلال كورتي ، لذا رأى أن يقيم خط دفاعه عند المتمة.

ورأى الخليفة أن الصدام بين الجيش المتقدم من الصحراء وبين القوات الإسلامية في مكان قريب من المتمة ، وذلك عندما يظهر الجيش من الصحراء في حالة من الإعياء ، فتحول القوات الإسلامية دون وصوله إلى النهر ، وعليه فقد استدعى الخليفة ابن عمه محمود أحمد من دارفور ليتولى الدفاع عن المتمة.

وكانت التعليمات تقضي بالمحافظة على أبي أحمد إلا إذا وصلت الزوارق الحربية ، ففي هذه الحالة ينسحب محمد الزين مع حامية المدينة إلى بربر ، ولكن المدينة ما لبثت أن سقطت في يد هنتر ، كما رأينا ، وأسر محمد الزين ، غير أنه تقرر تركيز الدفاع عند المتمة ، بعد إخلاء بربر ، التي احتلها الجيش الزاحف ، كما سبق.

تلك الخطوط العريضة لخطة الخليفة في مواجهة الجيش المصري في المرحلة الأولى من العمليات ، يؤخذ عليها أن الدفاع فيها تركز على المتمة ، وتركت أبو أحمد وبربر لتقعا فريستين سهلتين في يد الجيش الزاحف ، وكان من الأجدى تركيز الخط الدفاعي في ثلاث نقاط متقاربة ، هي أبو حمد وبربر والمتمة ، على أن توضع فيها قوات سهلة الحركة ، لتعاون المواقع الثلاثة فيما بينها في مواجهة العدو ، وقطع خطوط مواصلاته ، وتهديد مراكز إمداده وتموينه ومناوشته ، حتى لا يأخذ فرصة للراحة والاستقرار ، فإذا ما أنهكت قواه ، أمكن للقوات الإسلامية أن تلتحم معه في معركة فاصلة ، غير أن من الواضح أن الخليفة اتخذ موقفا دفاعيا طوال مراحل تقدم الجيش المعادي ، ومنذ عزل حمودة إدريس وتولية عثمان أزرق

ولو اتخذ موقفا هجوميا منذ اللحظة الأولى لحصل على نتائج أفضل.

معركة العطبرة :

انضم عثمان دنقة إلى محمود أحمد في جبهة الشمال ، تلك الجبهة التي كانت بحاجة ماسة إليه ، منذ طرقت الحملة الأبواب الشمالية ، وقد تغيرت الخطط فور وصوله ، إذ رأي ضرورة التقدم لاختراق الصحراء ، والالتفاف حول العدو المتقدم نحو العطبرة ، والنزول على النيل خلف خطوطه ، وعليه فقد كان على القوات الإسلامية أن تتقدم شمالا ، بعد عبور النهر إلى الضفة الشرقية ، ولكنها لم تتمكن من التقدم أبعد من النخيلة ، أو لعل القيادة اختارتها لموقعها الحصين ، كما سنرى.

على أية حال فإن القيادة الإسلامية شيدت موقعا حصينا ، تحيط به ثلاثة خطوط من الخنادق العميقة ، وانتهت هذه الأعمال والتحصينات في ١٩ مارس ١٨٨٩م ، وفي اليوم التالي وصل كتشنر رأس الحوزة حيث عسكر هناك ، وبقي الجيشان أسبوعين يقفان وجها لوجه ، لا يفصلهما سوي عشرين ميلا ، وكل من الفريقين ينتظر أن يهاجمه الآخر ، وحاول كتشنر إغراء القوات الإسلامية بالخروج إليه ، ليشتبك معها في أرض مفتوحة ، ليستغل تفوقه في السلاح ، ولكنه الصقر عثمان دنقة يا كتشنر ، لا يمكن أن تستدرجه أو تخدعه.

وكانت المشكلة أمام كتشنر هي كيف يتأكد من موقف خصمه ، الذي تحصن داخل موقع تحيط به أشجار كثيفة ، تعوق استطلاع المواقع خلفها ، وقد استطاع هنتر - على رأس قوة استطلاعية - الاقتراب ثلاثمائة ياردة من الخنادق الإسلامية ، فوجد أن الموقع حصين ، وتحيط به أشجار كثيفة ، لا تسمح بالرؤية ، بحيث فشلت عملية الاستطلاع.

ولما نفد صبر كتشنر قرر الزحف من رأس الحوذي على النخيلة في ٤ أبريل ، ولكن في بطء وحذر شديد ، مع القيام باستطلاع كامل حتى يضمن لهجومه النجاح ، ووصل في تقدمه إلى رأس عدار ، على بعد أحد عشر ميلا من النخيلة.

وفي صباح الخامس من أبريل ، وقبل الهجوم العام قرر كتشنر أن يرسل آخر دورية استطلاع بقيادة هنتز ، الذي اقترب من المعسكر الإسلامي ليشتبك معه الفرسان في قتال ضار ، وأطبقوا عليه من كل جانب ، ولكنه تمكن من الإفلات والهرب.

وخشي كتشنر أن تحصل القوات الإسلامية على إمدادات أخرى ، فقرر الهجوم ، وخرج على رأس جيشه في السابع من أبريل ، ومع فجر اليوم التالي كانت القوات الزاحفة على بعد ثلاثمائة ياردة من المواقع الإسلامية.

وفي صباح الساعة السادسة والربع من صباح الثامن من أبريل بدأ ضرب التحصينات الإسلامية ، التي ردت على النار بالمثل ، وخرج الفرسان من الجناح الأيسر ، لكنهم تراجعوا أمام مدافع المكسيم السريعة الرشاشة ، وبعد ساعة صدر الأمر إلى الجيش المصري باقتحام المواقع الإسلامية ، وفي الساعة الثامنة والربع انتهت المعركة ، بعد أن تمكنت القوات المهاجمة من الوصول إلى نهر العطبرة ، وأخذت تطلق النار على القوات المنسحبة.

وكان ثمن المعركة باهظا من الجانبين ، فقد خسر العدو أكثر مما خسر في معركة أم درمان ، وتعتبر هذه أقسى المعارك وأشدها ضراوة ، وكان من الممكن أن تكون الخسائر أقل لو أن كتشنر انتظر إلى أن يخرج إليه المسلمون ، ويرى أحد الباحثين أن القوات الإسلامية كانت لا محالة خارجة ، لذا لم يكن من الممكن أن تبقى في مواقعها إلى الأبد.

ووقع القائد محمد أحمد أسيرا ، وكان لدى آسريه من الوقاحة ما يكفي لسؤاله عن مسئوليته في جلب الموت والدمار إلى بلاده ؟؟ من الذي جلب الموت والدمار يا كلاب ؟ هل يجلبه من يدافع عن بلاده ضد محتليها ؟ هل محمود أحمد هو الذي جلب لبلاده ما ذكرتم أم أنتم ؟ وما جلبكم إلى هذه البلاد ، وهل مست لكم طرفا يا أبناء الأفعى !! إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، ورحمة الله عليك يا سيدنا المهدي ، كنت ستؤدبهم ، وتخرسهم إلى الأبد ، كما أخرست هيكس وغوردون وستيوارت ... الخ.

والحق أنه لا يليق أن نترك هذه المعركة قبل أن نثبت وصف مورهيد لها ، حتى يدرك كل مسلم بعضا من جرائم الأفعى ضد الموحدين ، يقول :

(سار الأمير محمود أحمد على النيل ، وهو من أشد قادة الخليفة ضراوة ، حتى بلغ العطبرة ، ليلتقي بالحملة القادمة ، وفي يوم الجمعة اليتيمة انقض عليه كتشنر بكل قوة مدفعيته الحديثة ، وعلى عزف موسيقى القرب الاسكتلندية والمزامير الانجليزية ، والطبول والموسيقى النحاسية اجتاح الجنود المصريون والبريطانيون متاريس العرب !! ولم يتح للعدو منفذ ، فسرعان ما بلغ القتلى ألفين) انظر يا أخي كيف تكون الحرب ، إنهم يقتلون المسلمين على أنغام الموسيقى ، يمتعون أسماعهم بالموسيقى ، وأنظارهم بقتل المسلمين ، متعة ما بعدها متعة !!.

أما تشرشل فيقول (مر كتشنر بجواده على طول صفوفه ، فإذا جنود اللواءات البريطانية يرفعون خوذاتهم على السونكيات القاتمة الملطخة بالدماء ، يحيونه بكل حماس ، وبحرارة الحرب المظفرة) منظر الدماء الإسلامية يملؤهم فرحة وسعادة وبهجة !! رحمة الله عليك يا سيدنا المهدي.

وأقيم عرض للنصر في مدينة بربر المجاورة ، وامتطى كتشنر جواده

الأبيض ليتلقى التحية ، وكان على رأس العرض القائد المسلم محمود ، شاب وسيم بادي الشم والكبرياء ، في أوائل العقد الرابع من العمر ، الأغلال تحيط بساقيه ، وحبل المشنقة يحيط بعنقه ، ويداه مغلولتان خلف ظهره ، وبهذه القيود يدفع إلى المشي آنا ، وإلى الجري أحيانا ، فإذا تعثر دفعه حراسه.

وكانت فرصة للإنجليز والمصريين أن يسخروا من الأسير ويرجموه بالأوساخ ، يقول مورهيد : (كان حادثا وحشيا ، وتبعه ما هو أسوأ) تلك هي الحرب الاستعمارية ، وهذه هي إنجلترا يا سادة يا كرام.

أما الصقر عثمان دنقة فلم يستطع أحد الإمساك به ، إذ استطاع الانسحاب مع باقي القوات الإسلامية إلى القضارف ، والحق أن إفلات هذا الصقر من كل المعارك التي يهزم جيشه فيها ، والانسحاب بسلام مع بقية قواته ، هذا الأمر يستحق الدراسة من العسكريين المسلمين ، لتكون طريقته في الانسحاب درسا للقائد المسلم الذي ينكشف بجيشه ولا يتمكن من هزيمة عدوه ، كيف يستطيع الإفلات ؟؟ لإعادة الكرة على الأعداء مرة أخرى.

نعود إلى الحملة التي زحفت نحو أم درمان بتلك الروح الصليبية ، يحفزها النجاح والشوق إلى مزيد من الغنائم ، ومن أمجاد القتال ، فبلغت المتمة أوائل صيف ١٨٩٨م ، حيث وجدت الخنادق والقبور التي كان جنود ولسلي قد حفروها عندما كانوا يزحفون نحو الخرطوم ، قبل ثلاثة عشر عاما.

معركة أم درمان :

لم يواصل كتشنر زحفه جنوبا بعد معركة العطبرة ، وإنما بقي بانتظار الفيضان ، ليستفيد من ارتفاع النيل في عبور الزوارق الحربية من ناحية ، ووصول

الإمدادات من ناحية أخرى ، وفي يونيه ١٨٩٨م وصلت ثلاثة زوارق جديدة ، ووصل الخط الحديدي إلى العطبرة في ٣ يونيه ، وبذا يكون قد امتد مسافة ٣٩٠ميلا إلى الجنوب من حلفا ، وبوصول أول قطار حربي إلى نقطة التقاء النيل بالعطبرة كان الخطر قد تمكن من دولة الخلافة ، وبادر كتشنر إلى مد خط للبرق بين سواكن وبربر وبين أبي حمد وبين العطبرة.

وفي يوليه ١٨٩٨م كانت الإمدادات المصرية والإنجليزية قد وصلت إلى مراكز التجميع ، وطالب كتشنر بأربع كتائب مشاة ، وآلاي فرسان ، وبطاريتي مدفعية ، وعدد من مدافع المكسيم السريعة.

وفي ١٤ أغسطس أصبحت القوة الزاحفة تتكون من ٢٥,٦٠٠ جندي ، بلغ عدد القوات الانجليزية ٨,٢٠٠ والمصرية ١٧,٠٠٦ ، وكان لدى القوة ٤٤ مدفعا ، إضافة إلى عشرين مدفع مكسيم ، إلى جانب عدد من مدافع الزوارق الحربية ، التي أصبح عددها عشرة ، إضافة خمس بواخر نقل ، وتولى القيادة العامة كتشنر ، وتولى رئاسة الأركان اللواء راندل ، وترأس المخابرات الأميرال وينجت ، يعاونه اللواء سلاطين.

وتقرر أن يزحف الجيش كله على الضفة الغربية للنهر ، على أن يسير في محاذاته قوة غير نظامية من العملاء أطلق عليهم العربان المتحابة ، بلغ عددهم ألفي جندي ، وقاد القوة الرائد ستيوارت ورتلي.

ومنذ شهر يوليه حتى ٢٣ أغسطس ركز كتشنر جيشه في ود حامد ، وهي قرية صغيرة ، تقع على الضفة الغربية للنيل ، على الشلال السادس ، وعمل على تخزين مقادير كبيرة من المؤن بالعطبرة ، وما يليها جنوبا ، تكفي لتموين الجيش ثلاثة أشهر.

وفي ٢٤ أغسطس بدأ الزحف إلى جبل الرايان جنوب خانق سبلوقة ، وقد استخدم كتشنر جزيرة وسط النهر ، عند الرايان في إقامة مخزن للتموين ، ومستشفى ميداني ، وبعد ذلك زحف سائر الجيش إلى أم درمان تتقدمه الزوارق الحربية في النيل ، إبل الحملة في البر ، ويسير العملاء من البدو في محاذاته ، على الضفة الشرقية للنيل.

وفي ٣ أغسطس كان الزحف قد أصبح على مشارف أم درمان ، فأرسل كتشنر إلى الخليفة :

(من سردار الجيوش المصرية والإنجليزية ، إلى عبد الله التعايشي ، زعيم السودان ، اعلم أن شرورك في السودان ، ولا سيما قتلك الجم الفقير من نفوس المسلمين الأبرياء أوجبت تقدمي بجيوش إلى هذه البلاد ، لدك سلطتك ، وإراحة البلاد من شرك وبغيك !!!.

ولكن بين جيشك الكثير من الأهلين ، الكارهين لك ولحكومتك ، ومن العواجز والنساء والأولاد ، الذين لا نريد أن يلحق بهم سوء !!! فاعزل هؤلاء عن جيشك إلى مكان لا تصله القنابل والرصاص لئلا يقتلوا ، وتكون أنت المسئول عن دمائهم أمام الله ، واثبت أنت وأشياعك فقط في ساحة القتال لتلاقوا النقمة التي أعدها الله لكم ، وأما إذا كنتم تودون التسليم حقنا للدماء ، فإننا نستقبل رسلكم استقبالا حسنا ، ونعاملكم بالعدل والسلام).

انظر يا أخي واعجب معي ما شاء لك العجب من هذا الوقح ، الذي جاء ليخلص السودان من شرور الخليفة ، وانظر إلى شفقته على نفوس المسلمين الأبرياء !!! ولا ينسى هذا الكتشنر أن يسخر من الشهادة ومن الجنة !!! ترى هل يمكن أن ينخدع بهذا الكلام أحد في الدنيا ، التي رواها النيل ؟؟ يعلم الله.

أما الخليفة فإنه قرر عقب معركة العطبرة أن يركز دفاعه عن العاصمة ، وذلك بحشد كل قواته في أم درمان ، وأن يحصن المدينة ، وكان كل ما يخشاه هو الزوارق المسلحة ، فأقام سبع عشرة طابية ، ووضع سلاسل في النيل لتعوق تقدم الزوارق ، وفي ٣١ أغسطس خرج الخليفة بجيشه البالغ ٥١,٧٨٩ ، منهم ٥,٤٩٥ من الفرسان إلى ساحة العرضة غربي المدينة ، ومع فجر أول سبتمبر تمكن العملاء من البدو - بمساعدة الزوارق الحربية - من احتلال الخرطوم وجزيرة توتي ، وأمكن إنزال بطارية من مدفعية الهاوتزر إلى البر ، وفي الساعة الواحدة والنصف بدأت المدفعية تضرب قبر المهدي - عبر النيل - في أم درمان.

وفي أول سبتمبر ١٨٨٩م وصل الجيش الزاحف إلى منطقة العجمية ، وأقام معسكره على شكل دائرة ، يمثل النيل قطرها ، واتخذت القوات المصرية مواقعها إلى اليمين ، واتخذت الزوارق مواقعها في النيل لحماية ظهر الجيش ، الذي كان يفصله عن الجيش الإسلامي سهل فسيح ، في وسطه إلى اليسار جبل ضرغام حيث عسكرت خلفه القوات الإسلامية ، انتظارا للحظة الحاسمة ، وعن يمين السهل تلال كرري ، وكان الطريق إلى أم درمان ينحصر بين جبل ضرغام والنيل.

وفي الساعة السادسة وأربعين دقيقة من صباح الجمعة الثاني من سبتمبر ١٨٨٩م بدأت المعركة الفاصلة التي طال انتظارها ، على شكل ثلاث هجمات من جانب القوات الإسلامية ، بدأ الأول على شكل هلال كبير قاده عثمان أزرق ، بقوة بلغت ثمانية آلاف انتهى في الساعة الثامنة والنصف ، تلاه هجوم يعقوب شقيق الخليفة ، وكان مركزا على لواء مكدونالد ، وقد حاول اختراق الصفوف ، ولكنه استشهد ، وأخيرا كان هجوم الخليفة عليّ حلو وعثمان شيخ الدين ، وقد فشل أيضا وكان الأولى أن تبدأ القوات كلها في هجوم مركز ، فربما حصلت على نتائج أفضل.

وهكذا لم يكد ينتصف النهار حتى كان جيش الخليفة قد انكشف [١] ، برغم عنف المقاومة التي أبداها ، فقد استشهد في المعركة عشرة آلاف مسلم ، كما أصيب ستة عشر ألفا آخرين ، لابد أنهم تركوا في الصحراء ليموتوا ، إذ لم يكن لقلب كتشنر الكبير أن يسمح بإنقاذ جرحى المسلمين !!.

وقد أبدى المسلمون شجاعة واستبسالا يفوقان كل تصور في الذود عن الخلافة ، فبرغم مصرع عدد كبير في الهجوم الأول فقد واصلوا التقدم في صفوف ، وكلما سقط صف زحف فوقه صف آخر ، كتب المراسل الحربي للديلي ميل :

(لم يكن بوسع جيش أبيض أن يبقى خمس دقائق أمام سيل الموت ، لمواجهة نفس الظروف التي واجهها المهديون ، ولكن هؤلاء البقارة والسود واصلوا التقدم ، وكانت النيران تقضي على جماعات بأكملها ، وكان الصف يتشكل ، ويتقدم تحت طلقات المدافع وشظايا القنابل ، ثم يتوقف إلى الأبد ، فتتشكل صفوف أخرى ، لتلقى نفس المصير ، إنهم لا يريدون التقهقر ، ولا يستطيعون التقدم ، إنها لم تكن معركة ، وإنما كانت مذبحة) وقد وقع العبء في هذه المعركة أو المذبحة على القوات المصرية التي كان جنودها وضباطها ـ طوال العمليات ـ في خطوط النار الأمامية !!.

أما الجنرال كتشنر فقد كان ـ وقت القتال ـ يراقب المعركة من فوق جواده ، وأركان حربه حوله وعلم الجيش المصري الأحمر يرفرف فوق رأسه !! وبعد مهلة للغداء ركب كتشنر الذي أضاف علم الخليفة الأسود إلى علمه ليدخل أم درمان ، وكانت المقاومة ضئيلة فإن القوات الإسلامية قد انسحبت ، وعرف الناس سلاطين

---

(١) لعل الخليفة لو هاجم قبيل الفجر أو كانت المعركة في الصحراء فلربما حصل على نتائج أفضل فلقد كان للزوارق الحربية أثر كبير في حسم المعركة لصالح القوات المصرية والإنجليزية المشتركة.

الذين قضى - بالقطع - يوما ملينا بالفرح والتشفي.

وفي عصر اليوم نفسه شق كتشنر طريقه بين الجثث المتراكمة والحيوانات النافقة ؛ إذ كان قذائف المدفعية البريطانية شديدة الوطأة للغاية ، وقد استخدمت قنابل الليديت [1] لأول مرة - شق طريقه نحو قبر المهدي - رحمه الله - وهناك هوت أربع قذائف عند قدمي كتشنر تقريبا ، فلقي مراسل التايمز حتفه على الفور ، ولعلها كانت محاولة لاغتيال السردار ، الذي وصل إلى السجن ، فكم وجد فيه من السجناء يا سادة ؟ ألوف أو عشرات الألوف أو مئاتها ؟؟ كلا ، وجد قرابة الثلاثين سجينا ، منهم أحد التجار الألمان !! فكم يكون في سجون عواصم النظم المختلفة من مظلومين ؟؟ أمر لا يحتاج على سؤال.

ويتخذ الجنرال المجرم من مسجد المدينة مركزا لقيادته يا مسلمون ، وفي المساء حمل إليه المنافق سلاطين نبأ نجاة الخليفة ، الذي عاد من ساحة المعركة فاستراح ساعتين ، ثم زار قبر المهدي ، وفي الساعة الرابعة في نفس لحظة دخول كتشنر المدينة خرج الخليفة مع عدد من رجاله ، ومعه ثلاثون ألف محارب ، بينهم - أو قل على رأسهم - عثمان دنقة ، فلعله هو الذي دبر انسحاب المقاتلين الثلاثين ألفا ومعهم الخليفة ، وقد تعقب الإنجليز القوات المنسحبة إلى مسافة مائة ميل جنوب الخرطوم ، ولكنهم عادوا بخفي حنين ، إذ أسرع الخليفة ورجاله نحو الأبيض.

وشرع كتشنر يوطد أمجاد الانتصار في أم درمان ، وكانت القنابل قد أوقعت بقبر المهدي أفدح الأضرار فأخرج جثة المهدي - رحمه الله - من جوف الأرض ، وطوح بها في النيل ، ولكن بعد أن احتز الرأس منها ، فاستولى عليه غنيمة ، ولعله كان ينوي استخدام الجمجمة كمحبرة ، أو قدح للخمر ، أو أن يقدمه تحفة إلى

---

(١) مركب كيماوي شديد الانفجار.

كلية الجراحين بلندن ، ولذا أرسل الرأس إلى القاهرة ، ولما اهتاج الرأي العام لهذه البربرية اضطر كرومر إلى إرسال رأس المهدي - في هدوء - إلى وادي حلفا ، دفنت سرا ، تحت جنح الظلام.

وفي الخرطوم احتفل كتشنر بانتصاره ، وعين حاكما عاما للسودان ، كما اقترح غوردون منذ زمن طويل ، وانهالت عليه التهاني ومظاهر التكريم ، من أوروبا ومن بلاده خاصة ، فقد نشر اسمه في قائمة الترقيات للجيش البريطاني ، ومنحه البرلمان مكافأة سخية خرافية ، قدرها ثلاثون ألف جنيه ، وأجمع مجلس العموم واللوردات على شكره وتكريمه ، أما الملكة فقد كتبت في يومياتها حين سمعت باحتفالات النصر في الخرطوم : (لقد ثؤر لنا حقا).

وشرع خمسة آلاف عامل في إعادة بناء الخرطوم ، وصمم كتشنر على أن يكون القصر الجديد - الذي أقيم على أنقاض القديم - لائقا بمركزه !! فأمر العمال بأن ينقبوا في الخرطوم على مواد مناسبة ، وكتب إلى وينجت : (انهبوا كألسنة اللهب الضارية ، فإني أريد أية كميات من الدرجات الرخامية والدروب المرمرية ، والقضبان الحديدية ، والمرايا والأبواب والنوافذ والأثاث من كافة الأنواع) كذلك أوحى إلى المدن التي كانت تواقة إلى تكريمه في إنجلترا بأنه لم يعد بحاجة إلى خوذات تذكارية أو سيوف للزينة ، ولكنه يريد اللوحات والأثاث والصور لبيت خاص كان يعتزم شراءه.

وهكذا انتقل الحكم الجديد إلى الخرطوم مرة أخرى ، وبدأت مطاردة الخليفة عبد الله التعايشي ، إذ القضاء على الخلافة لا يتم إلا بالقضاء على الخليفة نفسه ، كما تعودت الأفعى في حربها.

استشهاد الخليفة :

منذ سقطت دنقلة شعر الخليفة بالخطر القادم من الشمال ، لذا استدعى أحمد فضيل قائده في القضارف لتعزيز الجيش الذي سيواجه كتشنر ، وعندما تخلى الإيطاليون عن كسلا للحكومة المصرية في نهاية ديسمبر ١٨٩٧م اعتقد الخليفة أن الخطر أصبح يتهدد القضارف ، لذا عاد إليها أحمد فضيل مع بقية جيشه لمواجهة تهديد كسلا المحتمل ، وحماية الجناح الأيمن من جيش الخليفة من أي هجوم يمكن أن يتعرض له من تلك الجهات ، غير أن قوات كسلا المصرية لم تشترك في العمليات كما أن كتشنر زحف إلى أم درمان.

وأخيرا استقر رأي أحمد فضيل على نجدة الخليفة ، لكنه لم يكد يصل رفاعة على النيل الأزرق حتى وقعت معركة أم درمان ، وكان كتشنر قد علم بخروجه من القضارف ، فوضع خطة للإيقاع به ، وكلف اللواء باسوتز قائد حامية كسلا بالزحف على القضارف ، وفي نفس الوقت طلب إلى هنتز مراقبة النيل الأزرق ، وخرج باسوتز من كسلا في ٧ سبتمبر ، وعبر العطبرة ، واستولى على القضارف في ٢٢ سبتمبر.

وعند أبي حراز اعترضت زوارق هنتر طريق أحمد فضيل ، ولم تمكنه من عبور النيل الأزرق إلى الجزيرة ، ثم سارت في النهر ، ووضعت يدها على سنار والوصير ، ثم استولت على فازوغلي وفايكة في ٢٢ يناير ١٨٩٩م.

ولما علم أحمد فضيل بسقوط القضارف عاد إليها وهاجمها ، ولكنها استعصت عليه ، فعسكر على بعد ثمانية أميال جنوب المدينة ، وأرسل دورياته لقطع الطريق بين القضارف وبين كسلا ، مما اضطر كتشنر إلى إرسال قوة بقيادة اللواء

راندل للتعاون مع القضارف في القضاء على أحمد فضيل ، وهنا أدرك القائد الشجاع أن لا قبل له بمهاجمة القضارف فانسحب من جبل عصار ، الذي كان يعسكر فيه ، وقرر أن يخترق الجزيرة في طريقه إلى كردفان.

وعندما عبر النيل الأزرق بالقرب من الروصير لحقت به قوة من خمسمائة جندي في ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨م ، ولكنه تمكن من الإفلات مع جزء كبير من جيشه إلى داخل الجزيرة ، وشق طريقه إلى الغرب نحو النيل الأبيض ، وعند الرنك اعترضهم أحد الزوارق المعادية ، ولكن القائد أفلت هذه المرة أيضا ، حيث انضم مع بقية جيشه إلى الخيفة في دار الجومعة في كردفان.

أي نوع من الرجال كان الفضيل ودنقة وغيرهما ، ومن أي الأكاديميات العسكرية تخرجهم أيها الأبطال .. إنها مدرسة محمد بن عبد الله التي رفع قواعدها خليفته ، سيدنا المهدي ، رحمه الله.

وكان الخليفة قد وصل بعد معركة أم درمان إلى أبي ركبة ، فكتب إلى رجاله الذين كانوا بعيدين عنه ، ومنهم القائد الفضيل ، وفي أواخر عام ١٨٩٨م كان كتشنر قد علم أن الخليفة قرب شركيلة ، فعهد إلى شقيقه فريدرك بقيادة كتيبة من ١٢٠٠ جندي للقبض على الخليفة الذي كان لديه قوة بلغت تسعة آلاف مقاتل ، ومن ثم جبن فردريك عن مهاجمة القوات الإسلامية.

وظل الخليفة ينتقل من مكان إلى آخر حتى استقر به المطاف في جبل قدير - حيث هاجر المهدي منذ ثمانية عشر عاما تقريبا - فجرد كتشنر جيشا قوامه ثمانية آلاف ، وزحف بهم على قدير ، ولكنه لم يظفر بشيء فعاد أدراجه إلى أم درمان.

وبعد انتهاء موسم الأمطار في نوفمبر ١٨٩٩م وصلت الأنباء إلى الإنجليز

بأن الخليفة يزحف شمالا نحو جزيرة آبا في طريقة إلى أم درمان ، وكان هذا خطأ من الخليفة ، إذ كان عليه أن يعتصم بجبل كردفان والصحراء حتى يقوى على مواجهة كتشنر ، ولكنها روح الشهادة الغلابة التي كانت تشري في دماء هؤلاء الرجال ، تلك الروح الجهادية التي نماها ورعاها سيدنا المهدي ، عليه رحمه الله.

ولعل الخليفة كان يعتمد على أن الرأي العام السوداني كان ثائرا بسبب إعدام الخليفة محمد الشريف وولدي المهدي ، في صيف ١٨٩٩م ، وكانوا قد استسلموا قرب جزيرة آبا في نوفمبر ١٨٩٨م ، ثم أفرج عنهم ليتهموا بالعصيان فقبض عليهم وحكم عليهم بالإعدام رميا بالرصاص ، فإن الأفعى لا تطيق أن ترى خليفة لرسول الله (ﷺ) ولا أحدا من عقبه ، وهي لم تتعود ذلك يا سادة !! روحها الصليبية غلابة.

وحين علم كتشنر بعزم الخليفة على الزحف إلى أم درمان جهز قوة من ثمانية آلاف رجل إلى كاكا أقرب بقعة على النهر ، وفي نوفمبر ١٨٩٩م وصل وينجت ليتولى القيادة ، وفي مساء ٢١ نوفمبر والقمر متألق سار وينجت إلى الغرب من النيل مع طابور خفيف من ٣,٧٠٠ رجل مختارين ، فصادفوا في اليوم التالي قافلة يقودها أحمد فضيل غربي جزيرة آبا ، فاستولى وينجت على القافلة ، ولكن الفضيل تمكن من الإفلات هذه المرة أيضا ، ووصل إلى معسكر الخليفة.

وانطلق وينجت خلال غابة كثيفة ، وفي ٢٣ نوفمبر أخبره المستطلعون أن معسكر الخليفة يقع في أم الذويكرات على مسيرة ستة أميال تقريبا ، ولاح أن الخليفة سوف يضطر للقتال هذه المرة ، سيما وقد استولى الأعداء على قافلة الغلال التي كان يقودها أحمد فضيل ، كما سدت عليه منفذه من الشمال ، ولم يكن في الجنوب سوى أرض وعرة جرداء.

وقرر وينجت أن يهجم عند الفجر ، وتحرك الطابور بأقل جلبة ممكنة ، بعيد منتصف الليل ، وراكبو الجمال يحفون به ، والفرسان أمامه ، وكان على الجنود أن يحطموا أشجار الغابة من طريقهم في أماكن كثيرة ، ولم تحن الساعة الثالثة صباحا حتى كان الخيالة على مسافة ميل واحد من المعسكر الإسلامي ، فصدرت الأوامر للمشاة بالسير في تشكيلة قتال ، وسمعوا على البعد طبولا وأبواقا تستنفر من في معسكر الخليفة ، ولكن هذه الأصوات ما لبثت أن سكتت ، وبرز الجنود إلى منطقة الأعشاب ، على مرتفع من الأرض ، دون أن يعترضهم أحد.

وفي الخامسة وعشر دقائق صباح الرابع والعشرين من نوفمبر ١٨٩٩م ، وضوء الفجر لم يتضح ، توغلت طليعة المشاة المعادية ، وظهرت التشكيلات الإسلامية غير واضحة ، وصبت المدافع البريطانية نيرانها على المسلمين ، الذين سقط منهم ألف ما بين شهيد وجريح.

ولكن المنظر الرهيب حقا ما رآه وينجت في ساحة القتال نفسها :

(على مسيرة بضع مئات من الأمتار من موقعنا الأصلي ، على المرتفع ، كان عدد كبير من الجثث ، وقد تراكمت على بعضها في مساحة ضيقة ، وقد تبين أنها جثث الخليفة عبد الله التعايشي ، والخليفة عليّ حلو ، والقائد أحمد فضيل ، وشقيقي الخليفة الأول ، السنوسي أحمد وحامد محمد ، وابن المهدي الصادق ، وعدد من الزعماء المعروفين.

وقد تبين أن الخليفة حين فشل الوصول إلى المرتفع حاول القيام بحركة التفاف سحقناها بنيراننا ، فلما رأى رجاله يتراجعون قام بمحاولة لاستنهاضهم ، ولكنه أدرك أنه خسر المعركة ، فدعا الأمراء إلى الترجل عن خيلهم ، وجلس على فروته ـ فروة شاة ـ على عادة زعماء العرب الذين يأنفون الاستسلام ، والخليفة

عليّ حلو عن يمينه ، والقائد أحمد الفضيل عن يساره ، بينما حف بهم الأمراء الباقون ، واصطف حراسهم على بعد عشرين خطوة أمامهم، ولقي الجميع مصرعهم بهذا الوضع ، غير مجفلين ، وقد دفنهم من بقي من رجالهم ، دفنا لائقا تحت إشرافنا) في أرض المعركة استشهدوا في رباطهم ، لينالوا ثواب المرابط إلى يوم [1] القيامة ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقد دفن الشهداء الأبرار (ﷺ) في مقبرة لا تبعد كثيرا عن جزيرة آبا التي شهدت ميلاد الثورة ، أما الصقر فقد أفلت أيضا ، وعبر النيل إلى الشرق حي وصل إلى جبال البحر الأحمر ، وهناك قبض عليه الإنجليز ، في يناير [2] ١٩٠٠م ، رحمة الله عليه ، وكان هذا القائد العظيم عثمان دنقة ، آخر من قبض عليه من رجال الخلافة.

وباستشهاد الخليفة عبد الله التعايشي في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م تمكن الإنجليز من إسقاط الخلافة الإسلامية ، التي عاشت من الزمن قرابة العشرين عاما ، وقد ذكرنا أنها خلافة راشدة مهدية ، على منهاج النبوة ، وهي مدة ليست قصيرة قليلة ، فقد كانت الخلافة الراشدة الأولى ثلاثين عاما ، تلاها الملك الوراثي ، عي يد معاوية وبنيه.

وقد اشترك في القضاء على الخلافة خمس دول هي مصر وإنجلترا والحبشة وإيطاليا وفرنسا ، كما اشتركت أيضا قوات هندية ، وقد قاد الحرب ضد الخلافة الأفعى ، أي إنجلترا ، فهي دائما العدو المشرف على حرب المسلمين والكيد لهم.

---

(١) انظر إنفاق الميسور للسلطان محمد بللو، ص ٢٠.

(٢) استولى العقيد ماهون على الأبيض في ٢٧ ديسمبر ١٨٩٩م ، وتكفل بدارفور السلطان محمد الفصلي ، الذي تعهد بدفع جزية سنوية للحكومة.

وقبل أن نتحدث عن نتائج إسقاط الخلافة ، يحسن أن نشير إلى دور فرنسا ، إذ أسهمت هي الأخرى في الكيد للمسلمين بإسقاط دولتهم.

زحف الجبناء :

أحاط الصليبيون بالخلافة المهدية من كل جانب ، الأحباش والإيطاليون من الشرق ، ولا تكتفي إنجلترا بزحف القوات المصرية الإنجليزية المشتركة من الشمال بقيادة مجرم الحرب كتشنر ، بل كانت هناك حملة إنجليزية أخرى بقيادة مكدونالد تزحف على دولة الخلافة من الجنوب.

أما الفرنسيون الجبناء فقد انتهزوا تداعي الجيوش على الخلافة ، فبدأت تتحرك من مستعمراتها لتطرق الحدود الغربية والجنوبية ، ليكتمل الحصار من جميع الجهات ، الشمال والشرق والجنوب والغرب أيضا ، ففي ٢٥ فبراير ١٨٩٦م صدرت التعليمات إلى مارشال من وزير المستعمرات بقيادة حملة فرنسية إلى أعالي النيل عن طريق الغرب.

وفي نفس الوقت كان ليوتار حاكم الأبانجي العليا قد شرع يتوغل صوب بحر الغزال ، فوصل إلى طنبوره في فبراير ١٨٩٦م ، وعقد معاهدة مع سلطانها ، ثم اتجه إلى ديم الزبير ، ليفتح طريقا إلى بحر العرب ، وبذا يكون ليوتار - عند تلقي مارشان للتعليمات - قد تجاوز حوض الكنغو ، ودخل الأقاليم السودانية في بحر الغزال.

وفي ٨ أبريل استقبل وزير المستعمرات مارشان ، وأمره أن يعمل بالتعاون مع ليوتار ، وحين غادر مارشان فرنسا كان ليوتار فقد تقدم حوالي ٢٥٠ ميلا ، بعد زميو ، ولكنه كان لا يزال في الجانب الغربي من خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو.

وفي ٢٥ يونيه ١٨٩٦م غادر مارشان باريس في طريقه إلى الكنغو ، وفي ٢٢ يوليه وصلت الحملة الوانجو ، ثم برازفيل ، التي غادرتها في أغسطس ، واتخذ طريق زميو طنبوره ليتفادى التجمعات الإسلامية ، وفي نهاية مارس ١٨٩٨م كانت مديرية بحر الغزال كلها قد خضعت للقوات الفرنسية.

وفي العاشر من يوليه وصلت حملة مارشان فاشودة ، ورفعت الراية المثلثة على أطلال القلعة المصرية القديمة ، ثم أرسل ـ أي مارشان ـ الكابتن باراتييه مع الباخرة فيدهيرب في ٤ يوليه ، ليتعرف على مصير الحملة الفرنسية الزاحفة مع الأحباش من الشرق ، فصعد في نهر السوباط وروافده إلى جوبا ، حتى وصل إلى مسافة مائتي كيلو من الناصر ، ورأى في طريقه عند مصب السوباط الراية الحبشية على الضفة اليمنى للنهر ، والراية الفرنسية على الضفة اليسرى ، وعلم أن الحملة اضطرت للعودة بعد أن فقدت الأمل في الالتقاء بحملة مارشان.

فما حكاية الحملة الفرنسية الزاحفة مع الأحباش ؟ لقد أشيع كثيرا التحالف ـ أو التفاهم ـ بين الإمبراطور منليك وبين الخليفة ، وكانت هذه كلها إشاعات مغرضة أو على الأقل مخاوف وهمية ، لا أساس لها من الواقع ، فإن النصارى الأحباش لا يقلون عداء للإسلام عن الإنجليز أو الفرنسيين ، بعضهم أولياء بعض ، وما حدث من منليك كان ببساطة شديدة الخوف من القوات الإسلامية التي تمكنت من قتل سلفه يوحنا ، كما ذكرنا.

والدليل على ما نقول أن الأحباش انتهزوا فرصة انشغال الخليفة ـ رحمه الله ـ بالخطر الزاحف من الشمال ليتقدموا على النيل الأزرق ، ليسهموا أيضا في الإجهاز على الخلافة الإسلامية.

ولا يكتفي الأحباش بهذا ، بل يتعهد الإمبراطور منليك نفسه لفرنسا بمرور الحملات الفرنسية عبر الأراضي الحبشية لمهاجمة الأراضي الإسلامية من الشرق ، كما يتعهد أيضا بتقديم كل مساعدة لها.

وقد جرى إعداد الحملة الأولى في ربيع ١٨٩٧م والتي قادها كلوشيت ، أما الثانية فقد كان على رأسها بون شامب.

واتخذت الثالثة ـ وهي التي كان مقررا أن تتقابل مع مارشان في فاشودة ـ نفس الطريق ، قادها هنري دي أورليان ، ولسوء حظ فرنسا فإن هذه الحملات الثلاث فشلت في تحقيق أهدافها بعد أن عجزت عن التعاون فيما بينها ، برغم الاستعدادات الهائلة التي سبقتها ، والرغبات التي كانت تحدو القائمين عليها في تحقيق النجاح.

وقد وصلت إحدى هذه الحملات ، وهي حملة بون شامب إلى مسافة ١٥٠ ميلا من فاشودة ، وعند عودة هذه الحملة قابلتها حملة حبشية كانت في الطريق إلى الغرب ، فعاد معها الفرنسيون ، الذين وصلوا إلى مسافة ٩٦ ميلا إلى الجنوب الشرقي من فاشودة ، وانتظروا فترة ، ولكنهم لم يجدوا أي أثر لحملة مارشان ، فاكتفوا برفع العلم الفرنسي على جزيرة هناك ، ثم انسحبوا ، هذا العلم وجده الكابتن بارتييه الذي أرسله مارشان للبحث عن الحملة القادمة من الشرق بالتعاون مع الأحباش ، كما ألمحنا إليه.

وقد اتخذ من حملة مارشان ورفعه العالم الفرنسي في فاشودة مادة جيدة للإثارة ، وشد الأعصاب ، فالقوتان العظميان انجلترا وفرنسا على وشك الصدام ، والحرب ستقوم بين القومين ... الخ ، كل هذا لتصوير الدولتين بصورة القوتين

المتنافستين ، تقف إحداهما من الأخرى موقف التنمر والتربص ، وهما على استعداد للمواجهة والحرب لأتفه الأسباب.

والواقع أن مثل هذه الأراجيف والمبالغات تحاك لخداع الشعوب والطيبين ، أمثال عرابي الذي ركن إلى وعود ديليسبس الفرنسي ، فكانت النتيجة أن طعن من الخلف ، ومن قبل قناة السويس التي أكد له ديليسبس أنه لن يسمح بمرور القوات الإنجليزية فيها ، ولكن الانجليز والفرنسيين والأحباش ... الخ ، كلهم كما قال ربنا : (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) وكان على أحمد عرابي باشا أن يكون على يقين من ذلك.

ولا يزال هذا الأسلوب من الإثارة والخداع يستخدم حتى الآن ، ولكن بواسطة القوتين العظمتين لهذا العصر ، أي أمريكا وروسيا ، لكي ترتمي الحكومات والنظم في أحضان أيهما تشاء ، فمن لا يعجبه اللون الأحمر الشيوعي فالأزرق أمامه ، والعكس صحيح ، ولا غنى للشعوب والدول المسكينة عن التحالف مع واحدة من القوتين ، وإلا فإنها لن تجد رغيف الخبز في صباح اليوم التالي ، وهكذا يا سادة يا كرام ، فإن أساليب المستعمرين واحدة في الماضي والحاضر ، وإن كانت في كل وقت عصرية ، مواكبة لزمنها.

وفى زمن لاحق انفردت أمريكا ، بعد انفراط عقد الاتحاد السوفيتي السابق ١٩٩٢ في القرن الماضي.

نعود إلى فاشودة فنقول إنه بعد هذه الضجة المفتعلة حول رفع العلم الفرنسي عليها ذهب مجرم الحرب كتشنر إلى هناك مرتديا الطربوش المصري ، وتحت العلم المصري !! منتهى التواضع كما نرى ، وتمت المجاملات الافتتاحية ، على أكمل وجه ، إذ هنأ مارشان ضيفه على انتصاره في أم درمان ، ورحب به في

فاشودة باسم الحكومة الفرنسية ، وهنأ كتشنر مضيفه على توفيقه الرائع في الوصول إلى النيل ، وبعد الحديث في الموضوع اقترح كتشنر أن يتصل مارشان بحكومته ، وبعد غداء ودي على ظهر مركب كتشنر عاد مارشان إلى معسكره ، حيث رد إليه كتشنر الزيارة ، ثم ترك الأمر للحكومتين البريطانية والفرنسية للاتفاق على ما ترياه كما سيأتي.

نتائج إسقاط الخلافة :

تنفس الصليبيون الصعداء بعد أن ذاقوا الأمرين من المهدي وخليفته - رحمهما الله - إذ قتلا أعظم القادة الانجليز وإمبراطور الحبشة ، وأذاقا الإيطاليين مرارة الهزائم ، كما قتل في المعارك مع الخلافة المهدية عشرات الألوف من الجنود ، ويكفي أن مصر وحدها فقدت ثمانين ألف قتيل.

وقد كتب مجرم الحرب كتشنر معلقا على مقتل الخليفة عبد الله التعايشي - رحمه الله : (أخيرا تخلصت البلاد من الطغيان العسكري ، الذي بدأ بحركة انتفاضة دينية متعصبة منذ تسعة عشر عاما ، وأصبحت المهدية في عداد الماضي ، وآمل أن يتفتح للسودان عهد أكثر إشراقا) يا للمشاعر الطيبة الرقيقة يا جنرال !!.

وفي ٢١ مارس ١٨٩٩م وقعت إنجلترا وفرنسا اتفاقية احتفظ الانجليز بمقتضاها بحوض النيل ، في حين أطلقت فرنسا يدها في المناطق الواقعة غرب النيل في حوض الكنغو ، ثم وقعت اتفاقية أخرى في نفس الشهر تكفلت بمقتضاها مصر وإنجلترا بحكم السودان معا ، وهكذا عاد الحكم العفن المنتن إلى البلاد التي نعمت قرابة العشرين عاما بحكم إسلامي ، على منهاج النبوة ، وعادت الجاهلية مرة أخرى تستبد بالعباد والبلاد.

وفي ١٥ مايو ١٩٠٢م وقعت إنجلترا والحبشة على اتفاق يتم بمقتضاه إعادة تخطيط الحدود السودانية الحبشية لصالح الأحباش ، وبعد زوال الخطر الإسلامي عن الحدود الشرقية هل يطمع الإمبراطور في أكثر من هذا ؟؟ لقد كان حلم الجميع أن يسقطوا الخلافة ، وقد سقطت ، ومن ثم فالباب انتح لاتفاقات بريطانية مصرية ، وبريطانية فرنسية ، وأخيرا مع الأحباش.

وننهي حديثنا عن الخلافة بهذا الاقتباس عن مورهيد ، يقول :

إن النصرانية نفذت إلى إفريقية الوسطى تحت حماية الإسلام ، وإذا كانت الأحداث قد انتهت بهزيمة المسلمين على طول النيل من أوغنده حتى مصر ، إلا أنها هزيمة مؤقتة ، فمنذ سنة ١٩٠٠م أخذ الإسلام ينهض باطراد في الشرق وفي إفريقية الوسطى ، وأصبح أكثر حظوة بالاتباع من النصرانية ، فالإسلام هو الفائز في التسابق على أكثر شعوب العالم إيمانا بالروح ، وبرغم استقلال الدول الثلاث فإن النزاع بين الديانتين - بين الشرق والغرب - يبدو جزءا من المشهد الإفريقي ، ينساب أحيانا في الخفاء ، وأخرى في العلن ، وهو مستمر ، لا سبيل إلى تفاديه كالنيل ذاته.

ومـاذا بعد يا مسلمون ؟

بعد دراسة الخلافة الإسلامية في السودان ، وقبلها الخلافة في غرب إفريقية أضع بين يدي المسلمين بعض الحقائق التي أمكن استخلاصها من الدراستين ، ضارعا إلى ربي ألا أكون قد تجاوزت قدري ، أو وضعت نفسي في غير موضعها ، وأن يقينا العثرات والزلات إنه سميع يجيب الدعاء.

أولا : إن المسلمين لا تقوم لهم دولة ، ولا تكون لهم نهضة ، ولا تصبح لهم كلمة إلا بقيادة علماء الدين الرساليين ، والأمثلة على ما نقول أكثر من أن تحصى ، في إيران ولبنان وأفغانستان ، هذه الجبهات الساخنة المستعرة ، أما في التاريخ - وهو قريب - فقد ضربنا أمثلة كثيرة في ثنايا الكتاب ، وهي مجرد أمثلة فقط أتيح لي التعرف عليها ، أو دراستها.

وأعتقد أن ما ذكرنا من الأدلة من الكتاب والسنة ، ومن الواقع في الماضي والحاضر كاف ليقف المسلمون جميعا على حقيقة الدور الذي يجب أن يناط بعلماء الدين ، وعلى أن نضعهم في مكانهم الصحيح من قيادة الأمة وزعامتها.

ثانيا : على الدولة الإسلامية إذا قامت في أي زمان ومكان أن تدرك أنها ستقف أمام كل القوى الكافرة والمنافقة في هذا العالم ، ولن تصبر هذه القوى لإعداد الدسائس [1] والمؤامرات ، وهل تؤتي ثمارها أم لا ؟ بل ستقوم مباشرة إلى السلاح والحرب السافرة ، التي تعلن فور معرفة هوية النظام الجديد ، وفور الإعداد لها ، وهو ما لا يأخذ وقتا طويلا.

---

(١) هذا لا يعني أنها تعدل عن سياسة الدس والمؤامرة، بل تستمر فيها أيضا إضافة إلى التهديد العسكري.

وقد أسقطت الخلافة الإسلامية في السودان وفي غرب إفريقية بواسطة الحملات العسكرية ، وكذلك حاولوا مع الجمهورية الإسلامية فور التأكد من هويتها ، وعليه فإن الدولة إذا قامت لابد وأن تكون دولة مجاهدة ومحاربة من الطراز الأول ، الحرب صنعتها وحرفتها ، لكل فرد فيها دور في الجهاد والحرب ، حتى الأطفال والشيوخ والعجائز ... الخ ، كل حسب طاقته ووسعه.

وأما أسباب هزيمة الخلافة الإسلامية في السودان أمام القوات المصرية الإنجليزية المشتركة فهي :

١- هروب أورفالدور ومنصرتين من بعثته ثم سلاطين ، فعلى الدولة الإسلامية أن تكون على جذر كامل من أسراها ، التعامل مع الجواسيس ، إما القتل ، وإما الفداء ، لكنه لا يترك ليعيش بين ظهرانينا.

٢- إهمال الجبهة المصرية بعد هزيمة طوشكي ، وكان هذا خطأ فادحا ، فقد تمكنت انجلترا بعد ذلك من إعادة احتلال السودان عن طريق مصر ، ولقد كان المسلمون في الجبهة الشرقية أكثر توفيقا ، وبخاصة مع الأحباش حيث قتلوا يوحنا الرابع فلزم خلفه منليك حدوده ، ولم يحاول التحرش بالحدود الإسلامية إلا بعد قدوم الانجليز واحتلالهم دنقلة ، ولعل هذا التحرك كان جزءا من اتفاق الإمبراطور مع الإنجليز.

وموقف مصر من الخلافة يذكرنا بحقيقة مهمة ، وهي أن الخطر لا يهدد الدولة الإسلامية ، ولا يأتي إلا من جيرانها ، ولعل القارئ يذكر تلك المعارك الطاحنة التي قامت بين مملكة برنو الإسلامية وبين خلافة سوكوتو ، إذن فالخطر من الجار المسلم - أو المحسوب على الإسلام - أقرب وأدنى.

والحرب التي استعرت بين إيران والعراق ، ثم بين العراق والكويت ما هي إلا صورة للحرب التي دارت بين الجيوش المصرية بقيادة الإنجليز وبين خلافة أم درمان ، الفرق فقط في استخدام الأدوات والأسلحة المناسبة للوقت الحاضر ، ولذا فإن قيام العراق بغزو إيران بعد الثورة ليس له إلا معنى واحد ، هو محاولة القضاء على الجمهورية الإسلامية ، وليقولوا في وسائل الإعلام ما يشاءون ، فهذا الكلام لا يخصنا.

صحيح أن هذه الحرب قد طالت سنوات وسنوات ، سقط فيها الشهداء ، وهدمت فيها البيوت ألم يقل ربنا : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ [(١)]).

٣- اتخاذ موقف دفاعي من حملة كتشنر ، مما مكن الحملة من احتلال دنقلة دون [(٢)] معارك تذكر ، وكان هذا خطأ فادحا أيضا ، إن المهدي - رحمه الله - كان يحاصر الخرطوم ، ومع ذلك خاضت حملة ولسلي ثلاث معارك مضطرة ، فقد كانت مهمتها الوحيدة إنقاذ غوردون وستيوارت من الخرطوم ، ومع ذلك ففي كل معركة فقدوا قائدها.

وحين فتحت الخرطوم وانهارت حملة ولسلي وتراجعت في ارتباك لم يتركها المهدي - رحمه الله - بل أرسل الفرسان لمطاردتها ، وإخراجها من الحدود الإسلامية.

ولذا فإن على الدولة الإسلامية أن تكون شديدة اليقظة من جيرانها ، وأن ترد بعنف وقوة على أي تحرش بها ، فإذا هوجمت فليس بينها وبين من هاجمها إلا الذبح.

---

(١) ٢١٦ ، البقرة.
(٢) ولا ننسى استخدام الانجليز لأسلحة جديدة جربت لأول مرة ضد المسلمين مثل قنابل الليديت ، واستخدام الزوارق الحربية ومدافع مكسيم الرشاشة السريعة ، وتدريب الضباط والجنود على حرب الصحراء ، واستفادة العدو من هزائمه السابقة.

أما المسئول عن إسقاط خلافة أم درمان ، فعلى القمة من الدول [1] يتربع الانجليز الذين يتولون قيادة الحرب ضد الإسلام في كل مكان ، وهنا أقدم لائحة اتهام لبعض الناس ينخدعون بسهولة أو ينسون ، وتذكر فقط بعض جرائم الأفعى ضد المسلمين :

(أ) إسقاط خلافة أم درمان وسوكوتو والقضاء على الملا في الصومال.

(ب) قتل الخليفتين محمد الطاهر وعبد الله التعايشي والملا.

(ج) تسميم الآبار التي كان يشرب منها المسلمون في الصومال ، مما أدى إلى استشهاد عشرات الألوف في حرب المهدي وخليفته ـ رحمهما الله ـ إذ مات من المصريين فقط ثمانون ألفا ، وفي معركة أم درمان وحدها استشهد عشرة آلاف مسلم ، كما جرح ستة عشر ألفا ، دون أن يمس أحد منهم للانجليز على طرف ، ودون جريرة ، إلا إقامة شرع الله على أرضهم.

(هـ) ترك جرحى المسلمين ليموتوا في الميدان ، وهو ما صرح به مورهيد نفسه ، ناهيك عن الجرائم الأخرى التي يعرفها القاصي والداني مثل إقامة إسرائيل واغتيال حسن البنا وما فعلته في مسلمي الهند ، ودورها في إسقاط الخلافة العثمانية ... الخ القائمة السوداء.

وإني لآمل أن يتمكن الباحثون المسلمون من إعداد قائمة كاملة بالجرائم التي ارتكبتها هذه الأفعى وغيرها ضد المسلمين.

أما الأشخاص الذين كان لهم دور مباشر في إسقاط الخلافة ، فهم المنصر أورفالدر والمنافق سلاطين ومجرم الحرب كتشنر ، تلك الأسماء التي ينبغي أن يحفظها كل مسلم.

---

(١) أما الدول الأخرى فهي مصر ـ الخديوي ـ والحبشة وإيطاليا وفرنسا.

ثالثا : إن منظمات حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية والصليب الأحمر إن هي إلا ستر جيدة للجواسيس ، ولذا فإن على المسلمين ألا يسمحوا لمثل هؤلاء الناس بأن يجوسوا خلال الديار ، مهما كانت المبررات ، إن السواعد والعقول الإسلامية تغني عن هؤلاء المتمسحين [1] بحقوق الإنسان والأعمال الإنسانية.

وما أرى هذه المنظمات كلها إلا وريثة جمعية مكافحة الرق ، التي كان لها دور كبير في إثارة الرأي العام - في إنجلترا وغيرها - ضد الحكم الإسلامي في أم درمان ، إذ كان شغلها الشاغل ، وكأنها جمعية مكافحة الإسلام ، وليس الرق ، تماما كما تفعل منظمات حقوق الإنسان وما شاكلها ، فلا هم لها الآن إلا فظائع محور الشر، القتل والسجن والتعذيب ، وكل ما يخطر على قلب بشر ، كما كانت جمعية الرق لا ترى إلا فظائع الخليفة عبد الله التعايشي ، رحمه الله.

إن الغرب - والشرق أيضا - يستغل كل شيء لصالحه ، ولحرب أعدائه المسلمين ولا يتورع عن استخدام منظمات حقوق الإنسان وغيرها للتشهير بالسائرين على سنة النبي (ﷺ) ومنهجه ، بل لعلي لا أكون مبالغا إذا قلت إن جمعية الرق والمنظمات الإنسانية ... الخ. ما أنشئت إلا لأهداف خبيثة شيطانية ، وما الأهداف الإنسانية البراقة إلا ستر للمآرب الشيطانية.

رابعا : إن المسلمين بحاجة إلى مركز لدراسة الحركات الإسلامية وغيرها ، للاستفادة منها في الحاضر والمستقبل ، ودراسة حياة المجاهدين الرساليين ، وبخاصة الذين لا يعرف المسلمون الشيء الكثير عنهم ، أو لا يعرفونهم البتة.

---

(١) حاول بعض أعضاء الصليب الأحمر إثارة الفتن بين الأسرى العراقيين في إيران لإدانة طهران ، وقد ثبت أن هؤلاء الأعضاء عملاء لحزب البعث العراقي.

ويمكن أن يسمى مركز الدراسات التاريخية ، أو مركز الدراسات الحركية ، ويناط به ما يلي :

١- دراسة القادة الرساليين ، وتجلية دورهم الجهادي ، لوضعهم في مكانهم اللائق والصحيح ، وليعرف المسلمون العمالقة من الأقزام ، والزعماء المصنوعين في معامل الاستكبار العالمي ، من القادة الرساليين.

٢- إنشاء مكتبة جامعة لكل ما كتب عن الحركات الجهادية وقادتها ، بجميع لغات العالم ، ونشر وتحقيق ما يحتاج إلى ذلك.

٣- يقسم المركز إلى خمسة أقسام ، لكل قارة قسم ، كما يلي :

(أ) آسيا. (ب) إفريقية. (جـ) أوروبة.

(د) الأمريكتان ، الشمالية والجنوبية. (هـ) أستراليا.

٤- دراسة المعارك العسكرية لهذه الحركات الجهادية لاستخلاص الدروس المستفادة منها ، وتجلية التاريخ العسكري الإسلامي.

٥- دراسة الحركات غير الإسلامية ، من باب الحكمة ضالة المؤمن ، وأيضا من باب اعرف عدوك.

خامسا : الصراع بين الجاهلية والإسلام صراع حتمي ، لا مفر منه ، فعلى كل مسلم أن يعد نفسه لهذا الصراع ، دون أن يترك للجاهلية فرصة لمباغتته أو مفاجأته ، بل عليه أن يأخذ بزمام المبادرة ، وأن يكون مستعدا للمواجهة في أية لحظة ، فهو دائما دائما يقظ ، لا يلقي السلاح طرفة عين ، يترقب أية فرصة تلوح له لطعن الجاهلية وضربها في مقتل.

المؤلف

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة